# السيدة زينب (ع)

## ثورة لا تهدأ ودمعة لا ترقأ

إبراهيم محمد جواد

دار الرسول الأكرم (ص)

دار المحجة البيضاء

www.haydarya.com

١٤٣٥

# السيدة زينب الكبرى (٤)

# ثورة لا تهدأ ودمعة لا ترقأ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧
E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

# السيدة زينب الكبرى ( ٤ )

# ثورة لا تهدأ ودمعة لا ترقأ

ابراهيم محمد جواد

دار المحجة البيضاء

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم
التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

نالت السيدة زينب عليها السلام اهتماماً بالغاً ومتميّزاً من كثير من الكتّاب والدارسين والشعراء، فكثرت الكتب والدراسات والقصائد التي تناولت حياها بالإجمال والتفصيل، وقد أوردت مجلة "المرشد" في عددها الخامس (١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م) الخاص بالسيدة زينب، فصلاً من حوالي تسعين صفحة بعنوان "معاجم من ذهب فيما قيل عن زينب" جاء فيه أن السيدة زينب قد ورد ذكرها في اثني وسبعين كتاباً، وأن الشعراء الذين نظموا فيها شعراً بلغوا مائة وواحداً وسبعين شاعراً، وأن ماكتب عنها من الكتب المستقلة بلغ مائة وثلاثاً وستين كتاباً.

ولايخفى على القارئ أن ماذكرته المجلة لايعتبر إحصاءً شاملاً، وإنما هو فقط ماوصلت إليه يدها كما ذكرت، وأنه قد فاتها الكثير مما لم تصل إليه ولم يقع تحت يدها.

كما أن المقام الشامخ، المشاد لها في مدينة دمشق (قرية راوية المسماة حالياً باسم بلدة السيدة زينب)، والذي يرعاه السادة النجباء من آل المرتضى أباً عن جد، يعتبر من أرقى وأجمل مقامات ومشاهد أهل البيت عليهم السلام، وهو يغص بالزائرين من كافة أنحاء العالم يومياً.

وما ذلك كله إلاّ لما لهذه السيدة الجليلة من شخصية فذّة، ومواقف عظيمة، ودور متميز في المجتمع الإسلامي، سواء في حياة أبيها الإمام عليٍّ عليه السلام، أوفي حياة أخويها سيدي شباب أهل الجنة، وريحانتي

جدهـــا النبي محمد،صلى الله عليه وآله وسلم، الإمامين الجليلين الحسن والحسين عليهما السلام.

وخاصـــة تلك الوقفة الشامخة، البالغة الأثر والمدى، مع أخيها الإمام الحســـين عليه السلام، ومساندته في ثورته الكبرى على طغيان بني أمية، والتي أدّت إلى استشهاده عليه السلام، وجميع من كانوا معه من أهل بيته وخُلّصِ أصحابه في كربلاء، وسبي نسائه والطواف بهنّ من بلد إلى بلد، مـــابين الكوفة في العراق ودمشق في الشام، ووقفتها الصامدة والشجاعة أمام أكبر طاغيتين من طغاة بني أمية، وهما عبيد الله بن زياد في الكوفة، ويزيد بن معاوية بن أبي سفيان في دمشق.

وقد تابعت السيدة زينب بعد ذلك مسيرة أخيها بفضح مدى بشاعة وطغـــيان الحكـــم الأموي بشكل عام، وحكم يزيد بن معاوية بشكل خـــاص، حيـــث آتت تلك الثورة أُكُلَها، وأدّى ذلك الجهاد المتواصل المبارك، إلى اقتلاع جذور الحكم الأموي، وبقيت تلك الثورة، التي تعتبر الأولى في تـــاريخ الإسلام، مناراً لكل الثورات في التاريخ الإسلامي، بل وفي التاريخ البشري أيضاً.

وأصبحت السيدة زينب بمواقفها تلك، ودورها المتميز في جميع مراحل حياتها المباركة، قدوةً ورمزاً لكل النساء، اللواتي يُرِدْنَ أن يسلكنَ طريق المجد والعزة والكرامة في كل عصر وجيل.

وتشـــكل السيدة زينب بنت علي، مع أمها السيدة فاطمة الزهراء، بنت رسول الله محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، لُحْمَةً لانظير لها على

الإطـــلاق، في طول المسيرة البشرية وعرضها، فهما قمة سامقة في العلم والفهم، والعبادة والزهد، والعفاف والطهر، والتضحية والإخلاص.

ومن هنا جاء قول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ، معبراً عن هذه الحقيقة الناصعة : ﴿ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) ﴾ سورة الأحزاب ، وقول رسول الله صـــلى الله علـــيه وآله وسلم: ( فاطمة سيدة نساء العالمين )، وقول الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام لعمته زينب: ( أنت بحمد الله ياعمّة عالمة غير معلّمة، وفاهمة غير مفهّمة).

ولذلك فقد عقدت العزم متوكلاً على الله سبحانه وتعالى، للإدلاء بدلوي في الكتابة عن أفضل نساء العالم في الدنيا والآخرة، بطريقة أدبية روائـــية معاصرة، أفكك فيها المرويات التاريخية المعتبرة في تراثنا، وأحلّل المفاهيم والأحداث التي تتضمنها، وأصب كل ذلك في أسلوب عصري محبّب يفهمه العامة ويستسيغه الخاصة، ويرضي جميع الأذواق.

واقترابي من أسلوب القصة والرواية في كتابي هذا، لايعني الذهاب إلى مشاكلتهما تماماً، ولايهدف لغير التشويق والتسهيل، وصب الحقائق في قالـــب أدبي بعيد عن التعقيد، بحيث يفهمه القارئ العادي، ويستسيغه المفكر والأديب.

وكنـــت تحت عنوان عام هو: (عبقات من سيرة حياة أهل البيت)، قد أصدرت في نهاية عام ١٩٩٤م، كتابي الأول (فاطمة الزهراء صوت

الحق وصرخة الصدق)، وها أنذا أُردف به بحمد الله وشكره، الكتاب الثاني: (السيدة زينب الكبرى ثورة لاتهدأ ودمعة لاترقأ)، الذي كتبته بنفس الطريقة وذات الأسلوب الذي اتبعته في الكتاب الأول، شفيعي في هذا ماقوبل به الكتاب الأول من استحسان كبير، وما لقيه من ترحاب وإقبال، حتى لقد نفذت جميع نسخه خلال شهور معدودة.

وقد اعتمدت أثناء الكتابةعلى كثير من المصادر والمراجع، قديمها وحديثها، كبيرها وصغيرها، مفصّلها ومجملها، واستفدت من الروايات والأفكار التي وردت فيها قدر الإمكان، وبالشكل الذي يخدم الهدف من هذا الكتاب، والأسلوب الأدبي الذي صُبَّ فيه.

وإنه لمن المؤسف حقاً، أن عقباتٍ كثيرةً اعترضتني، وأن مشاغل حياتية متعددة ساهمت في تأخير إنجاز هذا الكتاب، من أهمها انشغالي فترة طويلة في تحقيق وتصحيح " موسوعة المدائح النبوية " التي جمعها وأعدّها الرجل الفاضل، الحاج عبد القادر عدنان أبو المكارم، حفظه الله ومدّ في عمره، والاضطرار بين الفينة والأخرى، إلى إنجاز بعض البحوث والدراسات التي كانت تطلب مني بإلحاح، وثالثة الأسافي ذلك السوس " الشعر" الذي بدأ ينخر في وجداني بشكل لافت وملح، في تلك الفترة التي أردت فيها التفرغ لإنجاز هذا الكتاب، والذي أخذ مني ومن وقتي الكثير الكثير.

وعزائي أن الأمور مرهونة بأوقاتها، وأن الله سبحانه وتعالى قد منّ عليّ بفضله، وتكرمّ بأن يسّر لي أخيراً إنجاز هذا الكتاب، بالشكل الذي

أريــده والذي خطّطت له، وقد قمت بنفسي بتنضيد نسخته الأساسية وإخـــراجها إخراجاً فنياً على الكمبيوتر، وبقي أن يمنّ الله ويتكرم عليّ مــرةً أخرى بتيسير طباعته وإصداره في أقرب فرصة، ليأخذ مكانه إلى جانب شقيقه في المكتبة الإسلامية، وليساهما معاً في إعداد جيل صالح من الشباب والشابات، متشربٍ روح الإسلام، واعٍ لكل قضاياه ومفاهيمه، مــندكٌ اندكاكـــاً كاملاً في برنامجه ومنهاجه التوحيدي العالمي الشامل، ومستعدٌ للتضحية في سبيله بالنفس والمال والأهل والولد.

ومن الله تعالى أستمدّ العون والتسديد، والحمد لله ربّ العالمين.

الجمعة : ٢٧ شعبان المعظم ١٤٢٤هـــ

٢٤ تشرين الأول ٢٠٠٣ م

المؤلف

# الفصل الأول

# طفولة في أحضان المصائب

## نور علي وفاطمة

رنت أم سلمة رضي الله عنها إلى زوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس في حجرها، وقد لفه صمت مطبق وعلاه سكون عجيب، ثم مالبث جبينه أن تصبب عرقاً وقد لاحت البسمة على شفتيه، وفاض الرضى من ملامحه.

كانت أم سلمة قد ألفت من زوجها هذه الأحوال كلما جاءه الوحي من الله عز وجل، وكم كان يسعدها ويثلج صدرها أن يكون النبي في بيتها عندما يأتيه الوحي، فتكون أول من يتلقف من بين شفتيه صلى الله عليه وآله وسلم حكماً جديداً، أو تعليماً دينياً، أو توجيهاً أخلاقياً، أو بشرى سارة ..

لكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واصل صمته هذه المرة، وقد بدت على وجهه المشع بالنور علائم الترقب والانتظار، ولم يكن ليغيب عن أم المؤمنين ذات القلب الحساس والحس المرهف، مابالنبي الكريم من هذه العلائم، لكنها بأدبها الجم وحرصها البالغ، أشفقت أن تبادر زوجها بسؤال يعكر عليه صفو خاطره، ويقطع عليه ترقبه وا نتظاره.

وافتر ثغر رسول الله أخيراً عن ابتسامة جميلة طالما أسرت فؤاد أم سلمة، ونفذت بمعانيها السامية إلى أعماق قلبها الطاهر، فجلست بين يديه، وألقت سمعها إليه، تتلقف ما سيدلي به إليها من حديث كانت شغفة به متلهفة إليه.

_ أما علمت يا أم سلمة أن أخي جبرائيل عليه السلام قد أتاني آنفاً فقال: " يا محمد إن ربك يقرؤك السلام ويأمرك أن تزوج النور من النور ؟ " (١) .

_ أمرك أن تزوج من ممن يارسول الله ؟!.

_ فاطمة ابنتي من علي أخي.

_ على بركة الله يارسول الله، فنعم الزوجة ابنتك فاطمة، ونعم الصهر ابن عمك علي.

* * *

الله تبارك وتعالى من فوق العرش أمر .. وجبريل الأمين يزف إلى الملائكة في السماوات، وإلى الناس في الأرض الخبر .. والنبي الكريم يعلن بنفسه الزفاف المبارك الميمون .. وأمهات المؤمنين، وبنو هاشم ونساؤهم، ورجال المهاجرين والأنصار ونساؤهم، وجبرائيل وميكائيل وملائكة السماوات جميعاً هم الشهود والحضور.

ويضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يد أخيه وابن عمه علي، في يد ابنته فاطمة مهنئاً ومباركاً:

_ مرحباً ببحرين يلتقيان، وكوكبين يقترنان، ونورين يجتمعان، اللهم إنهما أحب خلقك إليّ فأحبهما، وبارك لهما وعليهما، وبارك في ذريتهما، واجعل عليهما منك حافظاً، وإني أعيذهما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم.

---

(١) : عوالم العلوم والمعارف ١١ / ١٤٩ عن خباب بن الأرت.

وأقيم عرس بهيٌّ في السماء بين الملائكة، وعرس في الأرض بين المؤمنين، وغرست دعامة من دعائم بناء الإسلام.

وهكذا زفت في فاتح ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة النبوية المباركة، سيدة نساء العالمين، الحوراء الإنسية، فاطمة الزهراء بنت محمد صلى الله عليه وآلــه وســلم خاتم الرسل والأنبياء، إلى ابن عمها الصديق الأكبر والفاروق الأعظــم، سيف الإسلام المسلول، وأسد الله والرسول، الفتى الغالب علي بن أبي طالــب، سيد الأوصياء والأولياء، وخيرة الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

* * *

واقتســما العمل فيما بينهما .. علي يكفيها من العمل ماكان خارج البيــت، وما يستوجب مزاحمة الرجال ومخالطتهم، وفاطمة تكفيه من العمل ماكــان داخــل البيــت، مما اعتادت النساء أن تقمن به دون رجالهن، عليٌّ يحتطــب ويستسقي الماء، ويأتي بالبر والطعام، وفاطمة تطحن وتعجن وتخبز وتكنس وتطبخ (١).

وسارت الحياة بينهما هنيّة سعيدة، كأحسن حياة بين مسلمين مؤمنين، لا يعكــرها الفقــر الذي كانا عليه، ولا الحرمان الذي أحاط بهما من كل جانب، ولا التعب الذي كان ينال منهما في كل يوم.

بهذه الروح النقية الطاهرة، والنفس الراضية القانعة، ابتدأت حياة الزوجين،

---

(١) بحار الأنوار ٤٣ / ١٥١.

كـــل منهما يشعر أن الآخر وديعة عنده، وأنه مكمل له، وأنه لايستطيع إلا أن يقـــدم لـــه كل مشاعر الود والحب والتقدير والاحترام، في انسجام متـــناغم، وتقـــابل متكافئ، متعادل الدم، متوازي الوجه، متساوي الإقبال، متشـــابه الخـــط، مـــتماثل الجهد والقصد، كل يعرف قدر صاحبه ومكانته، ويعرف موقعه وإمكاناته، ويعرف ما أنيط به من الأعباء والمسؤوليات.

أي بيت ذلك الذي انطوى على معصومين مطهرين، ووليين صالحين مترهـــين، فكـــان الأنمـــوذج الكامل للأسرة المسلمة، والمثال الحي للبيت الإسلامي المبارك ؟، وأي زوجين مسلمين كاملين ضمهما بيت فاطمة وعلي علـــيهما السـلام، فكانا مثال الصفاء والنقاء، والإخلاص والوفاء، والألفة والتعاون، والمودة والمحبة، والرحمة والطاعة ؟!.

وكـــيف لا يكونان كذلك، وقد تربيا معاً في حجر النبوة، يشمان ريح الوحي، ويعيشان نورانيت، ويعاينان شكله ويسمعان صوته، وتتلقى أذناهما الواعيـــتان آيات القرآن الكريم من فم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ترنيماً وترتيلاً وصلاة، وتتردد في قلبيهما خضوعاً وخشوعاً ومناجاة، فترف في جوانحهمـــا بمعانيها المقدسة، ولُباب جواهرها الباهرة وكنوزها الزاخرة، فتلين لها جوارحهما بخوعاً وأدباً وسلوكاً.

## *ريحانتا رسول الله*

هبت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب من نومها مذعورة وجلة عـــلى رؤيـــا غريبة، أثارت في نفسها الحيرة وفي قلبها الخوف، فانطلقت من

فورها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تقص عليه رؤياها، وتفضي إليه بما يساورها من الخوف والقلق:

- رأيت في ليلتي هذه يارسول الله، كأن بعض أعضائك ملقىً في حجري، فانتابني من ذلك قلق شديد، وساورني خوف كبير.

- خيراً رأيت ياأم الفضل، تلد ابنتي فاطمة غلاماً، فتكفلينه بلبن ابنك قثم، فذلك تأويل رؤياك (١) .

سُـــرِّيَ عـــن أم الفضل، وسُرَّتْ ببشارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وانشرح صدرها وانزاح عنها ماكان بها من الخوف والقلق، فراحت تقـــص على الزهراء رؤياها، وتبشرها بالمولود الذي سترزق به، وسيكون لها - هي - شرف حضانته وإرضاعه.

غرقـــت السيدة الزهراء في تأملاتها، وأخذتها الذكريات إلى ماض بعيد، يوم كانت أمها خديجة الكبرى عليها السلام، تحدثها عن تلكم البشرى التي زفهـــا إليها زوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يوم كانت حاملاً بفاطمـــة، فبشرها أنها تلد بنتاً طاهرة مباركة، ستكون منها الذرية الطاهرة المـــباركة، بنتاً ستكون أماً مباركة لأحد عشر خليفة يخرجون بعد رسول الله وبعد أبيهم (٢) .

---

(١) مسند بن حنبل، سنن ابن ماجة ، مستدرك الحاكم على الصحيحين ، طبقات ابن سعد .

(٢) روضـــة الواعظين ص ١٢٤ للفتال النيسابوري، بحار الأنوار ٤٣/ ٢ ، الأمالي للصدوق ص ٤٥٧ عـــن الإمـــام الصادق عليه السلام ، تجهيز الجيش للدهلوي ، وانظر فاطمة الزهراء أم أبيها للميلاني ص ٣١ .

سـلام عليكِ يا أماه، لقد عشت بعدك وأنا أحلم بهذه البشارة الكبرى، وهاهو أولهم قد حان أوان مولده، وهلت بشائر مقدمه.

مـا أن أشرقت شمس الصباح، ووشت بخيوطها الذهبية صفحة الكون، حتى أطل الوليد الأول لعلي وفاطمة عليهما السلام، فأضاء نور وجهه البيت السـعيد، وانتشـر دفء الفـرح في القلوب، كما انتشر دفء الشمس في الوجـود، وهرولت أسماء بنت عميس إلى المسجد، تزف البشرى لعلي عليه السـلام، فما أسرع ما تهلل وجهه فرحاً، وانفرجت أساريره، وأسرع إلى الزهـراء يهنئها بسلامتها ويبارك لها مولودها، ويشد على يديها بحنان وود بالغين.

نظرت فاطمة إلى زوجها علي بعينين تغمرهما دموع الفرح، وتناولت بيديها الحانيتين ابنهما الوليد ترفعه إلى أبيه وتقول:

– سمه ياعلي.

– ماكنت لأسبق باسمـه جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

لم تفاجـأ الزهـراء بجـواب زوجها، فلطالما عهدت فيه الحب الشديد والـتوقير الكـبير، والمهابة العظيمة، لأبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يكن علي ليقدم على أمر دون مشورة رسول الله وإذنه، وما كان علي ليخطو إلا على خطوات رسول الله وهديه.

تناول علي ابنه الأول، يتأمله ويشمه ويضمه إليه، وتأسره إشراقة وجهه وبسـمة ثغـره، ونفح طيبه وشذى عطره، وفيما هما كذلك، دخل عليهما

رسول الله مستبشراً مسروراً، وهو يقول:

- أروني ابني.

أخــذ الــنبي وليده من علي بيديه الشريفتين، ثم أماط عنه خرقة صفراء كان قد لُفَّ بها على عجل، واستبدلها بخرقة بيضاء لفه بها على مهل وبعناية بالغــة، ثم رفعه بين ذراعيه، وضمه إلى صدره الدافئ الحنون، فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى، حتى إذا فرغ من ذلك التفت إلى علي يسأله:

- ماسميتموه ياعلي؟.

- ماكنا لنسبقك باسمه يارسول الله.

- وما كنت لأسبق ربي عز وجل باسمه ياعلي.

أطــبق الصمت على الجميع، ولفهم سكون عميق وهم يرمقون رسول الله بأبصــارهم والوليد على صدره، تحوطه ذراعاه، وتحدثه شفتاه، ويبتسم لــه ثغره، وسرعان ما انضم أمين الوحي جبرائيل إلى هذا الجمع المبارك، ينقل إليهم التهاني والتبريكات الربانية من الله الجليل، ويقول للنبي صلى الله عليه وآله وسلم:

- يارســول الله إن أخاك علياً منك بمنزلة هارون من موسى، وإن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تسمي ابنه باسم ابن هارون.

- وماكان اسم ابن هارون ياجبرائيل؟.

- شُبَّرٌ بلسانه العبري، والحسن بلسانك العربي.

- فليكن اسمه شبر ياجبرائيل، وليكن الحسن كما أمر رب العزة والجــلال

سبحانه وتعالى (١) .

* * *

وهكذا كان الحسن الريحانة الأولى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والبرعم الأول من براعم الشجرة المباركة، وطليعة الكوثر الطيب الطاهر الذي وعد به رسول الله علياً وفاطمة.

وكان الحسن اسماً على مسمىً، وكان كثير الشبه بجده وأبيه وإن كان بأبيه أكثر شبهاً.

وجاءت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب تستنجز رسول الله تأويل رؤياها في هذا الوليد المبارك، وهكذا كان الحسن يتقلب من حضن أمه الزهراء، إلى ذراعي أبيه علي، إلى صدر حاضنته ومرضعته أم الفضل، إلى رعاية وعناية جده رسول الله، فيرضع من هذه وتلك أنوار الحلم والعلم، ولبان الفضيلة والطهر، ويرتشف من أبيه وجده مورثات الشجاعة والفصاحة، وأسباب القوة والجلد، وفضائل الصبر ورباطة الجأش.

لم يكن قد أتم الحسن عامه الأول في حضن والديه عليهما السلام ورعاية جده صلى الله عليه وآله وسلم، وعين الله سبحانه وتعالى، حينما بدأت أمه الزهراء تشعر بعلائم ولادة ثانية، وراح البيت النبوي يستعد

---

(١) ذخائر العقبى ص ١١٨ – ١٢٠ ، تاريخ الخميس ١/ ٤١٧ –٤١٨ ، بحار الأنوار ٤٣ / ٢٤٠ – ٢٤١ عن علل الشرائع ومعاني الأخبار للشيخ الصدوق، وقد ولد الحسن في الخامس عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرةالنبوية– الأول من آذار سنة ٦٢٥ ميلادية.

لاستقبال مولود جديد.وفيما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيت فاطمة، هبط إليه جبرائيل عليه السلام واعتنقه يبث إليه رسالة ربه عز وجل:

– يا محمد: إن الله يبشرك بمولود تقتله أمتك من بعدك، ويبشرك بأنه جاعل في ذريته الإمامة والوصاية إلى يوم القيامة.

افتر ثغر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ابتسامة باهتة، وانحدرت من مقلتيه دمعات، فعجبت فاطمة من ابتسامة أقرب إلى البكاء، ونظرت إلى أبيها كأنها تستوضحه، فتوجه إليها يقول:

– بنية فاطمة، هذا أخي جبرائيل قد بشرني أنك تلدين عما قريب مولوداً ..

ابتسمت الزهراء، وتابع رسول الله:

– وأخبرني أن أمتي تقتله من بعدي ..

فاغتمت فاطمة واغرورقت عيناها بالدموع،حزناً على ولدها الذي لم يولد بعد.

واستأنف رسول الله كلامه معقباً:

– وبشرني أن الله جاعل في ذرية ولدك هذا الإمامة والولاية والوصاية إلى يوم القيامة.

فاستبشرت فاطمة ولملمت دموعها، وحمدت المولى سبحانه وتعالى وسلمت أمرها وأمر ولدها إليه (١) .

استغربت فضة وأم أيمن وأم سلمة هذا الحوار العجيب بين أهل هذا البيت

---

(١) الكافي للشيخ الكليني ١ / ٤٦٤ .

الطاهر المعصوم، وأثارهم مشهد هذا التسليم المطلق لمشيئة الباري سبحانه، إلا من دموع أجراها الحنان الذي لا يملك له الإنسان دفعاً، وهزت أم سلمة رأسها يميناً وشمالاً في عجب، وقالت وهي تقلب كفيها في حيرة واستغراب:

- عجباً لمولود يبكيه أهله قبل أن يولد !.

- لا تعجبي يا أم سلمة من أمر خطه الله سبحانه وتعالى بقلم القدر على اللوح المحفوظ لحكمة يريدها، لاتتحقق إلا بشهادة هذا المولود، وستعيشين ياأم سلمة إلى ذلك اليوم المحتوم، وستشهدين انقلاب أمتي على أعقابها، ونكوصها عن منهجي، وظلمها لولدي، وستحاولين منع القدر ولا مانع له، وسترومين دفعه وقدر الله لادافع له، قدر مرسوم وقضاء محتوم.

وانحدرت الدموع غزيرة على خدي أم سلمة وهي تقول:

- ياالمولود يبكيه أهله قبل أن يولد، ثم تبكيه الدنيا كلها، سماواتها وأرضها وناسها أبد الدهر بعد ذلك.

لم يغسل الدموع السخية التي انحدرت من عيني رسول الله وأهل بيته وزوجته أم سلمة وجاريتيه فضة وأم أيمن، إلا انبلاج نور الحسين بين جنبات بيت فاطمة وعلي(١)، ومنه أضاء المدينة المنورة، وحمل معه الفرح والسرور إلى كل بيت من بيوت المؤمنين فيها، بل وتعداها ليدخل كل بيت

---

(١) ولد الإمام الحسين عليه السلام صباح يوم الخميس الثالث من شهر شعبان سنة / ٤ / للهجرة الموافق العاشر من كانون الثاني سنة ٦٢٥ للميلاد .

من بيوت بني هاشم في مكة المكرمة، فرحاً بالريحانة الثانية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

## الصدِّيقة زينب الكبرى

وضعت الزهراء يدها على بطنها تتحسس الوليد الجديد، ثم عادت إلى الرحى تديرها بيدها وقد تصببت عرقاً، وأخذ التعب منها كل مأخذ، وهبت فضة إلى سيدها تنتزع الرحى من يدها انتزاعاً، وعادت فاطمة تتحسس بطنها وقد تدحرجت دمعتان من مقلتيها، وندّت عنها زفرة حرّى عندما قفزت إلى ذهنها ذكريات ولادة ابنيها الحسن والحسين، ففي كلتا المناسبتين سبق الحزن الفرح، وانحدرت الدموع من عيني أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يخبرها بخبرهما، ويحدثها عن مقتلهما مظلومين الواحد بعد الآخر.

ومهما تنس الزهراء فلن تنسى حين جاءت أباها والحسن والحسين على عاتقيها، فتناولهما منها بحنان بالغ، ووضعهما معاً على ركبتيه، ثم انحنى عليهما فقبل الحسن من ثغره، وقبل الحسين من نحره، فتعجبت الزهراء من صنيع أبيها في كل من ابنيها، وأيقنت أن وراء ذلك سراً مكنوناً في صدر الرسول يشفق أن يبديه لها، ويتخوف منه على أحاسيسها ومشاعرها، واستجمعت الزهراء قواها، وصممت على كشف ما استشعرته بين جوانح أبيها من سر مطوي وعلم مغيب، وانطلق سؤال الزهراء واضحاً في أدب جم وإقبال كامل:

- أبي لقد قبلت ابنك الحسن في ثغره، ثم ملت إلى أخيه الحسين فعدلت عن

ثغره لتقبله في نحره، فأي سر ينطوي عليه هذا الصنيع؟.

اغرورقت عينا رسول الله بالدموع، وهو يبوح لابنته بما كان قد أخفى عنها:

- بنية، لقد قبلت كلاً منهما من مقتله.

- وكيف ذلك ياأبه؟.

- يا فاطمة، أما ابني الحسن فيقتل مسموماً بعد أن يطفئ الله به فتناً تثيرها بطون من قريش، تؤول الأمور بعدها إلى بني أمية فيكثرون القتل في المسلمين، ويحصل هرج ومرج لاينهيه إلا ابني الحسن، وأما الحسين فيقتل بالسيف في أرض كرب وبلاء، ويحز رأسه ويحمل على رمح ويطاف به في البلاد.

- ولماذا يقتلونهما يا أبه؟.

- أما الحسن يا ابنتي، فيقتله فرع الشجرة الملعونة في القرآن، ذو بطن لا يشبع ونفس لا تقنع، وأما الحسين فيقتله صاحب القرود والفهود، المنتهك للحرمات، غصن فرع الشجرة الملعونة.

ازدادت زفرات فاطمة، وتدفقت دموعها على الخدين سيولاً وهي تسترجع كلمات أبيها عما سيحدث لولديها على أيدي أناس هم في ظاهر الأمر من المسلمين، ومسحت دموعها وهي تقول:

- رضى الله رضانا أهل البيت.

إن الآلام والدموع هي قدر الزهراء وأبيها، وإن التضحية والفداء ثم الشهادة هي قدر بعلها وأولادها، ونصيبهم من هذه الأمة التي أوجب الله

علـــيها مودهم، وفرض عليها طاعتهم، و الانقياد التام لهم، والتزام غرزهم، والتمسك بطريقتهم ونهجهم القويم، وسلوك صراطهم المستقيم.

ترى ما هو حظ الوليد الوشيك من هذه الآلام والدموع والتضحيات؟، إن الزهراء لاتشك مطلقاً أن لهذا الوليد الحظ الوافر والنصيب الكبير من آلام هـــذا البيـــت الطاهر، المبتلى بدرب طويل ملؤه الأشواك والآلام والمصائب والدموع.

كفكفت الزهراء من دموعها، ولجأت إلى ربها وهي تردد:

- لا إلـــه إلا الله، لا حـــول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

* * *

أومأت فاطمة لجاريتها " فضة " إيماءة معروفة، وعلى الفور حضرت أم سلمة وأم الفضل وأم أيمن، وتحلقن حول الزهراء يساعدنها ويهيئنها لاستقبال المولـــود الجديد،كـــان الوقت شتاء، وكان جو المدينة المنورة شديد البرودة، متقلـــب الطقس، والليل شديد العتمة، وكانت الأمطار الغزيرة تنقر سقف البيت نقراً عنيفا، وعندما انبلج عمود الصبح، وتوقفت الأمطار عن الهطول، وبـــزغ نور الفجر، كانت صدّيقة طاهرة تطل بوجهها الجميل المشرق على دنيا الوجود (١) .

---

(١)كانـــت ولادة الســـيدة زينـــب صـــباح يـــوم الجمعـــة الخامس من شهر شعبان من السنة الخامسةللهجرة، الموافق للرابع من شهر تشرين الثاني لعام ٦٢٦م ، وتلتها أختها أم كلثوم.

وأطلت الشمس قويةً على الكون، وأرسلت أولى أشعتها الذهبية مع نسائم الصباح على أرض الجزيرة العربية، وراحت تغازل في المدينة المنورة وجه وليدة الزهراء ، وتغسل بأشعتها جسدها الطاهر، فكأنها هي والوليدة نور على نور، ويطفح وجه فاطمة بالبشر والسرور، وهي تشير إلى الوليدة وتقول لزوجها علي:

– إنها بنت يا أبا الحسن.

– الحمد لله الذي وهب لنا أختاً للحسنين.

– وماذا تسميها يا علي؟!.

– ماكنت لأسبق باسمها رسول الله يافاطمة.

انحنى علي يتناول ابنته من مهدها إلى جانب أمها البتول، وراح يحدق في وجهها الجميل وعينيها الآسرتين وقد أشرق بالبسمة وجهه، وفاض بالسرور قلبه، وامتلأ بالانشراح صدره، وأخذ يتأملها مستطلعاً ملامحها، مستشرفاً للمستقبل الذي ينتظرها، وقد انطوى قلبه على مكنون علم، واختلج في فؤاده سرٌّ مستقبل مشحون بالرزايا، تتكدس فيه المصائب والبلايا، وتتلاحق فيه الأحزان والآلام والكروب حتى لاتكاد تدع فيه يوماً خالياً منها.

غامت الدنيا في عيني علي، وغاب عن ناظريه منظر ابنته الوليدة المحمولة على يديه، وحلت محلها صورة ابنة صغيرة تدرج على الأرض تنعى جدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم أمها الزهراء

عليها السلام، ثم تكبر فتكبر معها المصائب، فتبكي أباها مطعوناً مسموماً، قد اغتالته الأمة بيد العصيان الفاضح، قبل أن يغتاله ابن ملجم بخنجره المسموم،

ثم تكـــبر فتنعى أخاها الحسن، وقد فجأته الأمة نفسها بالغدر والخذلان، قبل أن يفجـــأه بســـمه القاتل معاوية بن أبي سفيان، ثم تتهيأ لمصائب وبلاءات وكـــروب لا تنتهي إلاّ بقتل أخيها الحسين في أرض كربلاء، ثم آلامٍ لاتحتمل وجروح لاتندمل يوم يُحَزُّ رأس أخيها الحسين، ويُحمل على رمح مع رؤوس الشـــهداء من أهله وأصحابه إلى عبيد الله بن زياد في الكوفة، ثم إلى يزيد بن معاويـــة بـــن أبي سفيان في الشام، ثم إلى أحزان لا تُفثأ ودموع لا ترقأ، بعد منظر السبايا من آل بيت الرسالة، محمولات على المطايا والرواحل، مهانات جائعـــات عطاشاً، يساق بهن من بلد إلى بلد، وقد هتكت ستورهن وأبديت وجوههـــن، تـــتقاذفهن الطرق والفلوات، ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد والدني والشريف.

لم تفاجأ فاطمة بتغيرات ملامح وجه علي وتحولاته، فلقد كانت عليها الســـلام تقرأ ما انطوى عليه قلبه وما حواه صدره، كما يقرأ أحدنا صفحة مـــن كتاب مفتوح، وكانت- هي الأخرى- تشاطره العلم بتلك الأحداث والأحوال، إذ كانا معاً محل سر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبؤرة تفجر علومه ومعارفه، ومجرى الفيوضات الإلهية والإفاضات النبوية ، فإنه لم يكن ليختزن دونهما علماً ولا ليطوي عنهما سراً، فكان صلى الله عليه وآله وســـلم يعلمهما مما علمه الله رشداً، ويفيض عليهما مما أفاض الله تعالى عليه من العلوم والأخبار، وما استودعه من المغيبات والأسرار :

﴿عَـــالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِـــنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧)

لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (٢٨) ﴾ سورة الجن.

وســرت الأخبار من البيت إلى المسجد كالبرق، ورأى المسلمون وجه رسول الله يتهلل فرحاً، وإنهم ليعلمون علم اليقين أن كل مايسر ابنته فاطمة وأخــاه علــياً ويــبهج قلبــيهما يسر قلبه ويبهجه، وأن كل مايسوؤهما ويزعجهما يسوؤه ويزعجه.

عمــت الفرحة والبشر أهل المدينة، ودخل رسول الله بيت ابنته فاطمة وأخيه وصهره علي وهو يقول:

- إليّ ابنتي يا علي.

انــتزع علي نفسه من خواطره، وأوقف رحلة تأملاته في مستقبل هذه الولــيدة، ومــا ينتظرها من مآسٍ على أيدي هذه الأمة التي أنعم الله عليها بالإســلام، وتفضل عليها النبي بالتبليغ وتفصيل الأحكام، وتحول علي بكيانه كلــه إلى رسول الله، ورنا إليه بقلبه وعينيه، وانحنى يناوله ابنته ويضعها بين يديه الحانيتين.

وبــادر رســول الله فأقام الأذان في أذنها اليمنى، وثنى بالإقامة في أذنها اليسرى، ليكون اسم الله وتكبيره، واسم رسول الله وتوقيره، أول ما تسمعه أذناهــا، ويعيه قلبها، ويستقر في فؤادها، ثم ضمها صلى الله عليه وآله وسلم إلى صدره الشريف، ووضع خده على خدها وبكى بكاء شديداً عالياً، حتى سالت دموعه على خديه وخديها.

كــان المسلمون الذين سرى إليهم نبأ الولادة المباركة، قد توافدوا على

البيت الطاهر ليهنئوا رسولهم وصهره علياً وابنته الزهراء، لكنهم فوجئوا بهذا المشـــهد العجيـــب، ما هذا الذي رأوا ؟ إنه لابهجة في البيت ولا فرح ولا سرور، وإنما حزن فاجع ووجوم مخيم، وبكاء ودموع.

والتفتت فاطمة إلى أبيها تسأله أمام الجمع - وهي العالمة -السؤال الذي كان يتموج في كل جنان، ويتلجلج به كل لسان:

- لماذا بكاؤك يا رسول الله ؟ لاأبكى الله عينيك ياأبتاه !!.

- يـــا فاطمة، أبكاني ما ستبتلى به ابنتي هذه من بلايا، وما سيترل بساحتها من مصائب ورزايا (١) .

لم يـــزد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا الجواب، ولم ينتقل مـــن الإجمال إلى التفصيل، وإنما اكتفى بهذه الكلمات التي تركت المسلمين حيارى مدهوشين، وقد تندت عيونهم بالدموع، وألسنة حالهم تقول:

- ويل لأشقياء تسول لهم أنفسهم مد يد الأذى لسيدة حملها النبي بين ذراعيه وضمها إلى صدره، ووضع على خدها خده.

قا ل علي:

---

( ١ ) "ناســخ التواريخ" ينقله عن "رياض المصائب" - " زينب القدوة والرمز" ص ٣٤ينقله عن كـــتاب " زينـــب بنت الزهراء وثورة كربلاء في الوجدان الشعبي " ص ١٤- وفي مسند أحمد بن حنـــبل ١ / ٨٥ أن جـــبرائيل اخبر محمداً صلى الله عليه وآله وسلم،بمصرع الحسين وآل بيته في كـــربلاء ، وقالـــت بنت الشاطئ في كتابها "تراجم سيدات بيت النبوة " الكتاب الخامس - السـيدة زينب - ص ٦٦١ : ( وينقل ابن الأثير في الكامل أن الرسول أعطى زوجه أم سلمة تراباً حملـه لــــه أمين الوحي جبرائيل من التربة التي سيراق فوقها دم الحسين، وقال لها : إذا صار هذا التراب دماً فقد قتل الحسين).

- سمها يارسول الله.

- نعم يا علي، ماكنت لأسبق باسمها ربي، وهاهو الأمين جبرائيل يقرؤني من ربي السلام، ويأمرني أن أسميها زينب، فإنه اسمها في اللوح المحفوظ (١) .

وهكذا ولدت زينب في بيت فاطمة وعلي، الذي أذن الله له أن يرفع فوق الدور والقصور، يذكر فيه اسم الله، ويتلى فيه وحي الله، وتتلقى فيه زينب - كما الحسن والحسين - فيض النبوة ونور الرسالة وطهر الإمامة، لتتخرج من مدرسة الصدّيقين صدّيقة، وتنشأ في بيت الطاهرين طاهرة، تقارب العصمة بل تلبس ثوبها، وتكتسي حلية الكمال (٢) .

وتترعرع زينب في أحضان الرسالة، وترتشف من نمير الوحي، وتسقى بلبان المعرفة، متنقلة من حجر أمها الزهراء ، إلى صدر أبيها أمير المؤمنين، إلى ثغر جدها رسول الله، إلى حنان إخوتها الأبرار، وتتلقى دروس الفقه والعبادة، والعلم والمعرفة، والطهر والزهادة، فمن مثل زينب الكبرى في النساء ؟ ومن يداني الحوراء في الحور العين؟ (٣) .

---

(١) تراجم أعلام النساء للأعلمي الحائري ٢ / ١١٦ - زينب الكبرى ص ١٦ للشيخ جعفر النقدي .

(٢) جاء في كتاب " زينب الكبرى " ص ٣٢ للشيخ جعفر النقدي : ( في الدر المنثور للسيوطي : عندما نزل قوله تعالى ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : هذه بيوت الأنبياء . فقال أبو بكر وهو يشير إلى بيت علي وفاطمة : وهذا البيت منها يارسول الله ؟ قال : نعم ، من أفاضلها ) .

(٣) انظر كتاب " زينب الكبرى " للشيخ جعفر النقدي ص ٣٥ .

## طفولة في أحضان المصائب

شاءت الأقدار الإلهية أن تلقي بالسيدة زينب، في أحضان المصائب والأحزان منذ الطفولة المبكرة إلى آخر يوم من حياتها، حتى سميت " أم المصائب".

لم تكن زينب قد جاوزت ربيعها الثالث عندما لمحت جدها رسول الله يدخل بيت عمها جعفر بن أبي طالب، وينادي أبناءه عبد الله وعوناً ومحمداً، فيجلسهم في حجره ويمسح على رؤوسهم بيديه، وعيناه تذرفان الدموع السخية، وراع أسماء بنت عميس صنيع رسول الله بأولادها والدموع المتساقطة من عينيه، وراها أمر زوجها جعفر الذي كان قد أرسله النبي على رأس كتيبة من المسلمين إلى مؤتة(١)، وأدركت أن أمراً قد حل به، وأن رسول الله ماجاءها اليوم إلا ليخبرها بهذا الأمر الجلل، فبادرت رسول الله بالسؤال:

- هل فاز جعفر بالشهادة يا رسول الله ؟.

- نعم يا أسماء، ولقد قطعت يداه الواحدة تلو الأخرى قبل أن يتخلى عن اللواء، فاستبدله الله بهما جناحين يطير بهما في الجنة.

ابتسمت أسماء ثم بكت، وبكى أبناؤها أباهم الشهيد، ورأت زينب نفسها تبكي معهم بحرقة ولوعة، ثم جاءت أمها الزهراء تبكي هي الأخرى والدموع تسيل غزيرة على خديها وهي تقول:

---

(١) كانت غزوة مؤته في شهر جمادى الأولى من سنة ثمان للهجرة.

- واجعفراه .. على مثلك فلتبك البواكي.

وأمّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قول ابنت :

- نعم يافاطمة، على مثل جعفر فلتبك البواكي.

غص بيت أسماء بنت عميس بالباكين والباكيات، وسالت الدموع غزيرة أمام عيني زينب، وندّت الآهات من أعماق القلوب والصدور.

وانسلت زينب من بين الجموع الباكية وراحت تبحث عن أبيها، حتى إذا لمحته، يممت وجهها شطره، فلما وصلت إليه ألقت نفسها بين ذراعيه، فأخذها علي وأجلسها في حجره إلى أن انفض المجلس، فحملها معه إلى البيت ووضعها في فراشها وهو يطلب إليها أن تنام، لكنها قبل أن تغمض عينيها امتثالاً لأمر أبيها فاجأته بالسؤال:

- أبت كيف استشهد عمي جعفر؟!.

ماهذه الصغيرة وهذا السؤال؟، إنها تريد أن تعرف كل شيء مما يجري حولها .. تريد أن تفهم معنى الشهادة .. وفكّر علي: إن مثل زينب ينبغي أن تفهم هذه الأمور ولو كانت صغيرة، إنها يجب أن تعد إعداداً خاصاً لما رسمه الله لها من دور، إن المستقبل أمامها صعب، ومن الضروري أن تستعد جيداً لما ينتظرها فيه.

وأجاب الأب الحكيم ابنته دون مواربة ولا مداراة، أجابها الجواب الذي يروض عقلها، ويربي روحها، ويغذي وجدانها بالصور الحية الموحية:

- بنية زينب، إن عمك جعفر قد قتل وهو يجاهد في سبيل الله، ويذود أعداء الله عن دينه .. استشهد وهو يحمل لواء جدك محمد صلى الله عليه وآله

وسلم، وراية الدعوة الإسلامية، فتكاثر عليه الأعداء حتى ضربوه على يمينه فقطعوها، فأخذ السيف بيساره، فتكاثروا عليه فضربوه على يساره فقطعوها، فسقط إلى الأرض شهيداً مضرجاً بدمه، فرفعه الله تعالى إليه وأسكنه جنته، وأبدله بيديه المقطوعتين، جناحين يطير بهما في الجنة، مع الأنبياء والملائكة، والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

غفت زينب وقد رضيت بهذا الجواب الواضح الصريح، وسرعان ما انفتحت لها في منامها أبواب الرياض، وإذا بها تناجي عمها جعفراً وهو يتنقل بجناحين من ياقوت أحمر من روضة إلى روضة، وكلما مر بها ابتسم لها ورفرف بجناحيه أمامها، ثم مضى مودعاً وهي تناديه:

- عد إلي ياعم، لاتذهب بعيداً وتتركني وحدي.

وفي الصباح تجدد حزن آل جعفر، وتجدد حزن المسلمين على جعفر، ورأت زينب نفسها من جديد وهي تبكي مع أخويها الحسن والحسين، وأبناء عمها عبدالله وعون ومحمد، وسمعوها وكأنها تحدّث نفسها وهي تقول:

- ماأجمل جناحيك ياعم!! ليت لي جناحين مثلهما.

- وما أدراك بجمال جناحي أبي يازينب؟.

- لقد رأيتهما الليلة ياعبد الله.

- أين وكيف؟.

- رأيتهما الليلة في المنام، إنهما جناحان قويان بلون أخضر وأحمر كالزمرد والياقوت، ينشران حولهما ظلالاً جميلة شفافة، ويشع منهما نور أبيض ليس له مثيل، ويفوح منهما عطر أرجٌ لاوجود له بيننا على ظهر الأرض.

- وأين رأيت أبي يا زينب ؟!.

- لقد رأيته في الجنة، يتنقل بين رياضها، ويغتسل بمياه أنهارها، ويقطف من ثمار أشجارها، ويتفيأ ظلالها الوارفة، وكان كلما مر بي ابتسم، ونظر إلي بحنان نظرة راضية مطمئنة تنم عن السعادة والرضى والبهجة.

وحانت التفاتة من علي، فرأى ابنته زينب وقد تحلق الصغار حولها، والتفوا بها وهي تحكي لهم ما شدهم إليها شداً – مع أنها أصغرهم سناً – وتقص عليهم ما انتزعهم من حالة الحزن والبكاء، والشعور بالمصيبة الكبيرة، إلى حالة حالمة، وتهيم بهم في معالم لم يكونوا يدركونها، وعوالم لم يكونوا يعونها ، وكأنهم كانوا يسبحون في فضاء لاينتهي ورياض لاحدود لها.

ابتسم الأب وهو يراقب ذلك الجمع الصغير، ويلاحظ اهتمامهم البالغ بحديث زينب، ورنا بفكره وفؤاده إلى المستقبل الذي ستشب فيه زينب، وستشد بعلمها وفصاحتها وبلاغتها جميع المخاطبين صغاراً وكباراً، مثلما ستشدههم بصبرها وصمودها وجرأتها ورباطة جأشها.

خجلت زينب وهي ترى أباها يرمقها وهي تتحدث، فصمتت على الفور وألقت بنظرها إلى الأرض، وعندما رفعت النظر إلى أبيها ثانية وجدته يشير إليها وكأنه يناديها، فقامت إليه مسرعة وألقت نفسها بين ذراعيه المفتوحتين، فاعتنقها أبوها ورفعها إليه وراح يقبلها وهو يقول:

- يابنة الزهراء، ما أكثر ما سيكون لك من هذه المجالس ؟! بنيّة قولي واحد.

- واحد.

- قولي اثنين.

- ...

- تكلمي ياقرة العين، قولي اثنين.

- ...

- ما الذي يسكتك يازينب؟!، لماذا لاتقولين اثنين؟!.

- يا أبتاه، ما أطيق أن أقول اثنين بلسانٍ أجريته بالواحد(١).

أثلج صدر علي جواب ابنته الصغيرة، الذي ينم عن وعي نادر وذكاء وقّاد وفكر لماح، وانكب عليها يقبلها من جديد ويضمها إلى صدره.

كان الحسن والحسين قد سارعا إلى أبيهم، وتبعهما أبناء عمهما جعفر الطيار " شهيد مؤتة "، فأخذ علي يضمهم واحداً واحداً إلى صدره، ويقبلهم ويبتسم لهم ويرحب بهم، ويبش في وجوههم، وانطلق صوت زينب من جديد بسؤال بدا غريباً لأول وهلة:

- أتحبنا يا أبتاه؟.

- وكيف لا أحبكم يا ابنتي، وأنتم أولادي وأولاد أخي؟.

- ولكن يا أبتاه .. إنما الحب كل الحب لله تعالى، ونحن إنما لنا الشفقة (٢).

- بنية هذا والله صحيح، لكنني إنما أحبكم بحب الله لكم، وأشفق عليكم بأمر الله تعالى.

---

(١) أخرجه ابن عساكر وابن مندة والشيخ علي ملاّ القاري ، وذكره الشيخ موسى محمد علي في كتابه "عقيلة الطهر والكرم السيدة زينب رضي الله عنها " ص ٧١ ٢٠

(٢) أخرجه الإمام أحمد في الخماسيات ، وذكره الشيخ موسى محمد علي في كتابه " عقيلة الطهر والكرم السيدة زينب رضي الله عنها " ص ٧١ .

ماكــان أصعب ذلك اليوم على زينب، هذا جدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسجّى في فراشه، قد نال منه المرض واعتصره الألم، واشتد بـه الوجع، وأبوها علي بن أبي طالب عليه السلام قلق حزين، وأمها فاطمة عليها السلام تبكي بحرقة شديدة، ودموعها تسيل على خديها كالأنهار.

وانكبــت زينب وإخوتها على جدهم يحتضنونه، ويقبلون صدره ووجهه ويديه وقدميه، وهم يبكون أشد البكاء، وينتحبون أفجع النحيب، والدموع تفيض من مآقيهم، والألم يعتصر أفئدتهم.

وأراد علي أن يرفع أبناءه عن صدر جدهم رسول الله، فأشار إليه صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول:

- دعهــم يــا علي يشمونني وأشمهم، ويودعونني وأودعهم، ويتزودون مني وأتزود منهم، فإنهم سيلقون بعدي من أمتي زلزالاً وأمراً عضالاً.

لم تفــارق زينب جدها طوال أيام مرضه الأخير، ورغم صغرها يومئذ، فقــد لاحظــت مــن المسلمين تصرفات غريبة وأموراً مريبة، ومواقف جد عجيــبة!!، وكانت تتساءل فيما بينها وبين نفسها عن سر تلكم التصرفات والمواقف، وتفتش عن مغزى وكنه تلك الأمور.

الرسول يعبئ جيشاً عظيماً، ضم وجوه المهاجرين والأنصار وشيوخهم، ويعقد إمرة لواء هذا الجيش العظيم لأسامة بن زيد، وهو شاب حدث لم يبلغ الثامنة عشرة من العمر، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ليفعل

أمـــراً أو ينطق بكلمة عن هوىً في نفسه، أو اجتهاداً شخصياً منه، وإنما كان رســـول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصدر في جميع أقواله وأفعاله عن أمر إلهي، يأتيه به من الله ملك مطهرٌ مأمون، ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (٤) ﴾ سورة النجم .

فما بال هؤلاء القوم، عندما أمّر النبي عليهم ذلك الشاب وعقد له اللواء، وأمره أن ينطلق بالراية من غده فيغزو بني الأحمر، مابالهم تثاقلوا عن اللحاق به، و تباطأوا عن الانضمام إلى جيشه، وتمنعوا عن التجمع تحت راية عقدها رســـول الله؟! ومازالوا على ذلك التثاقل والتباطؤ والتمنع، حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم تخلف بعد ذلك من تخلف منهم عن الجيش، وقد سمعوا جميعاً نبيهم يقول :

– أنفذوا جيش أسامة .. لعن الله من تخلف عن جيش أسامة.

ورأت زينـــب جدهـــا – في أحد أيام مرضه – وقد أوذن بنداء بلال للصلاة، وسمعته يقول لهم:

– إني مشغول بالذي بي، فليصل بالناس إمامهم.

فقالت عائشة:

– مروا أبا بكر فليصل بالناس.

وقالت حفصة:

– مروا عمر فليصل بالناس.

واشرأبت الفتنة وأطلت برأسها البشع، وبدرت بوادر الشقاق والنزاع، ونسوا قول نبيهم يوم غدير خم بعد حجة الوداع:

– اللهم من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار(١)،
ونسوا قول حسان بن ثابت في ذلك اليوم:

يناديهمُ يوم الغدير نبيهم — بخمٍّ وأَسمِعْ بالنبي مناديا
بأنّيَ مولاكم نعم ووليكم — فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت ولينا — ولا تجدنْ في الخلق للأمر عاصيا
فقال له قم يا عليُّ فإنني — رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليُّه — فكونوا له أنصار صدقٍ مواليا
هناك دعا : اللهم وال وليَّه — وكن للذي عادى علياً معاديا(٢)

ومساء يوم الخميس، التف الناس حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فراح النبيّ يتفحص وجوه القوم حوله، وقد ملأ الأسى قلبه الشريف وهو يراهم قد خالفوا أمره إذ تخلفوا عن جيش أسامة، وأراد أن يتدارك أمته بمحاولة أخيرة، فرفع رأسه واستجمع عزمه، وأصدر إليهم أمره:
– إيتوني بدواة وكتف أكتب لكم كتاباً لاتضلون بعده أبداً.

---

(١) صحيح مسلم ، الحديث رقم ٢٤٠٨ – السيرة الحلبية ٣ / ٣٠٨ وقال: هذا حديث صحيح ورد بأسانيد صحاح ولا التفات لمن قدح في صحته.

(٢) روى هذه الأبيات: الخوارزمي في " مقتل الإمام الحسين " ٤٧/١ ، والحافظ أبو نعيم كما في النور المشتعل ص٥٧ ، والجويني في "فرائد السمطين" من طريقين ١ / ٧٣ – ٧٤ وابن الجوزي في " تذكرة الخواص " ص ٣٣ ، والكنجي في " كفاية الطالب " ص ٦٤ مع اختلاف في بعض الألفاظ .

فمـــا أسرع مابادر عمر بن الخطاب القوم يزجرهم عن إحضار الدواة والكتف، ويبرر ذلك بقوله:

- إن النبي ليهجر، وعندنا كتاب الله، حسبنا كتاب الله (١).

وارتفعت الضجة بين المسلمين بين مؤيد لعمر ومعارض لـــه، وتنازعوا عـــند رســـول الله حـــتى تأذى كثيراً - صلى الله عليه وآله وسلم - من جفوتهـــم وعصـــياهم، فمـــال بوجهـــه الشريف عنهم، وأومأ لهم يأمرهم بالخروج، فخرجوا يتلاومون ويتعاتبون، واستدنى النبي ابن عمه علي بن أبي طالـــب، وعمه العباس بن عبد المطلب، والفضل وعبد الله ابني عمه العباس، وأهـــل بيـــته خاصة، وقال لهم والحزن يملأ فؤاده، والأسى يجيش في صدره وقلبه:

- قـــد أجمـــع القـــوم خلافكم، أنتم المستضعفون بعدي، أنتم المظلومون بعدي.

فلما كان الغد، وثقل المرض على جدها رسول الله صلى الله عليه وآلـــه وسلم، افتقد أخاه علياً وكان لا يغيب عنه ولا يفارقه أبداً إلا لحاجة، فقال وأزواجه جميعاً حوله:

- ادعوا لي أخي وصاحبي.

فدعت عائشة أباها أبا بكر، ودعت حفصة أباها عمر، فلما رآهما النبي أعرض عنهما بوجهه، فخرجا وكل منهما يقول:

---

(١) البخاري ٣ / ١٢٥٩ ، الكامل في التاريخ ٢ / ٢١٧ .

- لو كانت له إلي حاجة لأفضى بها.

ولم تطق أم سلمة صبراً على هذه التصرفات الطائشة المحمومة من عائشة وحفصة في ذلك الموقف، فلقد تجاوزتا كل حدود المعقول، وأسرفتا في شد الأنظار إلى أبويهما ورسول الله في ذلك الحال، والمسلمون في حزن وقلق على نبيهم، فقامت تعلن أمام الجميع:

- ادعوا له علياً أمير المؤمنين وإمام المتقين، فوالله إنه لايريد غيره.

فلما دخل عليه أخوه علي، التفت إليه صلى الله عليه وآله وسلم، وأومأ إليه بالاقتراب منه .. فناجاه طويلاً وأسرّ إليه بأمور لم يفصح عنها لأحد سواه.

وعت زينب الصغيرة كل ها تيك الأمور، ولاحظت جميع تلكم التصرفات، ولم يفتها معناها ومغزاها وما ترمي إليه .. فاستوعبت حجم الرزية المقبلة، فإنها لم تكن مصيبة في دنيا فانية، ولو كانت كذلك لهانت، ولكنها مصيبة في دينٍ يوشك أن يزول مع وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ولاتزال تذكر زينب، صرخة أمها لحظة جاد النبي بروحه الشريفة:

- وا أبتاه، إلى جبريل ننعاه ..

وا أبتاه، جنة الفردوس مأواه ..

وا أبتاه، أجاب رباً دعاه ..

وارتاعت زينب كثيراً لمدى اللوعة التي حلت بأمها الزهراء، وحانت منها التفاتة إلى أبيها علي، فإذا هو الآخر تذوب نفسه أمام المصيبة الكبرى

وهو يقول:

- إن الصبر لجميل إلا عنك يارسول الله، وإن الجزع لقبيح إلا عليك، وإن المصاب بك لجليل، وإن الرزء لعظيم كبير.

ورأت زينب نفسها يومئذ تنكبُّ على جدها تبكيه، وتبكي معه الرسالة التي أصبحت الآن في خطر محدق .. ولم تكن زينب وحدها التي تبكي، ولا أختها أم كلثوم وأخواها الحسنان، ولا أمها الزهراء و أبوها علي، وإنما كان كل من في البيت يبكي، بل وضج الناس خارج البيت بالبكاء والنحيب، واختلط نشيج الباكين بعويل النائحات، وصراخ النادبين والنادبات في ذلك اليوم الرهيب، كلٌّ يبكي الذي ارتبط به حيناً من الدهر وفقده اليوم.

الأكثرون يبكون محمداً " البشر والزعيم والقائد والبطل"، والأقلون يبكون محمداً " الرسول والرسالة والوحي الندي والصلة المقدسة مع الله"، الأكثرون يبكون الرجل " الذي كان يحمل عنهم العبء، ويتحمل منهم الجدال واللجاج، ويغفر لهم الذنوب والآثام، ويصفح عن مخطئهم ويتجاوز عن مسيئهم، ويبدي لهم صفحة الرأفة والرحمة، ويرفع عنهم الحرج والعنت "، والأقلون يبكون " النبي المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، ولايصدر عن شهوة ولامزاج نفسي ولا قبلي ولا عصبي، يبكون نور الوجود وإكسير الحياة، والصراط المستقيم المؤدي بهم إلى رضوان الله العلي العظيم ".

كان المصاب على زينب وإخوتها وأمها الزهراء وأبيها علي وسائر أهل البيت عليهم السلام مصاباً كبيراً، وكانت الفاجعة أليمة، وكان الرزء جليلاً

قاسياً، وكانت المناورات السياسية السمجة، والألاعيب الجاهلية الفجة، التي كانـــت تظهـــر بين الآونة والأخرى، تزيد الفاجعة ألماً، وتجعل المصاب أشد قساوة، لأنها كانت نذر فتنة وشر وفساد في الأرض كبير، وصد عن دين الله ورســـالة الرسول .. إنها المحنة التي وعدهم بها رسول الله صلى الله عليه وآله وســـلم قد أطلت عليهم بكل أبعادها، وما تحمل في طياتها من شر مستطير، وخطر على الإسلام كبير.

وأطـــل علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وولي المسلمين ومولاهم، على الـــناس حزيناً باكياً شاحب اللون دامع العين مكسور الفؤاد، يعلن على الملأ وفـــاة رســـول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والتحاقه بالرفيق الأعلى، فما يمضـــي قلـــيل من الوقت حتى يرتفع صوت عمر بن الخطاب مكذباً ومهدداً ومتوعداً: " إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد مات، وإنه والله مامـــات، ولكـــنه ذهـــب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وليرجعن فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه قد مات".

يـــا للهول الكبير .. ويا للخطر المحدق .. ويا للفتنة المقبلة .. ماذا ينكر عمـــر من وفاة الرسول الإنسان؟! ولمن يوجه هذا الاتهام بالنفاق، والتهديد بقطع الأيدي والأرجل؟! ومن الذين زعموا أن النبي قد مات؟ أليس هو علي بـــن أبي طالب، أخو رسول الله وصهره ووصيه وخليفته من بعده؟! فكيف يتهمه بالنفاق، ويجرؤ على تهديده بقطع الأيدي والأرجل؟.

ثم أصحيح أن عمر فاجأه موت رسول الله دون مقدمات، فأفقده هول الصدمة ووقع المفاجأة صوابه، فانطلق بلا وعي يقول مايقول؟! ألم يكن قد

تـــلا من قبل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِـــنْ قَـــبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِـــبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ آل عمران، أو لم يكن قد سمع قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند غدير خم وهو راجع من " حجة الوداع " : ( يوشك أن أدعى فأجيـــب، ولا أدري هل ألقاكم بعد عامي هذا ) ؟ أو لم ير الرسول مريضاً أكـــثر من عشرة أيام متواليات، قد نال منه التعب، وأعياه المرض، وأقعدته الحمّى، حتى أن عمر نفسه قال عنه:

– إنه ليهجر قد غلبه الوجع؟، أو: ماله، أيهجر؟ استفهموه.

أم لعـــل عمر كان أكبر ارتباطاً برسول الله، وأكثر حباً له من أهل بيته ومن أزواجه ومن بقية المسلمين!!..

إنهـــا مصـــيبة المصائب وأم الرزايا على زينب وأهل البيت وعلى جميع المسلمين.

## *الانقلاب الكبير ( اغتصاب الخلافة )*

الرسول مازال مسجى في غرفته لم يغسل بعد ولم يكفن، وابن الخطاب مـــازال في الخارج يتهدد ويتوعد، وفجأةً ران سكون عجيب خلف الباب، وانقطع صراخ عمر، وتوقف اللغط خارج الغرفة وخيم صمت مطبق .. أهو السكون الذي يسبق العاصفة ؟ أهو الصمت الذي يتلوه الانفجار ؟.

كـــان عمـــر قد أخلد إلى الصمت حين حضر أبو بكر وأبو عبيدة بن

الجـــراح، فـــأخذ بأيديهما على عجل، ومضوا معاً متسلّلين إلى سقيفة بني ساعدة، وفيما المسلمون في ذهولهم وفجيعتهم بوفاة نبيهم ..

وفـــيما نساء النبي وأهل بيته من بني هاشم وبني عبد المطلب، لايزالون ملـــتفين حول جسد رسول الله يبكون وينتحبون، وعلي عليه السلام يغسله بقميصـــه، ويلفه بأكفانه .. تهب العاصفة حارقة، وتنفجر القنبلة مدمرة، إذ يـــنطلق صوت التكبير والتهليل من سقيفة بني ساعدة، ويبرز الجمع محيطين بأبي بكر يزفونه زفة العروس، يتقدمهم عمر وأبو عبيدة فما يمرون على أحد مـــن المسلمين إلا خبطوه بعنف، وأخذوا يده طوعاً أو كرهاً فمسحوها على يد أبي بكر.

هكذا بدا الموقف .. وهكذا تم الانقلاب الكبير، وذهب كل أثر للحزن عـــلى رسول الله، وسموا الذي جرى في سقيفة بني ساعدة بيعة، وسموا ذلك الزعيم خليفة، وهكذا تداعت جدران الحصن، وبدأت أوراق الرسالة تضيع ورقة ورقة .. وبدأت شمس الإسلام تنكسف رويداً رويداً.

لم تتوقف الدموع عن السيلان من عيني زينب بنت السنوات الخمس، ولا من عيون أهل البيت، وهم يرون عميدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وســـلم ممـــدّداً على المغتسل، تكتنفه يدا أعز الخلق عليه علي بن أبي طالب، يغســـله والقلـــب يفيض وجداً وحزناً، والصدر يمتلئ أسىً وغيظاً، وينطلق اللسان بعبارات تنم عن الحزن العميق، والأسى الكبير للفاجعة الأليمة:

- بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك، مـــن النـــبوّة والأنباء وأخبار السماء، ولولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن

الجزع، لأنفذنا عليك ماء الشؤون.

* * *

شتّانَ شتّانَ بين ما انشغل به أهل الدعوة وأصحاب الرسالة داخل البيت، من تغسيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتكفينه وتجهيزه للدفن، وبين ما ا نشغل به أهل الدنيا وطُلاّبها خارجه، من التآمر على سرقة الخلافة واغتصاب أمور المسلمين وشؤونهم.

لقد وقع الانقلاب الكبير، وما أسرع ما انشطر المسلمون فئتين متباعدتين عقلاً وفكراً، وعقيدة وسلوكاً .. فئة انشغلت بالبيعة تجر الناس إليها جراً، وتقسرهم عليها قسراً، وفئة انشغلت بنبيها تغسله وتكفنه، وتجهزه إلى مثواه الذي منه يغادر الدنيا وكدحها ومتاعبها، ومنه يلج رضوان الله في الآخرة، وينعم بجوار ربه الجليل، ويتقلب في نعيم حبه ورضاه.

حتى إذا فرغت الفئة الأولى من حيازة الدنيا الفانية، وملكها الزائل وسلطانها الزائف الباطل، تذكرت — أو ذُكّرت — النبي المسجى منذ ضحى الأمس، فهرعت تصلي عليه وحداناً، وتشارك في مراسيم تشييعه ودفن جسده الشريف .. ووقف أهل البيت حول الضريح المقدس بقلوب مفجوعة وأفئدة مصدوعة، وعيون قرحها النحيب والبكاء، وأنضب ماءها انهمار الدموع من المآقي انهمار المطر من السماء.

وانتشى أهل الدنيا بابتسامة باهتة أبدتها لهم، فأنستهم عبوس الآخرة، واستمرأوا النجاح السريع لخطتهم التي رسموها .. وتابع الرساليون وأهل اليقين رحلة غربتهم عن هذه الدنيا وزخرفها، وإقبالهم على الآخرة

الباقية ونعيمها الدائم وظلها المقيم.

أمسك أهل البيت وشيعتهم ومحبوهم أيديهم عن هذه البيعة لأبي بكر، وانحازوا إلى دار علي يبدون له الطاعة والمحبة والولاء.

وينظر علي إلى هؤلاء المؤمنين الموالين، فلا يجد فيهم العدد الكافي لمقارعة أهل الباطل، وإن كان يقرأ في أعينهم العزيمة الصادقه، والثبات على الحق الذي عرفوه .. ويقول علي :

- أين الذين سمعوا من فم رسول الله ولايتي وبايعوني على الإمامة والخلافة ؟.

- طاشت أحلامهم يا أبا الحسن، وضلت بهم مطامعهم ومطامحهم، وسيف السلطة المسلط على رقابهم.

- أجبناً عن نصرة الحق يميلون مع الباطل؟! أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لولا عهد من رسول الله عهد به إلي لقاتلتهم بسيفي، وما باليت أن أكون وحدي.

- وما ذلك العهد يا أبا الحسن؟.

- قال لي حبيبي رسول الله: يا علي أنت المستضعف بعدي، لقد أجمع القوم خلافك والاستبداد بالخلافة دونك، قلت فما العمل يا رسول الله ؟ قال : إن اجتمع إليك أربعون مؤمنون فقاتلهم بهم وإلا فاصبر.

* * *

ما كان أهل الدنيا ليذروا أهل الآخرة فيما هم فيه، وهكذا تحركت السلطة بكل قوتها وعنفها واندفاعها نحو دار علي، وسمعت زينب جلبة الناس وضجتهم خلف دار أبيها، واستطاعت زينب وهي بنت الخامسة أن تميز

أكـــوام الحطب وهي تلقى خلف باب الدار، وأحست بالخطر المحدق بالبيت ومن فيه وهي تسمع عمر بن الخطاب يأمر بإضرام النار في الحطب، وراحت تقلـــب نظـــراتها الحائرة بين أبيها ومن التف حوله من الشيعة والمحبين، وهم ينتظرون من علي أمراً أو إشارة، وعلي ساكن ساكت لايأمر ولا يشير.

ولاحظـــت زينـــب أمها الزهراء تنطلق إلى الباب مسرعة، توبخ الناس وتثنـــيهم عـــن تنفيذ أمر عمر بإحراق بيت بنت نبيهم، ونجحت الزهراء في مســـعاها، فانشـــمر الناس عن الباب خجلين، وتراجعوا نادمين، لكن عمر ســـارع فـــرفس الباب برجله فخلعه، وعصر بنت النبي خلفه حتى أسقطت جنينها " المحسن " في تلك اللحظة الرهيبة، فراحت تصرخ بأعلى صوتها:

- وا محمداه .. يا أبتاه .. يا رسول الله انظر ما يفعل أصحابك !!.

وولولت فضـــة:

- وافاطمتاه .. واسيدتاه .. وابنت رسول الله !!.

لم يجـــد علي بداً عندئذ من أن يخف لنجدة زوجته الزهراء، وهال زينب مـــارأت، حين عاجل القوم أباها فأمسكوه، وجلببوه بعمامته، ومضوا به يقودونـــه إلى المســـجد، وقـــام الحسنان وأختاهما زينب وأم كلثوم يبكون ويصـــرخون، وهم ينظرون تارة إلى أبيهم المكبل الملبب بعمامته، يجره رجال مـــن أمامـــه، ويدفـــع آخرون في ظهره، وهو مستسلم لايقاوم ولا يدافع، ويـــنظرون تـــارة أخـــرى إلى أمهـــم فاطمة طريحة على الأرض، تستنجد وتســـتغيث، وتصرخ من الألم، وفضة تحتضن مولاتها البتول باكية، تحاول أن تخفف عنها بعض آلامها، ما آلم تلك المناظر، وما أشد وقعها في قلب زينب

وإخوها!! لقد بدأت المصائب تنصب متوالية على أهل البيت، تأخذ المصيبة بيد الأخرى وتجرها خلفها.

وفي المسجد، شد زينب ذلك الحوار الطويل،بين أبيها وبين الخليفة وأزلامه والمتزلفين إليه، ورأت تعنت أهل الدنيا رغم الحجج التي دمغوا بها، وصمد أبوها علي على موقفه ورفض البيعة بكل إصرار.

وحفظت زينب رغم دموعها وخوفها على أبيها كل مادار في ذلك الحوار، كلمة كلمة وحركة حركة، ولطالما كانت بعد ذلك ترويه بحذافيره في مجالسها فلا تنسى منه حرفاً واحداً، ولا مشهداً ولو كان عارضاً، ولطالما كانت تشدد على جزء من ذلك الحوار فتتوقف عنده، وتبدي عجبها من صلافة القوم ووقاحتهم، وجرأتهم على أبيها وهو أسد الله وأسد رسوله في كل المواقف والمعارك، لم ينهزم في قتال، ولم يتوان عن جهاد، ولم يتخاذل عن فتح.

كانت زينب تروي فيما ترويه من بين ذلك الحوار قول عمر:

- بايع يا علي فإنك لست متروكاً حتى تبايع.

- احلب يا بن الخطاب حلباً لك شطره، واشدد له أمره اليوم يردده عليك غداً .

- لا خيار لك يا بن أبي طالب فبايع.

- وإن أنا لم أفعل فمه ؟!.

- إذن والله الذي لا إله إلا هو نضرب عنقك.

- إذن والله تقتلون عبد الله وأخا رسوله.

- أما عبد الله فنعم ، وأما أخو رسوله فلا.

كانـت زينـب تـذرف الدموع وهي تروي هذا المقطع من الحوار، وتقول:

- عمـر بن الخطاب، الذي انهزم في أحد وخيبر وحنين، وكثير من المعارك، يـتجرأ على بطل الإسلام، وعمود الدين ويعسوب المؤمنين، ويهدده بالقتل ؟!.. يا هوان الدنيا وضيعة القيم، ويا غربة الدين واختلال الموازين!!.

وانتهـت الجولـة الأولى من الصراع باغتصاب الخلافة من أبيها علي، وتغليـب مصلحة القبيلة على مصلحة الإسلام والمسلمين، وتقديم الاجتهاد بالرأي على التعبد بالنص الشرعي الثابت من الله ورسوله.

ولاحظـت زينـب كيف أسقطت الخلافة المنبثقة عن السقيفة الدور النسوي في حياة المسلمين، عندما تجاهلت بيعة النساء التي سنها جدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ذلك التجاهل والإهمال الذي أصبح جزءاً من سنة الشيخين، والذي لايزال يلاحق النساء حتى عصرنا الحاضر، حيث ترك المسلمون سنة رسول الله واتبعوا سنة الشيخين هذه، فأخمدت طاقات النساء وغيـب دور نصـف المجتمع عن الظهور، وزويت عنهن المشاركة في الحياة السياسـية والحياة العامة للمسلمين، بعد أن كنّ على عهد النبي يشاركن في كـل شيء حتى في الحروب،فكان ذلك أول الوهن والتحريف في الإسلام، والميل عن سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

* * *

وجد الخليفة الأول ومساعده وأعوانه، أن الجرأة على علي وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد مرت بسلام، وأمكن إحباط بعض الصرخات التي انطلقت هنا وهناك، وأمكن أخيراً عزل بني هاشم عن جماهير المسلمين بالترهيب والترغيب، والوعد والوعيد، وشراء الضمائر والذمم، فازدادت جرأتهم وأقدموا على خطوة أخرى، يعلمون أنها لو أمكن لها أن تنجح لانتهى أمر بني هاشم إلى الأبد، ولغدت الخلافة بعيدة كل البعد عن متناول أيديهم، ولانقطع طمعهم بها وتفكيرهم فيها بعد ذلك، وهكذا افتتحوا للصراع جولة ثانية، حين انتزعوا فدك من بنت رسول الله.

وفدك هذه أرض كبيرة ذات محصول وفير،كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد نحلها ابنته فاطمة عليها السلام، ونقل ملكيتها إليها بأمر من الله سبحانه وتعالى، مقابل مال أمها خديجة عليها السلام الذي وهبته بأكمله لرسول الله، وجعلته حر التصرف فيه كما يشاء بلا حدود ولا قيود، فاستهلكه كله على الدعوة الإسلامية، وبذله بأجمعه في سبيل الله.

ومرة ثانية، راحت زينب تراقب نضال أمها المرير، وحوارها المتواصل مع غاصبي حقها في فدك، وحق زوجها في الخلافة، ووعت جيداً مراوغات الغاصبين، رغم الحق الواضح والبينات الظاهرة.

وعجبت زينب بنت علي، كما عجبت أم المؤمنين أم سلمة، من خليفة ينصب نفسه قاضياً في قضية هو أحد طرفيها، وعجبتا أكثر من ترجيحه

شهادة بعض المسلمين على شهادة علي وأهل بيت النبوة، وزوجة الرسول أم سلمة وخادمتها المبشرة بالجنة " أم أيمن".

ولازالـــت ذاكـــرة زينب القوية، تحتفظ بأدق تفاصيل تلك الأحداث، وتـــروي كـــل مـــادار في ذلك الحوار، وتقول عن شهادة أحدهم في تلك القضية، قول أمها فاطمة عليها السلام:

- ألا إن هذه أول شهادة زور في الإسلام.

ضـــاعت الخلافة إذن، وضاعت فدك، وخرجت فاطمة ساخطة غاضبة على الخليفة ومساعده وهي تقول:

- والله لا أكلمهما ماحييت، حتى أقدم على أبي فأشكوهما إليه.

* * *

## *ثانية المصائب الكبرى*

أحست زينب بالهموم والشجون التي تهيج في قلب أمها الزهراء وصدر أبيها علي عليه السلام، فلقد كان موت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قـــد هـــدّ جسد فاطمة، فكيف لتلك التي لم تكن تطيق أن تفارق أباها يوماً واحداً أن تطيق فراقه إلى الأبد ؟ ثم كيف وقد جاءت أحداث الخلافة، وجمع الحطـــب خلـــف باب فاطمة لإحراق دارها، ثم اقتحام عمر ومن معه الباب وعصـــر فاطمة خلفه وإسقاط جنينها، واقتياد زوجها علي إلى المسجد ملبياً بـــثوبه ؟ إن كـــل ذلك قد أعان المرض عليها، ثم جاء اغتصاب فدك منها، فدخلت الزهراء دارها منهكة الجسد خائرة القوى، ينهشها المرض ويعتصرها

الألم، وأعلنت على الخليفة وأتباعه حرباً من نوع آخر، حرباً تختلف عن كل أنــواع الحروب، حرباً سلاحها الاعتصام واعتزال الناس وخليفتهم، وشؤون خلافــتهم اعــتزالاً يفضح كل محاولة للتغطية على ماجرى، ويسجل موقفاً صــريحاً واضحاً سجله التاريخ ، وخلّده حجة دامغة أبد الدهر لا تمحى ولا تنسى.

عــادت السيدة فاطمة إلى بيتها، تبكي أباها الحبيب بحرقة ولوعة، وهمٌّ مقــيم وحــزن دائــم، تندبه تارة، وتبثه شوقها إليه تارة أخرى، تناجيه .. وتشــكو إليه سوء حالها، وعظيم ماجرى لها ولزوجها من أمته ومن أصحابه ومــن خليفــته .. فإذا فاض بها الجوى وهدّها الحزن، خرجت إلى قبر أبيها صارخة باكية شاكية.

تقــول زينب: فكانت أمي سلام الله عليها تنكب على قبر أبيها دامعة العينين شاحبة الوجنتين، ناحبة باكية وهي تقول:

– وا أبتاه

وا ربيع الأرامل واليتامى

من للقبلة والمصلّى ؟

ومن لابنتك الوالهة الثكلى ؟

وا أبتاه

رفعت قوّتي، وخانني جلدي ..

وشمت بي عدوي، والكمد قاتلي

وا أبتاه

انخمد صوتي، وانقطع ظهري ..
وتنغص عيشي، وتكدر دهري ..
فما أجد بعدك يا أبتاه أنيساً لوحشتي ..
ولا راداً لدمعتي، ولا معيناً لضعفي
وا أبتاه
لقد فني بعدك محكم التتريل ..
ومهبط جبرائيل، ومحل ميكائيل
وا أبتاه
انقلبت بعدك الأسباب ..
وتغلقت دوني الأبواب ..
ورُميتُ بالخطب الجليل، وطُرقتُ بالمصاب العظيم
فأي دمعة لفراقك يا أبتاه لا تنهمل؟
وأي حزن بعدك لايتصل؟
وأي جفن بعدك بالنوم يكتحل؟
وا أبتاه
منبرك بعدك مستوحش يحن لخطاباتك ..
ومحرابك خال من مناجاتك ..
وقبرك فرح بمواراتك ..
والجنة مشتاقة إليك وإلى دعائك وصلاتك ..

وتـــتابع زينـــب حديـــثها الشجيّ بقلب مفجوع وصدر ملتاع ونفس

متصدعة، وهي تبكي جدها ببكاء أمها الزهراء، وتناجيه بنجوى أمها له، تقول:

- ثم زفرت أمي الزهراء زفرة حرّى تحرق المهج، وأنّت أنيناً جارحاً يخدش القلوب، ثم راحت تنشد بصوت مصدوع مفجوع:

إن حزني عليك حزنٌ جديد ... وفؤادي - والله - صبٌّ عنيد
كل يوم تزيد فيه شجوني ... واكتئابي عليك ليس يبيد
جلّ خطبي فبان عني عزائي ... فبكائي في كل وقت جديد
إنّ قلباً عليك يألف صبراً ... أو عزاءً فإنه لجليد

ثم أخذت أمي الزهراء عليها السلام، حفنة من تربة قبر أبيها صلى الله عليه وآله وسلم، وجعلت تشمها وهي تبكي وتقول:

ماذا على من شم تربة أحمدٍ ... أن لايشم مدى الزمان غواليا
قل للمغيّب تحت أطباق الثرى ... إذ كان يسمع صرختي وندائيا
قد كنتُ ذاتَ حجىً بظل محمدٍ ... لم أخشَ من ضيمٍ وكان حمىً ليا
فاليوم أخضع للذليل وأتقي ... ضيمي وأدفع ظالمي بردائيا
صُبّت عليّ مصائبٌ لو أنها ... صُبّت على الأيام صرن لياليا
فلأجعلنّ الحزن بعدك مؤنسي ... ولأجعلنّ الدمع فيك وشاحيا

ثم خرت على قبر أبيها مغشياً عليها، فتقدمت إليها جاريتها فضة خائفة عليها قلقة من حالها، فرشّت عليها الماء، ثم أسندتها بيدها وقامت بها توصلها إلى البيت.

كانت زينب تراقب بقلق كل ذلك، وهي تعلم أن أشد ماآلم أمها، ذلك

الـــذي لحق المسلمين من ظلم وهضم، وما أصابهم من خور وعجز، وماحلّ بهم من تسليم بالباطل وقعود عن نصرة الحق.

لقـــد استراحوا إلى الدعة والكسل، بعد النشاط والعمل، وإلى الخمول والقعـــود، بعد الجهاد والقتال، قعدوا عن التصدي للباطل الذي داهم حياتهم وحاصـــر وجودهـــم، قعدوا عن نصرة المظلوم فضعفوا عن مواجهة الظالم، فكـــان كل هذا أشد وقعاً على أمها فاطمة الزهراء من الآلام الجسدية ومن وقع المرض الذي ألم بها.

ولاحظـــت زينب كذلك، أن أمها الزهراء كانت تذوب كشمعة تكاد تنطفئ شعلتها، وتذبل كزهرة يتضوع عطرها، وتجود بنضارتها.

رأت زينـــب أمهـــا – يوماً – تبتسم لعلي، ولم تكن رأتها ضحكت أو ابتســـمت بعـــد وفاة أبيها قط غير هـــذه الساعة، وراحت تكلمه وتناجيه وتؤانســـه وتواسيه، ثم راحت توصيه بوصايا كثيرة، وفجأة أشارت لزينب و أمـــرتها أن تستدعي أخويها الحسن والحسين وأختها أم كلثوم، فلما اجتمعوا إلـــيها راحـــت تشمهم وتضمهم إلى صدرها بحنان عظيم، ثم ما لبثت عليها السلام أن أغمضت عينيها وسكنت وكأنها لم تكن حية قط.

وتجددت الأحزان في بيت علي، وانهمرت الدموع من العيون، وصرخ الحسنان:

– واحســـرة لاتنطفـــئ أبـــداً من فقد جدنا محمد المصطفى .. وأمنا فاطمة الزهراء.

ونادت زينب:

– وا أماه .. وا بتولاه ..

ياحبيبة رسول الله ..

ما أسرع ما لحقت بأبيك ..

وتركت الفراخ بعدك زغب الريش ضعاف القوادم .

وانتحبت أم كلثوم على أمها الزهراء وهي تقول:

– الآن فقدناك حقاً يا جداه، فقداً لا لقاء بعده في الدنيا أبداً ..

ولم يزد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – والدموع تسيل من عينيه على خدّيه – على أن قال:

– إنا لله و إنا إليه راجعون، من مصيبة ما أفجعها وماآلمها، وماأمضها وما أحزنها، قد عظمت عليّ وفاتك يا فاطمة، وجدّدت عليّ والله مصيبة أبيك رسول الله، كنت بك أتعزى فبمن العزاء بعد فقدك ؟.

وهكذا تتالت المصائب الكبرى والرزايا العظمى على زينب خلال ستة أشهر، يأخذ بعضها بخطام بعض، ويجر بعضها بعضاً.

ولقد رأت زينب وهي بعد تخطو بين عاميها الخامس والسادس مأساة الموت مرتين في أعز وأكرم مخلوقين عليها وأحبهم إليها: جدها رسول الله وأمها فاطمة الزهراء، وعاينت انقلاب المسلمين على أهل بيتها مرتين كذلك، مرة حين اغتصبوا الخلافة من أبيها، والثانية حين اغتصبوا فدك من أمها.

ووجدت زينب نفسها دون خيار منها أمام مسؤولية كبيرة ينوء كاهلها الطري عن حملها، فقد أصبح عليها اليوم أن تكون أماً لأبيها وإخوتها بعد

وطاعتهم كأجر للرسالة التي أداها إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ذلك الأجر الذي لايعود بأي منفعة على أهل البيت عليهم السلام ، وإنما تعود جميع نتائجه ومنافعه على المجتمع الإسلامي نفسه :

﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى ﴾ الشورى/٢٣.

﴿ قُــلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) ﴾ سبأ/٤٧.

ذلك المجتمع الذي ما أن دفنت الزهراء عليها السلام، حتى تجهمت وجوه رجالـــه وحكامـــه لأبيها أمير المؤمنين علي عليه السلام، وآن الأوان ليتابعوا ضغطهم عليه ليبايع الخليفة.

ألم تســـمع زينـــب أبا بكر يقول لعمر في المسجد يوم محاولة إحراق دار فاطمة: " لا والله يا عمر، لا أكرهه على شيء أبداً مادامت فاطمـــة إلى جنـــبه؟"، وكان أبو بكر وعمر وكل المسلمين يعلمون أن فاطمة ستكون سريعة اللحاق بأبيها، فلم العجلة إذن ؟، ولم لا يكون الانتظار؟، وها قد لحقت فاطمة بأبيها ودفنت، وآن الأوان وحل وقت الوعيد ..

وهكـــذا تجهم وجها أبي بكر وعمر ووجوه القوم لعلي، يريدون منه أن يبايع خليفتهم طوعاً أو كرهاً، وأن يتراجع عن موقفه المعارض، فلا مجال لأي معارضـــة في دولة الخلافة التي رسموها على منهجهم، خلافاً لمنهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

كان علي قد ألقى الحجة في المسجد وفي بيوت الأنصار على عدم شرعية هـــذه الخلافـــة، وظل بعد ذلك ستة أشهر قبل وفاة فاطمة متروياً في بيته عن

ألم تسمع زينب أبا بكر يقول لعمر في المسجد يوم محاولة إحراق دار فاطمة: " لا والله يا عمر، لا أكرهه على شيء أبداً مادامت فاطمة إلى جنبه؟"، وكان أبو بكر وعمر وكل المسلمين يعلمون أن فاطمة ستكون سريعة اللحاق بأبيها، فلم العجلة إذن ؟، ولم لا يكون الانتظار؟، وها قد لحقت فاطمة بأبيها ودفنت، وآن الأوان وحل وقت الوعيد ..

وهكذا تجهم وجها أبي بكر وعمر ووجوه القوم لعلي، يريدون منه أن يبايع خليفتهم طوعاً أو كرهاً، وأن يتراجع عن موقفه المعارض، فلا مجال لأي معارضة في دولة الخلافة التي رسموها على منهجهم، خلافاً لمنهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

كان علي قد ألقى الحجة في المسجد وفي بيوت الأنصار على عدم شرعية هذه الخلافة، وظل بعد ذلك ستة أشهر قبل وفاة فاطمة متروياً في بيته عن الخليفة، وعن مجتمع الخلافة المبتدعة، رافضاً البيعة بإصرار، فلما توفيت فاطمة ولاحظ تجهم الوجوه وتورم الأنوف، والتلويح بالقوة واستعراض السيوف، وعلم أنه بين خيارين لاثالث لهما:

- فإما البيعة لأبي بكر، وبها ضياع حق المسلمين في حكم عادل سليم قائم على الحق الصريح والعدل الواضح كما أمر الله ورسوله.

- وإما الحرب التي لاقبل له بها، ولا ناصر له فيها، والفتنة التي لايحبها ولا يرضاها، والتي لن ينجم عنها إلا إفناء المسلمين وضياع الإسلام لو جرد سيفه الذي لاغالب له ولاقبل للمسلمين به.

ولم يكن أمامه إلا أن يختار الأولى على مرارتها، وأن يدفع الثانية

لفداحتها، وهكذا أرسل إلى أبي بكر، فجاءه متوجّساً متردداً في ثلة من المسلمين، فأخذ علي يلاطفه ويلاينه إلى أن هدأ جانحه، واطمأن باله، وارتاح في مجلسه، وعندئذ التفت إليه علي يقول:

– يا أبا بكر، إنا لم نتأخر عن مبايعتك نفاساً لك في دنيا سيقت إليك، لكننا نرى أن هذا الأمر هو حقنا، وقد استبددتم به دوننا، وحلتم بيننا وبينه، و والله لولا أن أحق حقاً وأبطل باطلاً، لسبقت الناس إليك (١).

استمعت زينب إلى كلام أبيها الواضح الصريح، ثم نظرت إلى أبي بكر وهو يغص بريقه، وقد اضطربت جوانحه من جديد، وتغيرت أحواله واختطفت ألوانه، و لم يعرف كيف يرد هذه الطعنة النجلاء العميقة، التي عرّته أمام الحاضرين، وانتزعت عنه لباس الشرعية مرة ثانية، بعد ستة أشهر من الخلافة التي كانت قد استقرت سفينتها، وهدأت أمواج بحرها، ونسي الناس – أو كادوا – مابدر من الخليفة ومعاونه عمر خلال أحداثها المرعبة.

ولاحظت زينب كذلك، كيف نفى أبوها عن نفسه المنافسة في أمور الدنيا، التي بادر أبو بكر ومن شايعه إلى الانغماس فيها وخوض غمراتها.

التقطت زينب من أبيها عليه السلام تلك الدروس العالية في البلاغة والفصاحة والبيان، ووعت كيف نزع عن نفسه في كلمات قليلة وبيان

---

(١) روى المسعودي في مروج الذهب ( ١ / ٤١٤ ) قول علي لأبي بكر : ( أفسدت علينا أمورنا و لم تستشر و لم ترع لنا حقاً )، وفي رواية عند البخاري ( الصحيح ٣ / ٥٦ – كتاب المغازي ) قال : ( ولكنك استبددت علينا بالأمر ، وكنا نرى لنا لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نصيباً ) .

قصير، لباس الزيغ والهوى، وألبسه خليفة المسلمين بلا مواربة ولا مداراة ولا مراوغة، مما جعل وجه أبي بكر يصطبغ بالحمرة ويضطرب حرجاً وغضباً في ذات الوقت، ثم أثبت للسابقين والتالين حقه الشرعي بخلافة المسلمين، على أنهـا مسؤولية مقدسة، وتكليف شرعي يقوم به الأجدر بالتكليف، والأقدر عـلى حمـل عبء المسؤولية، مسؤولية إمرة المؤمنين وإمامتهم، التي تشرف وتـزين من صغر عنها، ويشرفها ويزينها ويرتفع بها من كبر عنها وعلا عن مستواها، لكنها المسؤولية التي لامحيص عنها، والتكليف الذي لا مهرب منه، إذا أتيحت وسلمت لصاحبها المنصوص عليه من الله ورسوله.

ورأت زينـب أن أباها لم يكتف بكل ذلك، حتى نسف الشورى التي يدعـيها أصحاب السقيفة وأتباع مدرسة الخلافة، حين وصف فعل أبي بكر وأصـحابه بالاستبداد بالأمر دون وليه وصاحبه، والإمام المنصوب له، حتى حالوا بينه وبينه.

ابتسـمت زينـب ابتسامة الرضى من الموقف السليم الذي جلا الحقيقة وأبـرزها عاريـة من كل لبس، خالصة من أي ريب، صافية من أي شائبة، سالمة من كل غموض.

وسـرّت زينب كذلك للدرس العظيم الذي تلقته في الفصاحة والبلاغة من أمير البيان، وسيد البلغاء والفصحاء بعد جدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولاحظـت زينـب مـا لحـق الخلـيفة من الوجل والخجل ، والقلق والاضطراب، ولمحته يلملم ثوبه وهو يهم بالنهوض، لولا أن فاجأه أبو الحسن

مما جعله يتهم أذنيه ولا يصدقهما فيما أسمعاه من قول علي:

- امدد يدك نبايعك ياأبا بكر.

وبقي أبو بكر هنيهة متردداً، أيهزأ به علي بن أبي طالب؟! أيمكن أن يبايعه حقاً بعد هذا الموقف الصلب ؟!.

وحانت منه التفاتة خاطفة، فرأى يد أبي الحسن ممدودة بصدق، فما كان من مثل علي أن يسخر أو يهزأ، ولاأن يهمز ويلمز، فتلك أخلاق قد برّأ ه الله تعالى منها وأبعده عنها، ورباه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على اجتنابها والتنزه عنها.

استعاد أبو بكر جأشه، وردت الروح إليه، ومد يده بسرعة إلى أبي الحسن يتلقى منه البيعة، ويشد علي على يد أبي بكر مبايعاً وهو يقول مشترطاً:

- سأسلّم لكم ما سلمت أمور المسلمين.

لقد كانت بيعة مشروطة، لم يتردد أبو بكر في قبولها، فأبو بكر هو الآخر يريد أن تسلم أمور المسلمين، ولاينوي مطلقاً الإخلال بها، وهو لايطمح إلى أكثر من تسنم سدّة الخلافة وتولّي إمرة المسلمين.

وهكذا كانت بيعة علي لأبي بكر بيعة مسالمة ومهادنة وموادعة، استجاب فيها للظروف المحيطة، وتجنب بها الأخطار المحدقة، بعد أن ألقى الحجة وأماط عن الحق الصريح اللثام.

عاينت زينب أباها أمير المؤمنين، وهو يلاين من اغتصبوه حقه وابتزوه أمره، وانتزعوا مال زوجته فاطمة، وغاضبوها وأسخطوها، وجرّوا لها الألم

والأذى حتى خاصمتهم، وأعلنت على الملأ سخطها منهم وغضبها عليهم، وآذنتهم بالشكوى إلى ربها وأبيها، وأمرت بدفنها سراً لمنعهم من الصلاة عليها وحضور مراسم دفنها، بل ومعرفة مكان قبرها، حتى قال قائل من المسلمين:

- تموت بضعة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وليس في الأمة بنت نبي غيرها، ثم لا نصلّي عليها ولا نحضر دفنها ولا نعرف مكان قبرها ؟! والله إن هذا لرزء عظيم وبلاء مبين.

رأت زينب أباها يلاين هؤلاء ويلاطفهم ويبايعهم، ليردّ وجوههم نحوه، ويبعد أذاهم عنه وعن أهل بيته وأصحابه، وسمعته وهو ينذرهم قائلاً:

- سأسالم – أو سأسلم لكم- ما سلمت أمور المسلمين.

وهذا درس آخر في حفظ بيضة الإسلام، وصيانة أمة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فمصلحة الإسلام فوق كل اعتبار، ووحدة المسلمين أغلى وأعلى من أي شعار.

* * *

## *زينب على خطى أمها الزهراء*

التفت علي ذات يوم إلى ابنته زينب وقد تصبب منها العرق كحبات اللؤلؤ الأبيض، وخاطبها يقول:

- بنية زينب .. أنت تجهدين نفسك كثيراً في عمل البيت، وأخشى أن جسمك لايتحمل هذا التعب كله !!.

- وكيف لا أجهد نفسي في خدمتكم يا أبتِ؟!، أفلست ابنة من كانت تجهد نفسها كل الجهد في خدمتكم؟!، أفلا أكون مثلها؟.

- أفلا تستريحين قليلاً من هذا العناء والتعب وتبقين لنا بعضه لنقوم به بأنفسنا؟.

- أ فأكون ابنة الزهراء إن أنا قصّرت في رعايتكم وخدمتكم ؟! أو استرحت وأتعبتكم؟!.

- وأين فضة؟ لم لا تتركين العمل لها؟.

- وهل كانت أمي الزهراء تفعل ذلك وتترك العمل كله لفضة ياأبتاه؟! أم كانت تقتسم معها العمل فيوم لأمي ويوم لفضة؟!.

- بل كانتا تقتسمان العمل فيما بينهما، فكانت أمك تقوم بالعمل المخصص لها، وتساعد فضة في عملها.

- فأنا يا أبتِ أسير على خطة أمي، وهذا اليوم الذي تراني أعمل فيه هو يوم أمي، وأنا أحق بخدمتكم ورعايتكم فيه من فضة.

- لكنك صغيرة على العمل يا ابنتي، وجسمك لايتحمل كل هذا الجهد والعناء.

- ما عدت صغيرة منذ اليوم، وإني أخاف إن أنا قصرت في خدمتكم أن تعاتبني أمي الزهراء عندما ألقاها يوم الحشر، فتقول لي: " لقد قصّرت يازينب في تفقد أحوال أبيك وإخوتك، وأهملت رعاية شؤونهم "، وأنتَ لاتريد لي ذلك العتاب ياأبي.

كان علي عليه السلام يراقب ويلاحظ مايجري في البيت من انتصاب

ابنته زينب مكان أمها، ومن اقتسامها العمل مع فضة، تماماً كما كانت تفعل أمها الزهراء عليها السلام، ولكنه أراد أن يختبر صبر ابنته زينب على العمل، وأن يكشــف عن الدوافع التي تدفعها إليه بكل هذا الجد والإتقان، وإن علياً ليعـلم كذلك أن ابنة الصدّيقة، لا يمكن إلا أن تكون صِدّيقة مثلها ، وإلا لم تكــن قــد تربت على يديها، وعلي يعلم مدى سلامة المنهج التربوي عند زوجـته فاطمة الزهراء، ذلك المنهج الرباني الذي لم يكن ليحيد في يوم من الأيــام عن منهج النبوة والإمامة ولو قيد شعرة، الأمر الذي جعل من زينب قــرآناً متحركاً، في فعلها وقولها وسلوكها، لتكون جديرة برعاية أبيها الإمام علي، وأخويها الإمامين الحسن والحسين، ولتنشئ أختها أم كلثوم على منهج أمها الزهراء.

نظــرت زينب إلى وجه أبيها وقد علته مسحة كبيرة من الحزن، وهيج قلــبه وصــدره لذكر زوجته فاطمة الزهراء، التي لحقت بأبيها بشكل مبكر جداً، وفاض به الحزن عليها وعلى أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فــانحدرت عــلى خديه دموع ساخنة سخية، فهرعت زينب تمسح بيديها الحانيتين دموع أبيها عن خديه، وتواسيه وتلاطفه.

كم كانت زينب مشدودة إلى أبيها متعلقة به ، وكم كانت تكن له من الحــب والإكبار والاحترام، إنه لم يكن بالنسبة لها مجرد أب فقط، وإنما كان فــوق ذلك وقبل ذلك إمامها وهاديها، وكان مع هذا وذاك الرجل البطل، والإنسان الصابر، والعابد الزاهد، والعارف المتيقن، والمؤمن العميق الإيمان، والتقي إلى أقصى حدود التقو ، والورع في دين الله بما لا يحده حد، ولا يقع

تحت قيد.

لقد كانت زينب ترى في أبيها وإمامها علي بن أبي طالب من الكفاءات والمؤهلات، وتلمح فيه من الصفات والسمات، ما يفرض حبه وإكباره على كل من عاشره أو تعرف عليه أو سمع عنه، فكيف بابنته التي تعيش في كنفه، وتـــترعرع تحت ظله، فترى فيه في كل لحظة وساعة ما يجعلها تهيم في حبه، وتذوب في شخصه، وتمتلئ نفسها إكباراً له وإعجاباً به.

ألـــيس في أبيها علي عليه السلام،صدر قول جدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (يا علي لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق؟)(١)، حتى (كان الأنصار يعرفون المنافقين في المدينة بما يبدر من أحوالهم وأقوالهم مما يدل على بغضهم لعلي بن أبي طالب)(٢)، ولقد بلغ ببعضهم أن أحدهم إذا شك بنسب ابنه إليه سأله عن علي، فإن أبدى له الحب اعتبره ابنه وإلا فهو ليس كذلك.

نعم، إن من عرف علياً - أو تعرف عليه - ثم لم يهيمن حبه على قلبه، فتلك دلالة واضحة وبينة أكيدة، على انحراف في طبعه، وخلل في ذاته (٣) ، ولا غـــرابة بعدئذ أن يكون إما كافراً أو منافقاً، أو متخلقاً من نطفةٍ حرام في علاقة محرمة.

أمـــا زينب فقد هيمن حب أبيها عليها هيمنة كاملة، وخاصة بعد وفاة

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ص ٦٠٢ .

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ص ٦٠٧ .

(٣) المرأة العظيمة للشيخ حسن الصفار ص ١١١ .

أمها الزهراء، وراحت تتعلق به فتخدمه وترعاه، وتنهل من معينه العلم والعـــرفان، والأخـــلاق والسلوك، وراح أبوها بدوره يغدق عليها من وده ومحبـــته، وعنايته ورعايته، لتكون جديرة بأن تكون ابنة الإمام علي، وأخت الإمـــامين الحســـن والحســـين، وعمة الإمام السجاد، زين العابدين علي بن الحســـين عليهم السلام، ولتكون ابنة فاطمة الزهراء عليها السلام، وحفيدة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقـــد ظلت زينب – سليلة النبوة والإمامة – في بيت أبيها تتبوأ المقام السامي والمكانة الرفيعة، حتى بعد أن تزوج أبوها بغير أمها الزهراء، فما كان لواحـــدة مـــن زوجات علي أياً كانت مترلتها، أن تزحزح ابنته زينب عن المكانـــة التي تبوأتها في هذا البيت، والموقع الذي احتلته فيه، وذلك ( بما تمثله من امتداد لأمها الزهراء، وبما تمتلكه من صفات ومؤهلات، وبما تتمتع به من محبة واحترام متبادل مع أبيها وأخويها الحسنين ) (١) .

* * *

---

(١) المرأة العظيمة للشيخ حسن الصفار ص ١١١ .

# الفصل الثاني
# وشبت الحوراء زينب

هدأت الأمور بعد بيعة علي لأبي بكر، واستقرت الأحوال نوعاً ما في المدينة المنورة، عاصمة الخلافة ومركز دار الإسلام، وانعكس هذا هدوءاً نسبياً في دار علي، ورأت زينب أباها مشمراً عن ساعد الجد، مكباً على جمع القرآن الكريم، يرتبه حسب تنزل الوحي به، ويبين عامّه وخاصّه، ومقيّده ومطلقه، وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وعزائمه ورخصه، وسننه وآدابه، ويفصح عن غوامضه وأسراره، فما أن انتهى من كل ذلك بخطه الشريف، حتى حمله ومضى به إلى الخليفة أبي بكر، في شبه مظاهرة من الناس الذين التحقوا به والتفوا حوله، مدركين أن الأمر عظيم، وأن الأمر خطير، فلما أن أصبح أمام أبي بكر في هذا الجمع الحاشد من المسلمين، أخذ أبو الحسن يقلب أجزاء القرآن السبعة أمام أعينهم جزءاً جزءاً ثم قال :

– أيها الناس، هذا كتاب الله عزّ وجلّ، كما أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد جمعته لكم من الألواح التي ورثتها واستحفظني عليها، إن تقبلوه عُصِمَ جمعُكم، وتوحّد نهجكم، واستقام طريقكم، وإلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

ارتجّ على أبي بكر وماد به المكان، وظن أنها النهاية، وأن كل ماكان قد استقر له من أمر الخلافة قد انتقض عليه .. وراح أبو بكر يقلب في نفسه وجوه الرأي، أيقبل من أبي الحسن أم يأبى عليه؟ وإن أبى فكيف يرده

وبأي حجة وبرهان لديه ؟!، إن الأمة ليسرها ولا شك أن ترى قرآن ربها مجموعاً بين يديها، حاضراً بأكمله لديها، مقروناً ببيان نبيها، مقدماً من قبل من سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فيه: ( أنا مدينة العلم وعلي باهما ) (١) .

لم يدر أبو بكر بماذا يجيب أبا الحسن، فلم يكن قد دار في خلده أن يفاجئه علي بمثل ما فاجأه به اليوم، فسكت والناس من حوله ينتظرون الجواب.

وفي تلك اللحظات الحرجة، شق عمر بن الخطاب طريقه بين جموع الناس حتى وقف إلى جانب الخليفة، ونظر إلى أبي الحسن نظرة لوم وعتاب، ثم قال بلهجة حازمة آمرة :

- خذه يا علي، لا حاجة لنا فيه، عندنا المصحف الجامع.

وتعجب أبو بكر من جرأة عمر، وتساءل في نفسه: أين ذلك المصحف الجامع ؟!، إنه ليعلم — والناس كلهم يعلمون — أنها مجرد رقاع مبعثرة هنا وهناك، متفرقة لدى بعض أصحاب رسول الله الذين كانوا يكتبون الوحي إذا حضروه، أما علي فلم يكن يغيب عن آية من آيات القرآن، وكان يكتب الوحي ويتركه عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويراجعه معه

---

( ١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣ / ١٢٧ — تاريخ ابن كثير ٧ / ٣٥٨ - أحمد بن حنبل في المناقب ، وروى الترمذي عن علي قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " أنا دار الحكمة وعلي باها " ورواه الحاكم كذلك في المستدرك ٢ / ٤٦٦ ، وابن حجر في الإصابة ٢ / ٥٠٩ ، والسيوطي في تاريخ الخلفاء ص ١٢٤ .

جـــبرائيل عليه السلام، فلما كان الرسول في مرضه الأخير الذي توفي فيه، راجع جبرائيل القرآن الكريم مع النبي مرتين، قال النبي بعدهما لعلي :

- " يا علي، هذا كتاب الله تعالى، خذه إليك واحفظه لديك ".

فجمعـــه عـــلي في ثوب وجعله في مترله، ثم أعاد كتابته من بعد ذلك بخطه كما أنزل وكان به عالماً.

إن الرقاع الكاملة التي تضم كل القرآن إنما هي عند علي وحده، وهو القائل: (علمني رسول الله ألف باب من العلم، ينفتح لي من كل باب ألف بـــاب )، ويـــوم نـــزل قوله تعالى ﴿ لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِـــيَةٌ (١٢) ﴾ قال رسول الله لعلي على مسمع من المسلمين: ( لقد ســـألت ربي أن تكون أذنك ياعلي فأعطاني ذلك )، وسمع المسلمون علياً يقول بعد ذلك: " والله ما ترددت في شيء سمعته من رسول الله ولا نسيت مـــنه شيئاً "، فمن سوى علي يستطيع أن يدّعي هذه الدعوى ؟، ومن غيره يجرؤ أن يقول: (سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله إني بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض ؟!).

وأحـــس أبو بكر براحة عجيبة لكلام عمر، فكأنه قد فتح عليه فتحاً، لكـــنه سرعان ما أدرك أن المسلمين لن يرضوا بكلام عمر، ووجد أبو بكر نفسه يزجر عمر عن الكلام ويقول :

- على رسلك يا عمر .

ثم يلتفـــت إلى عـــلي فيتلطف معه ويحسن إليه القول، ثم ينهي الموقف بكلام رجراج هو إلى السياسة والدبلوماسية أقرب، وإن كان لا يختلف عن

كلام عمر في النتيجة:

- يــا أبــا الحسن، ضمّه إليك، واحتفظ لنا به لديك، وكلما احتجنا إلى شيء منه سألناك عنه.

وإذ أدرك علي أن الناس قد رضُوا من خليفتهم بالكلام المعسول الذي قــدم، صاح في الناس معلناً بصوته الجهوري الحازم، موقفه الحاسم من هذا الموضوع:

- أما والله إنكم لن تروه بعد يومكم هذا أبداً، إنما كان عليَّ أن أخبركم به لتعلموا.

كانت زينب تعي أسرار هاتيك المواقف، والخلفيات التي تكمن وراء تلك الأحداث، إذ كان أي تصرف أو فعل أو قول من علي يثير الحساسية في القــوم، ويبعث فيهم القلق، وكانوا يعلمون أن لعلي مترلة سامية عنــد المسلمين، وأن لكل قول مــن أقواله صدى فــي نفوسهم، ولذلك كانوا حذرين من أقواله عليه السلام، متيقظين دائماً لكل مواقفه، يداروها بعنف أحدهم ولين الآخر، ويصرفون الناس عنها بترهيب من جانب وترغيب من جانب آخر، فهم دائماً معه بين مدٍّ وجزر، وبين عنف ولطف، وبين غلظة ولين، مما يسكت العالِمَ، ويخــدع الجاهل، ويأخذ بلب الغر.

في هذا الجو المشحون بالقلق والحذر والترقب، بدأت تشب زينب بنت عــلي، ثم ما لبثت أن لاحظت أن الخلافة تنتقل من يد إلى أخرى، وكلما اقتربــت مــن أبيها علي ابتعدت عنه، وكلما خُلع ثوبُها عن رجل تقمّصه آخــر، وهكذا مضى أبو بكر إلى ربه، فتلقفها منه عمر بن الخطاب، وراح

يـــنأى بها عمداً عن بني هاشم، ويخطط لحرمانهم منها إلى الأبد،حتى أورثها مـــن بعـــده لعثمان بن عفان في شورى صورية مزيفة، تنكرها كل صور الديمقراطية، وتئن من وطأتها كل أشكال الشورى ومجالسها.

وتشب زينب الكبرى على هذه الأحداث المفجعة، وهي ترى التقلبات المتتالـــية والانحـــرافات المتـــتابعة، وترى صوراً محرفة من مودة الناس لأهل البيـــت، فهـــم إن ســـكتوا أحبوهم واحترموهم، وإن تكلموا هجروهم وخاصموهم وضيقوا عليهم، وربما قاتلوهم .

لم يستطع الخلفاء الثلاثة أن يستغنوا كلياً عن مشورة أهل البيت عليهم الســـلام، فلقد كانت الأحداث المتسارعة تلجئهم إليهم بين حين وآخر، وكانـــت الفـــتوحات الإسلامية، ودخول أمم جديدة في الإسلام، وتلاقح حضارات الشعوب التي ظللتها الخلافة، تثير أسئلة تتطلب إجابات دقيقة، وتشهد حوادث تستدعي أحكاماً سليمة، ولم يكن من الخلفاء ولا ممن كان حولهـــم مـــن المسلمين، من يملك العلم والقدرة على استنباط الإجابات القويمـــة، واســـتخراج الأحكـــام السليمة، فكان لابد من اللجوء إلى أمير المؤمـــنين عـــلي بن أبي طال ، فكان يجيب على الأسئلة المثارة، ويفتي في الحـــوادث الجديدة، ويقضي بين الناس في خصوماتهم، فإذا وصل الأمر إلى مســـائل الحكـــم، وإلى قضايا الخلافة، أُقصي ذلك المستشار، وأُبعد ذلك القاضـــي، وغُيّب علم ذلك العالم، فهذا خط أحمر محرّم على أهل البيت تخطّـــيه، وبـــاب محـــروس محظور عليهم اجتيازه، لأنه لايجوز في عرف " قـــريش" — كما يقول عمر— أن يجمع بنو هاشم بين النبوة والخلافة، ذلك

العرف الذي أسسه عمر وكان دائم التعبير عنه، حتى رسّخه في عقول وقلوب المسلمين من أتباع مدرسة الخلافة وتلاميذها، فأصبح عرفاً اصطلح على تسميته بـ "سنة الشيخين "، تلك السنة التي رأت زينب كيف أدّت إلى إقصاء أبيها عن الخلافة، وخلع قميصها عنه، ذلك القميص الذي لبسه عثمان بن عفان في تلك الشورى المستبدة، حين صعد عبد الرحمن بن عوف المنبر فقال: "ما سألت أحداً من العرب إلا وقدم لها علياً، وما استشرت أحداً من قريش إلا وأشار بعثمان".

ثم نادى علياً وقال له :

- ابسط يدك أبا الحسن أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله، وسنة الشيخين أبي بكر وعمر.

وما أن سمع علي بسنة الشيخين حتى زهد بالخلافة، ونزع يده من يد ابن عوف وهو يقول:

- لا يا ابن عوف، إنما أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله، واجتهاد رأيي فيما لا نصّ فيه من كتاب ولا سنة.

كان ابن عوف يعلم تمام العلم أن علياً لم يكن راضياً عن سيرة الشيخين وسنتهما، فاتّخذ ذلك الشرط ذريعة لصرف الخلافة عن علي إلى عثمان، الذي سارع إلى القبول بالشرط، ثم نفّذ ما كان منه متعلقاً ببني هاشم، ورمى ما سوى ذلك منه خلف ظهره منذ الأيام الأولى لخلافته.

* * *

## وتزوجت زينب

أصبحت زينب صبية ملء السمع والبصر، ورغم ما كانت تحرص عليه من الاحتجاب عن أنظار الرجال حتى لا يراها منهم أحد، ولتكون في ذلك قدوة لنساء عصرها، ورمزاً خالداً لكل الأجيال من النساء مدى الزمان، فإن بعض النسوة اللاتي كن يلتقين بها ويحدثنها، ويستمعن لحديثها ومنطقها، لم يملكن أن يخفين إعجابهن بجمالها الساحر ومنطقها الآسر، فانطلقن يتحدثن عن روعة بياض وجهها، وحسن بهاء منظرها، وكمال تناسق شكلها، وعن روعة منطقها وعذوبة نطقها، وأسر رنة صوتها، مما جعلها محط أنظار الأشراف من قريش، والرؤساء من القبائل، ومطمح قلوبهم وعيونهم، تهفو القلوب وترنو الأبصار لرؤيتها والتأكد مما سمعوه عنها، وكل يمني النفس، ويغذي الحلم بالزواج منها، ومصاهرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، مما دفع حوراء بني هاشم لأن تزداد حيطة وحذراً، واحتجاباً وحشمة، حتى لا تبقي لأحد مطمعاً في رؤية ابنة الزهراء التي قالت ذات يوم: (خير للمرأة أن لا ترى أحداً من الرجال ولا يراها أحد ).

وكان لعلي جار يدعى يحيى المازني، فسعى إليه ذات يوم شاب من شباب المدينة، يستعين به لرؤية زينب بنت علي، فنهره يحيى نهراً شديداً، وزرع في نفسه اليأس مما يروم قائلاً له:

- كيف تحلم أن تراها وتمني نفسك بذلك، وأنا جار أمير المومنين مدة

مديـــدة، وكنـــت بالقرب من البيت الذي تسكنه ابنته زين ، فلا والله ما رأيت لها شخصاً ولا سمعت لها صوتاً قط، وكانت إذا أرادت أن تزور قبر جدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تخرج ليلاً والحسن عن يمينها والحســين عــن شمالها، وأبوها أمير المؤمنين أمامها، فإذا قربت من الروضة النــبوية الشريفة، سبقها أبوها أمير المؤمنين فأخمد ضوء القناديل، وقد سأله ابنه الحسن مرة عن ذلك فقال عليه السلام: أي بني، إني لأخشى أن يكون هناك أحد فيرى شخص أختك زينب، وهي –كما تعلم – لا ترغب بذلك وتكرهه .

ولكن الشاب لم ييأس من تحقيق حلمه الكبير، فابتدر الشيخ قائلاً:

- أفلا تخطبها لي من أبيها يا عم ؟.
- لا أراك تصلح لها يا بني، ولا أرى أبا الحسن يرضاك زوجاً لابنته زينب.
- وما الحيلة في ذلك يا عم ؟.
- إنــه لا حيلة في ذلك أيها الشاب، ولا سبيل إليه أبداً، فاقطع النفس عما لا يمكن أن يكون، وإلا ذهبت نفسك حسرات.

تــناهى إلى سمع الأشعث بن قيس الكندي ماكانت تتناقله تلك النسوة عــن جمــال زينب بنت علي، وعن رجاحة عقلها وحسن منطقها، فأخذ يحــدث نفسه بخطبتها، ولم لا وهو زعيم كندة وملكها؟ وهو ذلك الفارس الطويل القامة، الذي تهاب صولته ولا تؤمن في الميدان جولته، وفوق ذلك فإنــه لا تــزال على وجهه مسحة من جمال، وعلى جسمه مظهرٌ من قوة وعنفوان؟، ثم هو بعد هذا وذاك صهر الخليفة الأول أبي بكر وزوج أخته أم

فروة، فلم لايتطاول إلى مقام زينب بنت علي؟! وهل يجرؤ عليٌّ أن يرد مثله إذا طلب يدها ؟!! ثم هل من الحكمة أن يُردّ طلبه هذا وهو من هو؟!(١).

وتقــدم الأشعث من علي يخطب وده ويطلب منه ابنته، وما كان يدور في خلــده ولاكان يجري في ظنه أبداً، أن يرده عليٌّ رداً يخيب ظنه ويطيح بحــلمه، ويوقظــه من غفوته وغفلته، وكبر عليه رفض علي، فغلبه سفهه، وطاش صوابه، وانتفض به شيطانه، فراح يقول لعلي مغضباً:

- أتعرف من تَجْبَهُ برفضك يا أبا الحسن؟.

- وهل أنت إلا ابن الحائك؟، أم غرّك ابن أبي قحافة حين زوجك أخته أم فروة ؟!.

- وهل كانت إلا أخت خليفة ؟.

- لقد كانت، لكنها لم تكن من الفواطم والعواتك.

حــوارٌ قصــير، لكــنه كان كافياً لأن يوقف الأشعث بن قيس على الحقــيقة، فلــيس بــنو تيم كبني هاشم، ولا أبو بكر كعلي، ولا أم فروة كزينب، وأين الثرى من الثريا ؟!.

---

(١) كــان الأشعث بن قيس قد ارتد عن الإسلام فيمن ارتد من الكنديين ، فأسر وأحضر الى أبي بكــر ، فعاد إلى الإسلام ، وزوجه أبو بكر أخته أم فروة ، فأولدها محمد بن الأشعث، ( وأسرة الأشــعث أســرة متقلبة ، تجري مع الهوى والشهوات ، وتقودها المطامع والمطامح ، فقد خذل الأشــعث أمــير المؤمــنين في صفين ، وخذل ابنّه الحسن كذلك ، وأما ابنه محمد فقاتل الإمام الحســين بــن علي في كربلاء وكان أحد قتلته ، وأما ابنته الجعدة بنت الأشعث فهي التي دست السم لزوجها الإمام الحسن بأمر من معاوية ) .

الحـــي على أحداثها، والراوي لأدق تفاصيلها، وأهم عوامل خلودها وحياتها وفاعليتها مدى الأزمان والأجيال.

بدعـــوة من الإمام، أقبل عبد الله بن جعفر الطيار مسرعاً إلى بيت عمه علي، فجلس بين يديه وبادره قائلاً:

- لبيك يا عم !.

- يـــا ابـــن أخـــي، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نظر يوماً إلى أولادي وأولاد أبيك جعفر، ثم قال: ( بناتنا لبنينا وبنونا لبناتنا )، فما قولك يا عبد الله ؟.

- أنا طوع أمرك وقولك يا عم.

- إنما أعرض عليك أن أزوجك ابنة عمك زينب، فماذا ترى؟.

- هي لي حصن وأنا لها حارس يا عم.

- فـــإني مزوجها لك على صداق أمها الزهراء، أربعمائة وثمانين درهماً، فهل قبلت يا عبد الله ؟!.

- قبلت وسعدت وازداد شرفي شرفاً ونسبي علوّاً بابنة عمي زينب الحوراء الإنسية.

- لكن لي شروطاً يا ابن أخي .

- اُشرط لنفسك ولابنتك ما تريد يا أمير المؤمنين.

- أشـــرط أن تقبل أن أهبك صداقها من خالص مالي، وأن تسمح لزينب بـــرؤية أخويها الحسن والحسين كل يوم، فإنها لا تطيق فراقهما ولا يطيقان فراقها، وإذا خرج أخوها الحسين على حاكم جائر لاتمنعها عن الخروج معه

مهما طالت المدة وبعدت الشقة.

- قبلت كل ذلك يا عم.

كان ابن جعفر كفؤاً كريماً لزينب، بل لم يكن لزينب كفؤ في القوم سواه، وكان وسيماً كريماً، وثرياً جواداً، وفارساً مقداماً، جميل الخَلْقِ كامل الخُلُقِ، سمح اليد طلق اللسان، قوي الجسم ماضي العزيمة حازم الرأي، رابط الجأش والجنان، وقد صحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والتزم من بعده عمّه أمير المؤمنين، وابني عمّه الحسن والحسين، وأخذ عنهم العلم الكثير، والورع عن محارم الله، وتقواه في السر والعلانية، ولذلك لم تخف زينب ترحيبها به وفرحتها بالزواج منه، فهي وإياه من دوحة واحدة، وهي وإياه فرعان من شجرة طيبة، وانضمامها إليه أو انضمامه إليها نور على نور، ومن النورين لاينبثق إلا النور.

لم يفرق الزواج بين زينب وإخوتها، فلقد بلغ من تعلق الإمام بابنته وابن أخيه أن أسكنهما معه في منزله، فعاشا في كنفه وبقيا تحت ظله، ونعما بعنايته ورعايته بقية عمره.

عاش الزوجان معاً، فكأني بهما قد جددا حياة علي وفاطمة، كل منهما يقدر الآخر قدره ويضعه في المكان اللائق به، ويكن له المودة العميقة والحب الخالص والاحترام الكامل، فإذا هما -كعلي وفاطمة- مثال للأسرة المسلمة المؤمنة، الزوجة تطيع زوجها ولا تعصي له أمراً، ولا تخيب له ظناً، ولا تبدد له رغبة، ولا ترفع أمامه صوتاً، ولا تكشف عنه ستراً، ولا تقلق له راحة، ولا تشتت له مالاً، ولا تزعج له جاراً، ولا تهين له ضيفاً..

والـــزوج يُودُّ زوجته ويكرمها، ويجعلها محل رعايته وموضع حدبه وعنايته، يحـــترم عاداتهـــا، ويوافقها على مألوف حياتها، ويحقق جميع رغباتها، ويكرم أهـــلها ويعلي مقام إخوتها وأخواتها، ويتلطف مع أترابها ولداتها، حتى لتظن الـــزوجة أنها لا تزال في بيتها الأول الذي ولدت وترعرعت فيه، وكيف لا يكونان كذلك وقد نهلا من نور النبوة صغاراً، وعاشا في كنف الإمامة كباراً ؟!.

وعاشت زينب مع زوجها عبد الله بن جعفر في جوٍّ من الصفاء، لم تشبه شـــائبة ولم تعكره حادثة، وأنعم الله عليهما بعلي وعون ومحمد وعباس وأم كلثوم.

لم يصـــرف الـــزواج زينـــب وزوجها عبد الله عن المشاركة في الحياة الاجتماعـــية والسياسية للمجتمع الإسلامي، أو على الأقل مراقبة تطورات تلك الحياة ورصد أحداثها المتلاحقة ومجرياتها المتسارعة، فلقد كان عمر بن الخطاب في الوقت الذي يتودد فيه لعلي وعبد الله بن عباس، ويطريهما ويثني علـــيهما ويرفع من شأنهما، يحرص كل الحرص على عدم إسناد أي منصب في الدولـــة إلى أي منهما، بل إلى أي أحد من بني هاشم، ويبعدهم عن أي مفصـــل من مفاصل الحكم، وكان يبرر ذلك دائماً بالخوف من أن يجحفوا بالـــناس، وأن يستأثروا بالأمر دونهم، وكانت قريش بأجمعها تؤيد عمر في ذلـــك الموقـــف الغريب، وتؤازره عليه وتعضده فيه، بينما أقدم على إسناد المناصـــب الحساسة دون أي حرج إلى الطلقاء من بني أمية، وخاصة معاوية الـــذي أطلـــق الخليفة يده في الشام، حتى أصبح فيها ملكاً أو كالملك، يبيح

يكونـــان كذلـــك وقد نهلا من نور النبوة صغاراً، وعاشا في كنف الإمامة كباراً ؟!.

وعاشـــت زينب مع زوجها عبد الله بن جعفر في جوٍّ من الصفاء، لم تشبه شائبة و لم تعكره حادثة، وأنعم الله عليهما بعلي وعون ومحمد وعباس وأم كلثوم.

لم يصـــرف الـــزواج زينب وزوجها عبد الله عن المشاركة في الحياة الاجتماعـــية والسياسية للمجتمع الإسلامي، أو على الأقل مراقبة تطورات تلك الحياة ورصد أحداثها المتلاحقة ومجرياتها المتسارعة، فلقد كان عمر بن الخطـــاب في الوقـــت الذي يتودد فيه لعلي وعبد الله بن عباس، ويطريهما ويـــثني عليهما ويرفع من شأنهما، يحرص كل الحرص على عدم إسناد أي منصـــب في الدولة إلى أي منهما، بل إلى أي أحد من بني هاشم، ويبعدهم عـــن أي مفصل من مفاصل الحكم، وكان يبرر ذلك دائماً بالخوف من أن يجحفـــوا بالناس، وأن يستأثروا بالأمر دونهم، وكانت قريش بأجمعها تؤيد عمر في ذلك الموقف الغريب، وتؤازره عليه وتعضده فيه، بينما أقدم على إســـناد المناصب الحساسة دون أي حرج إلى الطلقاء من بني أمية، وخاصة معاوية الذي أطلق الخليفة يده في الشام، حتى أصبح فيها ملكاً أو كالملك، يبـــيح لنفســـه حتى مخالفة الآداب والسنن الإسلامية، المفروضة من قبل الله سبحانه، ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، دون رقيب أو حسيب.

كـــان عمـــر في أواخر أيامه لا يفتأ يذكر علياً، ويشير إليه ويعلي من شـــأنه، ويصـــرح بكفاءته للخلافة، وأنه لو وليها لحمل الناس على الحق

الواضح والمحجة البيضاء، ولقد بلغ به التصريح ذات يوم أن قال لعلي: " أما أنت يا علي، فلو وزن إيمانك بإيمان أهل الأرض لرجح عليه"، ولذلك فقد خيل لقريش أن عمر لابد سيستخلف علياً من بعده، فكان هذا الأمر مصدر قلق كبير لقريش عامة ولبني أمية خاصة، فتحرك أبو سفيان وابنه معاوية، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، ومن لفّ لفهم وسبح في خضم بحرهم وساير تيارهم الجارف، يضغطون على عمر، ويذكّرونه سالف أيامه، وما مضى من حوادثه وسيرته مع علي، وإجماع قريش بإيحاء منه على أن لا يجمع بنو هاشم الخلافة إلى النبوة، ويلمحون له بشكل خاص إلى موقف عثمان من استخلاف عمر، يوم دعاه أبو بكر في مرض موته وقال له، اكتب: "هذا ما عهد به خليفة رسول الله إلى المسلمين.."، ثم ثقل عليه الكلام، وغاب عن الدنيا حين أغمي عليه، فخاف عثمان أن يفارق أبو بكر الحياة قبل أن يتم الكتاب، فأتمه هو من عند نفسه وكتب فيه: " إني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا " .. هذا رغم كراهة معظم المهاجرين والأنصار لخلافة عمر، وخوفهم من غلظته وفظاظته، وجدالهم الشديد لأبي بكر كي لا يستخلفه عليهم.

وهنا أفصح لهم ابن الخطاب عن مكنون نفسه والمغيب في أعماق وجدانه، يومها قال عمر لقريش:

- اطمئنوا لموقف اتخذناه وأجمعنا عليه قبل يوم السقيفة، ومضى أبو بكر دون أن يخلفه، ولن يخلفه عمر كذلك.

وإذ اطمـــأن بنو أمية لقول عمر، وعرفوا ما هو عازم عليه من صرف الخلافة عن بني هاشم، جرياً على سنته الأولى، وإبراماً لخطته الذكية لإبعاد علي عن الخلافة كيما تؤول إلى عثمان بن عفان، أحكموا حبك خطتهم، وأقدموا على تنفيذ مؤامرتهم، التي أجرى فصولها الظاهرة أبو لؤلؤة المجوسي مـــولى المغيرة بـــن شعبة، فاغتالوا بخنجره المسموم خليفتهم عمر، وتسلم عثمان الخلافة من بعده في تلك المسرحية الهزيلة التي سموها "شورى الستة "، ليحصـــل ذلك الانعطاف الجديد والخطير في مسار الخلافة، فلقد زحف بـــنو أمـــية مـــن خلال عثمان زحفاً شاملاً إلى كل المناصب الحساسة في الدولـــة، فكـــانوا قادة الجند، والولاة على الأمصار، ومستشاري الخليفة "الصورة" وحاملي أختامه، والمتصرفين في كل شأن من الشؤون، في مركز الخلافـــة وفي كافة أمصارها، وأصبح المسلمون خدماً لبني أمية، وأصبحت مصـــالحهم وأموالهم وكراماتهم لعبة في أيديهم، يتصرفون بها كما يشاؤون وكما يشتهون.

أدركـــت زينـــب بحسها المرهف، وقلبها اليقظ، وفكرها الواعي، أن أباهـــا الـــذي كان قد قال لكل من هؤلاء الخلفاء الثلاثة: " لأسلّمنّ لكم ماسلمت أمور المسلمبن، وما كان الجور منكم عليّ خاصة من دونهم"، قد أصـــبح الآن – في عهد عثمان – في غاية الحرج، وفي وضع لايحسد عليه أبـــداً، فهو إن سكت على الظلم والجور والاستهانة بمصالح المسلمين نقض قوله وخان عهده، وأصبح شريكاً للظالمين في ظلمهم، ومعيناً للجائرين على جورهـــم وحـــيفهم، وخاذلاً للمظلومين والمضطهدين والمستضعفين، وإن

عارض هؤلاء ووقف في وجههم، اعتبر خارجاً على الخليفة، ناكثاً للبيعة، طامعاً في الخلافة، راكضاً وراء الدنيا، فكيف يتصرف علي؟! وماذا عساه يفعل؟!.

لقد راحت زينب تراقب عن كثب، تصرفات أبيها في مثل هذه المواقف الحرجة، وهي واثقة أنه الميزان الدقيق الذي لا يحيد عن الحق، والصراط المستقيم الذي لا يميل مع الهوى، وأنه الجبل الراسخ والطود الثابت، لا تزيله هوج العواصف، ولا تزحزحه أحرج المواقف عن القول الفصل، وسلوك الجادة القويمة.

* * *

## *الفتنة الكبرى*

لم يكن عثمان في الواقع حلاً لمشاكل المجتمع الإسلامي في ذلك الحين، وإنما كان نتيجة طبيعية لسيرة الشيخين التي انطلق لواؤها من السقيفة، وإفرازاً للنفوذ الأموي الصاعد، والضاغط بثقله على المجتمع، بعد سنوات طويلة من إقصاء بني هاشم وتقريب بني أمية.

وما أسرع ما استفز عثمان بسياسته المنحرفة عن نهج الحق جميع شرائح المجتمع الإسلامي، عدا التيار الأموي الذي ركب موجة ضعف عثمان، وميله الشديد لذوي قرابته من بني أمية، الذين غدوا الطرف الوحيد المسيطر سيطرة تامّة على مقاليد السلطة، وزمام أمور الخلافة، والمتحكم بمصالح المسلمين، تنفيذاً لأمر أبي سفيان ورأيه، الذي أفصح عنه في أول لقاء له مع

عثمان بعد توليه الخلافة، حيث قال يومئذٍ: (تلقفوها يابني أمية تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، مازلت أرجوها لكم، ولتصيرنّ إلى صبيانكم وراثة ) (١) .

دعا عثمان إليه كلاً من معاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وسعيد بن العاص، وعمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، والمغيرة بن شعبة، وغيرهم من أمثالهم، فلما اجتمعوا عنده بادرهم بقوله : "إن لكل امرئ وزراء نصحاء، وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي، فاجتهدوا لي رأيكم ثم أشيروا عليّ".

وهكذا انتقى عثمان بن عفان وزراءه ونصحاءه ومستشاريه من ذوي الإيمان المدخول، وأصحاب السوابق المريبة، والسلوك المنحرف، وأقصى عنه الوزراء الصادقين، والنصحاء المخلصين، والمستشارين المؤتمنين، من أهل العلم والتقوى والزهد في الدنيا، أمثال علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وأبي ذرّ الغفاري، وأشباههم.

ولقد كان من بعض ثمرات تلك التشكيلة الاستشارية الفاسدة، تعطيل الحدود الشرعية، وإعادة الاعتبار للذين أسقط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اعتبارهم، وإيواء الذين كان قد نفاهم من المدينة، كالحكم بن أبي العاص وابنه مروان بن الحكم، وعبد الله بن أبي السرح، وأمثالهم،

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤ / ٥١ ، ورواه المسعودي في مروج الذهب .

وإغداق الأموال الطائلة على ذويه من بني أمية، وحرمان المسلمين من أموالهم وحقوقهم في بيت مال المسلمين، حتى استشرت الطبقية في المجتمع المسلم، وعمه الفقر والفساد والاضطراب.

ولم تكن آخر أعمال عثمان إقدامه على اضطهاد وضرب ونفي كبار الصحابة وأجلائهم، كعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وأبي ذرّ الغفاري وغيرهم، وتأمير الطلقاء- الذين كافحوا الإسلام وقاوموه- على المسلمين الذين نافحوا عن الإسلام وناصروه .

تململ المسلمون على كافة الأصعدة، وطفح بهم الكيل، ونفذ منهم الصبر على الجور، وكانت زينب تلاحظ كل ذلك، وتراقب حركات تلكم الفئات المتململة المتمردة .

كانت الفئة الفقيرة التي أصبحت – بفعل سياسة عثمان – الأكثر عدداً في المجتمع الإسلامي، مستاءة كل الاستياء من هذه الطبقية التي آل إليها أمر هذا المجتمع في ظل خلافة عثمان، إذ كان خط الفقراء وخط الأغنياء يسيران سيراً سريعاً في اتجاهين متعاكسين تماماً، بحيث وصل خط الفقراء إلى درجة الانسحاق، ووصل خط الأغنياء إلى درجة البطر والفحش.

وكان الولاة والمقربون السابقون من الخليفتين الأولين، الذين عزلهم عثمان وأقصاهم لصالح بني أمية، قد تحسسوا كثيراً وتحسست عشائرهم من المعادلة الجديدة في الحكم والجاه والثروة، التي رفعت بني أمية في ميزان عثمان على كل من عداهم من قبائل قريش، وحملتهم على رقاب الناس

كرهاً وقهراً، وكان من هذه الفئة عبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم كثير .

ولم تكن أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر، وأخوها عبد الرحمن، بعيدين عن هذه الفئة، ولذلك فكثيراً ما كانت عائشة تسجل المواقف على عثمان وتقرعه أمام المسلمين، وتقاطع خطبه على المنبر، وأكثر من هذا أنها كانت تؤلب المسلمين عليه وتحرضهم على قتله، وكم أطلت من حجرتها المفتوحة على المسجد، لتصيح في المسلمين: "اقتلوا نعثلاً فقد كفر"، ومهما ينس الناس فإنهم لا ينسون ذلك اليوم الذي كان فيه عثمان يخطب المسلمين على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإذا بقميص رسول الله قد تدلى على جدار المسجد، وصوت عائشة من ورائه ينطلق محذراً ومحرضاً: " يا معشر المسلمين، هذا قميص رسول الله لم يبلَ، وقد أبلى عثمان سنّته".

ولقد كان خط الإصلاح الذي يتولاّه الإمام علي عليه السلام وحواريوه المؤمنون وشيعته المخلصون، يتحرك كذلك بهدوء تام وحذر شديد ودقة بالغة، وأخلاقية إيمانية عالية، لاتستهدف قتل عثمان، ولا تخطط لعزله، وإنما تطالب الخليفة أن ينهج خط الإسلام المحمدي السليم، فيبعد عنه وزراء السوء وأعوان الشر، و يقرب إليه المشيرين الفضلاء، الناصحين بالحق، المشهورين بالصدق، المعروفين بالعلم والتقوى والزهد.

لكن الثورة على عثمان كانت شعبية جارفة، اختلط فيها الحابل بالنابل، وأصحاب الإصلاح مع أصحاب الهوى والغرض، ورأت زينب أباها يخوض غمار هذه الفتنة الهوجاء والثورة العارمة ، بمنهجه الإصلاحي

الأصيل، فلا يركب كغيره الموجة ولا يقتنص الفرصة، ولا يستغل الظروف المواتـــية، وإنما يعمل صادقاً جاهداً لإصلاح أمور المسلمين، وتهدئة نفوس الـــثائرين، والتوسط بينهم وبين الخليفة، وإقناعه بأحقية الطلبات المشروعة التي قدمها الثوار، لكن الخليفة ورغم اقتناعه التام بسلامة رأي علي وصدق نصحه ومشورته، كان في الواقع أضعف من أن يتخذ القرار المناسب، كما أن الارتكاســـات والانحـــرافات كانت أكبر وأعمق من أن يستطيع حلها بطـــريقة الشيخين اللذين سبقاه، لأن هذه الارتكاسات والانحرافات كانت قد نجمت في الحقيقة والواقع عن هذه الطريقة بالذات.

ورأت زينـــب كيف آلت جهود أبيها إلى الفشل بسبب ضعف عثمان وعجزه عن ركوب طريق الحق الواضح، ورضوخه الكامل لضغوط أولئك المستشـــارين من طلقاء بني أمية، الذين ضربوا بعرض الحائط كل مبادئ الإســـلام ومصـــالح المســـلمين، وجعلوا الأولوية المطلقة لمصالحهم القبلية والعشـــائرية، فلـــزم عليٌّ بيته وأغلق عليه بابه، ينتظر حكم القضاء وكلمة السماء.

كـــان قـــتل عـــثمان أمراً لامحيص عنه بالنسبة للثوار، بعد أن فشلوا في الوصول معه إلى أحد الخيارين الآخرين:

- تحقـــيق طلـــباتهم المشروعة التي زكاها الإمام علي عليه السلام، ونصح الخليفة بتحقيقها.

- أو تنحي الخليفة عن منصبه، وإفساح المجال أمام المسلمين لاختيار خليفة قادر على تحمل المسؤولية في تلك المرحلة الحرجة، ويرضاه المسلمون لدينهم

ودنياهم.

وبقتل عثمان فلت زمام الأمن في المدينة المنورة، لأن الغرباء عنها قاربوا أن يكونوا ضعفي عدد سكان أهل المدينة في ذلك الوقت، والسيوف مشرعة في أيديهم وقد سالت منها الدماء، وإذا كانوا قد قتلوا الخليفة نفسه، فإن قتل من دونه من الناس أسهل.

أوى أهل المدينة إلى بيوتهم حذرين مترقبين، وأغلقوا أبوابهم خائفين على أنفسهم وأهليهم، وراح ثوار الأمصار يجولون في الشوارع متحفزين، والسيوف تلمع في أيديهم، والقلق ظاهر على وجوههم، والضياع واضح في حركاتهم وتصرفاتهم، والخوف يملأ قلوبهم مما قد يأتي به المستقبل الغامض، إلى أن بدرت الإشارة من بعض كبار الصحابة أمثال عمار بن ياسر، وتلقفها كبار الثوار كمالك الأشتر ومحمد بن أبي بكر وغيرهما، وهكذا زحف الثوار إلى بيت علي يعرضون عليه الخلافة ويطالبونه بقبولها، ويلحون عليه للتحرك إلى المسجد لتلقي البيعة من المسلمين.

رفض علي - في البداية - تلك الخلافة التي جاءته رثّةً خَلِقَةً، محمّلةً بأوزار السنين الطويلة، وانحرافات الحكام، وتغير النفوس، ولم تستغرب زينب من أبيها ذلك الموقف السلبي، فلقد كانت تفكر وتسأل نفسها :

- كيف يمكن لرجل أن ينقل الخلافة من الجور كل الجور، إلى العدل كل العدل ؟، ومن المرض القريب من الموت إلى الصحة والعافية ؟، كيف يمكن أن يميت البدعة التي استشرت وترسخت في النفوس والقلوب، وأن يحيي السنة التي بليت وخفت صوتها وعز وجودها ؟!، إن المسوولية لكبيرة، وإن

الحمل لثقيل جداً، ولذلك فإن زينب لم تستغرب مطلقاً رفض أبيها لهذه الخلافة المائلة عن الخط القويم، والمفارقة للصراط المستقيم، وكان عقلها وقلبها ووجدانها مع أبيها وهو يرفض تولي هذه الخلافة، ويدفعها صادقاً عن نفسه، لكنها كانت تدرك أيضاً أنه ليس غير أبيها من يستطيع أن يقود السفينة في هذا الخضم المتلاطم، وأن أباها كان لابد أن يتحمل مسؤولية الأمة، وأن يقبل الخلافة، لأنه لابد — في النهاية — من خليفة يلم شمل الأمة، ويذود عن حياض الإسلام الحنيف، ويعيد الأمور إلى مجاريها، والحق إلى نصابه، فإن لم يكن أبوها الإمام، فمن سواه من الأنام يقود السفينة إلى شاطئ الأمان وبر السلامة ؟!.

وإذ كان الثوار كذلك يدركون هذه الحقيقة، فقد أصروا على عليٍّ، بل واقتحموا عليه الدار قائلين:

– امدد يدك نبايعك يا أبا الحسن، فإنه لاأمير علينا سواك، ولا خليفة لنا غيرك أيها الإمام.

– ليس ذلك إليكم، إنما هو لأهل بدر، فمن رضي به البدريون فهو الخليفة، ومن أمّروه فهو الأمير.

ما أن تناهت إلى أهل المدينة هذه الإشارة من الإمام علي عليه السلام، حتى أسرع البدريون يتشاورون، ثم ما لبثوا أن هرعوا إلى علي يلتمسون منه القبول قائلين:

– ما نرى أحداً أحق بالخلافة منك يا أبا الحسن، وإنه لايصلح الناس إلا بإمام، فامدد يدك نبايعك.

- لا تفعلوا، فلأن أكون لكم وزيراً خير من أكون لكم أميراً.
- لأمير لنا اليوم سواك، ولا خليفة علينا غيرك.

كان اليوم يوم جمعة لخمس بقين من ذي الحجة سنة ٣٥ للهجرة، يوم رأت السيدة زينب أباها جالساً في المسجد للبيعة، وقد أقبل عليه المهاجرون والأنصار يبايعونه مستبشرين، وفيهم البدريون وأهل بيعة الرضوان، وفيهم طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وسواهم من السابقين، فلما انتهت البيعة وقف الإمام خطيباً يبين للناس منهجه، ويفصح لهم عن خطته ، فحمد الله سبحانه وأثنى عليه، وصلّى على النبي وآله، ثم قال :

- ( إن الله أنزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، المسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلاّ بالحق، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، لايحل دم امرئ مسلم إلاّ بما يجب، تخفّفوا تلحقوا، واتقوا الله في بلاده وعباده فإنكم مسؤولون حتىّ عن البقاع والبهائم، أيها الناس، إنما أنا رجل منكم، لي مالكم وعليَّ ما عليكم، وإني حاملكم على منهج نبيكم، ومنفذ فيكم ما أمرت به، ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال، فإن الحق لا يبطله شيء ، ولو وجدته قد تُزُوِّجَ به النساء ومُلِكَ الإماء وفُرِّقَ في البلدان لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق، أيها الناس، ألا لا يقولن رجال منكم غداً – قد غمرتهم الدنيا، فامتلكوا العقار وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيل، واتّخذوا الوصائف المرققة –

إذا مــا منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرقم إلى حقوقهم التي يعلمون، حرمــنا ابن أبي طالب حقوقنا، ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته، فإن الفضل غداً عــند الله، وثوابــه وأجــره على الله، ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله فصــدّق ملّتنا، ودخل ديننا واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، ولافضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء) .

رضي قوم بهذا المنهج السوي الذي أعلنه عليٌّ في خطبته الأولى، والتفوا حــوله يشــدون على يده ويعدونه النصرة والعون والتأييد، وكتم آخرون سخطهم وعدم رضاهم عن هذه الانعطافة الجديدة في مسيرة الخلافة ونظام الحكم، ولقد كان من الطبيعي أن لايرضى النفعيون بمنهج العدل عند علي، وألاّ يقــنع بشرعة مساواته من اعتادوا التفضيل، ومن مردوا على الاستئثار والنهــب والانــتفاخ، على حساب المحرومين والفقراء، وانفضّ الجمع بين راض وغاضب، كلٌّ يفكر فيما أهمّه.

وفي مســاء ذلك اليوم ، تقدمت السيدة زينب من أبيها قلقة مترددة، كأنهــا تريد أن تقول شيئاً تكتمه في صدرها، واستقبلها أبوها أمير المؤمنين بوجــه باسم وهو يستفسرها عما يقلقها، ويفسح لها أن تفصح عما يجول في خاطرها، قالت زينب:

– إنها كلمة يا أبي قالها رجل من بني أسد عندما بايعك طلحة.

– وماذا قال ذلك الرجل يا ابنتي ؟.

- قـــال: إنـــا لله وإنا إليه راجعون، أول يدٍ بايعت أمير المؤمنين يدٌ شلاّء، لايتم هذا الأمر أبداً.

- لقـــد صدق الرجل يا ابنتي فيما قال، فإنها يدٌ ما أخلقها أن تنكث، لكن لي دوراً لابد أن أقوم به، وعليَّ مسؤولية لاينبغي أن أنفكّ عن حملها، هكذا اخـــتار الله لأبيك يا ابنتي، وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم.

- كـــان الله في عونـــك يـــا أبي، فما تستقبل من الأمر أقسى وأصعب مما استدبرت.

- وكان الله في عونك يا ابنتي، فما ينتظرك أنكى وأدهى وأمرّ.

* * *

## جملٌ كعجل بني إسرائيل

### ( عجل السامري يتجسد في جمل عائشة )

باتـــت الأيـــام حبـــلى بالأحداث الجسام ، وجلست السيدة زينب تستكشف السحب التي راحت تتجمع في الأفق، والغيوم التي بدأت تتلبد في سمـــاء الخلافـــة، هذه عائشة أم المؤمنين ما أن سمعت أنباء انعقاد البيعة للإمام حتى صاحت ( وكانت مقبلة من مكة إلى المدينة ) :

" ردوني .. ردوني .. ليت السماء أطبقت على الأرض إن تم لـــه هذا الأمـــر "، ثم انصـــرفت عائدة إلى مكة، فقصدت حجر إسماعيل، واجتمع

الناس حولها يستجلون سبب عودتها السريعة هذه، فقالت :

- أيها الناس، قتل عثمان مظلوماً، قتله علي بن أبي طالب، ووالله لأطالبنّ بدمه، والله لليلةٌ من عثمان خيرٌ من عليٍّ الدهر كله (١) .

كان الحسد لعلي والحقد عليه، يأكلان قلب عائشة مذ تزوجت في سن مبكرة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فوجدته بعلي مهتماً، وله ملازماً، ولفاطمة الزهراء وأمها (خديجة) على كل النساء مقدماً (٢) ، ولم تستطع الأيام أن تطفئ لهيب الحقد والحسد في قلبها، رغم ما ألحقت هي وأبوها من ظلم وجور بعلي وفاطمة، فظل فؤادها يغلي بالحقد، وظل قلبها يمور بالحسد، حتى لم تكن تستطيع أن تسمع اسم علي أو أن تراه، فكيف وقد أصبح خليفة للمسلمين ؟!.

وهذان طلحة والزبير قد لحقا بعائشة في مكة، يحرضانها وهي لا تحتاج إلى تحريض، ويخططان لها، ويختبئان خلف واجهتها كأم للمؤمنين.

نعم، لم تكن عائشة بحاجة إلى من يحرضها ضدَّ عليٍّ ، فلقد كانت أول الناس خروجاً عليه وإثارة للفتنة ضده، وأكثرهم تأليباً عنه وتحريضاً عليه، تماماً كما كانت من قبل أول الناس تمييلاً لأمر عثمان وتهويناً لشأنه وتحريضاً على خلعه، بل ودعوة إلى قتله بعد اتهامها له بالكفر والارتداد عن الدين (٣) .

---

(١) و (٢) انظر تراجم سيدات بيت النبوة – السيدة زينب ص ٦٩٠ – ٦٩٣ لبنت الشاطئ تنقل عن المدائني والطبري.

(٣) انظر تراجم سيدات بيت النبوة – زينب الكبرى ص ٦٩٠ – ٦٩٣ ، وانظر المدائني ==

لم تكـــن عائشة بحاجة إلى من يحرضها، فإن الحقد الدفين بقلبها على عليٍّ والحســـد الدائـــم له، كانا كفيلين وحدهما بدفعها لركوب أوعر المسالك، وتحريضـــها عـــلى القيام بأصعب المهام، ولقد أشار الإمام علي في بعض خطبه إلى ذلك المرض لدى عائشة فقال: ( أما عائشة فقد أدركها ضعف في النساء وضغن غلى في صدرها )، ذلك الضعف والضغن، قهرا عائشة عـــلى مـــاانطوت نيـــتها عليه من التصميم على الحيلولة بين علي وخلافة المسلمين.

إنها الفتنة مرة أخرى، وإن عائشة مصممة على خوض غمارها، وتأليب الـــناس عـــلى الخليفة الشرعي الجديد مهما كانت النتائج، وهي تعلم علم اليقين أنها إن نجحت في مسعاها، ونالت من هذا الأمر مبتغاها، فلن يكون نجاحها إلاّ هزيمة للمسلمين، وإعاقة لحركة صعود الإسلام، وصدّاً عن سبيل الله وعن الحق الذي تعلمه ولا تجهله، وإن هي في الواقع قد تجاهلته وتنكبت طريقه منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا تزال مصرّة على السير في طريق الباطل، ومجانبة الحق والصواب.

ولذلـــك فإنها ما أن قيل لها قتل عثمان، حتى أجابت بفرحة غامرة

---

== والطبري حيث أوردا القصة وقول ابن أم كلاب لعائشة :

| | |
|---|---|
| فمنك البداء ومنـــك الغير | ومنك الرياح ومنك المطر |
| وأنت أمرت بقتـــل الإمام | وقلت لنا أنـــه قـــد كفر |
| فهبنا أطعنـــاك فـــي قتله | وقاتله عندنا مـــن أمـــر |
| ولم يسقط السقف من فوقنا | ولم تنكسف شمسنا والقمر |

وسرور عميق: ( بعداً لنعثل قتلته أعماله، إنه أحرق كتاب الله وأمات سنة رسول الله)، فلما قيل لها: ( بويع عليّ بالخلافة )، غاض السرور من قلبها وزالت الفرحة عن أساريرها ، وصاحت فزعة قلقة: (ردوني إلى مكة ، قتل عثمان والله مظلوماً، قتله علي بن أبي طالب ولأطلبن بدمه ولآخذن بثأره).

لم تكن عائشة بحاجة إلى تحريض، إنما كانت بحاجة إلى أنصار ينصرونها، وإلى رجال ذوي نفوذ يلتفون حولها، وهكذا تسابق إليها في مكة كل من طلحة والزبير، وتبعهما بنو أمية فارّين من المدينة إلى مكة، وتجمعوا حول أم المؤمنين يستظلون بظلها، وينضوون تحت رايتها، ويعززون لواء فتنتها وتحريضها على عليٍّ بن أبي طالب.•

إنها فتنة الأم التي شطرت أبناءها شطرين، ومزقتهم إلى فرقتين، وجعلت شطراً من هؤلاء الأبناء يحملون السيوف في وجوه إخوانهم من الشطر الآخر.

إنه عجل بني إسرائيل انبعث اليوم في صورة جمل عائشة، وإنه كيد السامري تجسد اليوم في صورة ضغن عائشة أم المؤمنين.

وانطلق موكب الجمل ( العجل )، يحف به الناكثون والحاقدون والحاسدون والطامعون، في ثلاثة آلاف مقاتل تقودهم أمهم عائشة، يساندها طلحة والزبير، وراحوا يغذون السير نحو البصرة، لإثارة الفتنة وسفك دماء أهل القبلة، وتفريق جماعة المسلمين، والحيلولة من جديد دون استتباب الخلافة لأمير المؤمنين عليّ، والاستئثار بها دون أصحابها الشرعيين.

## في الطريق إلى البصرة

كان عليٌّ يعد العدة لإرسال جيش قوي إلى الشام، يتولى قيادته بنفسه لعـزل معاويـة الذي رفض الانصياع لأمر أمير المؤمنين بالتنحي عن إمرة الشام، وكان في الوقت نفسه يراقب تحركات طلحة والزبير، ويرصد أخبار عائشـة في مكـة، فلما عاين تحركهم بمن معهم من المخدوعين والطلقاء، والموتوريـن والطامعين والمنافقين، ومرضى القلوب وضعاف الإيمان، ورأى توجههـم نحو البصرة، أرجأ أمرمعاوية في الشام، وأجل المعركة معه ريثما يسوي حسابه مع هؤلاء الذين لايقل خطرهم على الأمة عن خطر معاوية.

اسـتدعى عليٌّ المسلمين في المدينة المنورة للاجتماع في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حيث قام فيهم خطيباً، فأطلعهم على الموقف، وشـرح لهـم تحركات طلحة والزبير ومروان بن الحكم، وأخبرهم بمسير عائشـة ومن معها إلى البصرة، وأعلن لهم عن عزمه على المسير إلى البصرة لقطع الطريق على الخارجين عليه، ووأد الفتنة في مهدها، قبل أن يستفحل أمرها ويعظم خطرها.

سـارت السـيدة زينب بين زوجها عبد الله بن جعفر وأخويها الحسن والحسين، في ركب أبيها المتوجه بعسكره وجنده نحو البصرة، وكانت هذه هي المرة الأولى، التي تسافر فيها زينب خارج مدينة جدها رسول الله صلى الله علـيه وآله وسلم، مودعة ذلك البيت الصغير الذي هو مسقط رأسها ومرتع طفولتها، ومربع شبابها الأول.

في هـــذا البيت ولدت زينب وفيه درجت، وعلى أرضه خطت أولى خطواتها، وسجل أثيره الأحرف والكلمات الأولى التي نطقت بها وتحرك بها لسانها ..

ذلـــك البيت الذي اختاره جدها رسول الله لأبيها علي وأمها فاطمة، فعاشـــا فـــيه ولم يغادراه إلى غيره، وبينهما وفي أحضانهما وتحت عنايتهما ورعايـــتهما، عاشـــت زينب مع أخويها الحسن والحسين وأختها أم كلثوم ( زينب الصغرى )، يشمون ريح النبوة، ويسمعون كلام الوحي ..

ذلـــك البيت الصغير الحزين، الذي افتقد رسول الله صلى الله عليه وآله وســـلم، فعاش فجيعة كبرى لم يعشها غيره من بيوت المسلمين، ثم افتقد وبشـــكل سريع الزهراء بنت رسول الله، بعد الانقلاب الأول والأحداث الجســـام الـــتي رافقته ونجمت عنه، بحيث كادت النيران التي أضرمها ابن الخطـــاب تـــأتي على ذلك البيت وتلتهم كل مافيه ومن فيه، ولم يكن فيه يومـــئذ سوى علي، ونفر من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من المهاجرين الأولين والأنصار الأوفياء، مع بعض بني هاشم الذين التفوا حـــول وصي رسول الله، وخليفته علي، بالنص الثابت عن رسول الله، عن رب العـــزة والجلال .. وكان فيه إضافة إلى هؤلاء، بضعة الرسول وابنته الصـــدّيقة الكبرى الزهراء البتول، سيدة نساء العالمين فاطمة، ومعها ابناها ســـيدا شـــباب أهـــل الجنة، وسبطا رسول الله وريحانتاه من الدنيا الحسن والحســـين، وأخـــتاهما الصـــدّيقة الصغرى ( زينب الكبرى )، وأم كلثوم ( زينـــب الصغرى )، وفضة ( خادمة رسول الله )، التي اختارها صلى الله

عليه وآله وسلم لتكون في خدمة ابنته الحوراء الإنسية فاطمة الزهراء، ولتقوم برعاية البيت العلوي المقدس، فإذا بهم يقومون هم بخدمتها ورعايتها والاهتمام بها، لتصبح فيما بعد " المتكلمة بالقرآن "، المتأدبة بآداب النبوة والإمامة، المقتبسة من أنوار الطهر والقداسة ماجعلها قدوة للنساء في كل عصرٍ وجيل.

طافت زينب بهذا البيت الصغير مودعة، وهي تحس أنها ربما لن تعود إليه على الإطلاق، ولم تنس زينب قبل الانطلاق من المدينة المنورة، أن تمر على ضريح جدها تودعه وتبثه أشجانها ولواعج قلبها، وتذرف في حضرته الشريفة دموعها الغزيرة، ثم تنثني إلى البقيع متوجهة إلى مجموعة من القبور الوهمية التي كانت تخفي فيما بينها قبر أمها الزهراء، التي دفنت سرّاً في ليلة مظلمة، تحريكاً للأمة واحتجاجاً على سكوتها على انحراف الحكام وجورهم، واعتراضاً على خط الانحراف في مسيرة الخلافة منذ انطلاقتها الأولى من سقيفة بني ساعدة.

وقفت زينب ناحية القبور ناحبة باكية، تسلم على أمها الزهراء، وتودعها وهي لاتدري إن كانت الأيام تحمل في طياتها فرصة العودة إلى هذه البقاع المباركة، لزيارة ضريح جدها رسول الله وقبر أمها الزهراء.

كفكفت زينب من دموعها، ومشت في موكب أبيها وهي في غاية العز والاحترام، والهيبة والإجلال، يسير بها موكب فخم محفوف بأبهة الخلافة الحقة، محاط بهيبة النبوة والإمامة والولاية، مشتمل على السكينة والوقار .. موكب فيه أبوها حيدر الكرار " أمير المؤمنين"، وحامل لواء

والديـــن، وفيه أخواها الحسنان سيدا شباب أهل الجنة، وإماما أهل الإيمان والـــتقوى، وأخواها محمد بن الحنفية بن علي حامل الراية العظمى، والعباس بن علي قمر بني هاشم، وفيه زوجهاعبد الله بن جعفر، وأبناء عمومتها عبد الله وعبيد الله ابنا العباس بن عبد المطلب، وإخوتهما وبقية أبناء جعفر الطيار وعقـــيل بـــن أبي طالب وغيرهم من فتيان بني هاشم، وأتباعهم من رؤساء القبائل وسادات العرب، مدججين بالسلاح، ترفرف الرايات فوق رؤوسهم وتخفق على هاماتهم، وهي في غبطة وابتهاج وسرور(١) .

ســـارت زينـــب وهي تنظر إلى الجيش العرمرم الذي رافق أباها أمير المؤمنين من المدينة المنورة، ثم انضمت إليه القبائل والعشائر من كل مكان مرّ بـــه، ثم رفده حشد كبير من أهل الكوفة ، تبعه حشد آخر من أهل البصرة، جاؤوا جميعاً لنصرة الإمام عليه السلام.

نظـــرت زينب إلى هذا الجيش العلوي الكبير، الذي وصل البصرة على أحســـن هيئة وأجمل نظام، وفيه المسلمون الأولون من المهاجرين والأنصار، وفيه البقية الباقية من أهل بدر وأصحاب بيعة الرضوان، وحانت منها التفاتة إلى أبيها الإمام، يسير في موكبه العظيم وعليه الوقار والسكينة، وهو ينظر الى الأرض أكثر من نظره إلى السماء، تواضعاً للناس وخشوعاً وخضوعاً لله ولمشيئته سبحانه، والجنود يسيرون خلفه كأن على رؤوسهم الطير.

---

(١) زينب الكبرى ص ٩٢ للشيخ جعفر النقدي .

كان جيش عائشة قد وصل البصرة أولاً، ودخلها على حين غرّة من أهلها وغفلة، فخربوا وقتلوا وأحرقوا ونهبوا ماشاء لهم هواهم، بلا رادع من دين، ولاوازع من ضمير، ولاضابط من أمير، وأسروا عثمان بن حنيف عامل أمير المؤمنين على البصرة، ومثلوا به أشد التمثيل، ونكلوا به أعظم التنكيل، فنتفوا شعر رأسه وحاجبيه ولحيته وأشفار عينيه، واستطاعت عائشة بطبعها النسوي، وبصفتها " أماً للمؤمنين"، وزوجة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (١)، أن تستميل إليها بعض من خدعوا بها خاصة وقد رأوها تستعطف وتبكي وقد سالت على خديها الدموع، وراحت تتذلل إليهم وتستجير بهم، وتطلب منهم أن ينصروها للطلب بدم عثمان بن عفان، الذي أوهمتهم أنه قد قتل مظلوماً.

وعندما دخلت عائشة البصرة وقفت تخطب في الجمع المحتشد هناك فقالت : "كان الناس يتجنون على عثمان ويزرون على أعماله، ويأتوننا في المدينة فيستشيروننا... فننظر في ذلك فنجده بريئاً نقياً وفياً، ونجدهم فجرة كذبة، يحاولون غير مايظهرون، فلما قووا على المكاثرة كاثروه فاقتحموا

---

(١) كم استغلت عائشة مركزها هذا ، فكانت تكتب : " من عائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنها الخالص فلان. . " ولهذا استجاب لها الناس البسطاء ، وإن كانت لم تعدم من ردّ عليها من الواعين لحقائق الأمور وبواطنها يقول : " أما بعد فأنا ابنك الخالص إن أنت اعتزلت ورجعت إلى بيتك ، وإلاّ فأنا أول من ينابذك "، أو من يقول : " رحم الله أم المؤمنين، أمرت أن تلزم بيتها، وأمرنا أن نقاتل، فتركت ماأمرت به وأمرتنا به، وصنعت ماأمرنا به ونهتنا عنه". السيدة زينب ص ٦٩٤ — ٦٩٨ لبنت الشاطئ.

داره، واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام، بلا تِرَةٍ ولاعذر"، فهاج الناس وماجوا، وصرخت عائشة : اسكتوا أيها الناس، فأسكت لها الناس، فقالت : " إن أمير المؤمنين عثمان كان قد غير وبدل ، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة حتى قتل مظلوماً تائباً، قتلوه محرماً ذبحاً كما يذبح الجمل، أيها الناس : إنه مابلغ من ذنب عثمان ما يستحل به دمه، مصصتموه كما يماص الثوب الرخيص، ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه، وبايعتم ابن أبي طالب بغير مشورة من الجماعة، تراني أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه، ولا أغضب لعثمان من سيوفكم؟ ألا إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته، فإذا ظفرتم به فاقتلوهم، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر، ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان ".

ووجدت عائشة في السامعين من يرد عليها قائلاً : " ياأم المؤمنين، والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون .. إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك ".

وعقب كهل من بني سعد موجهاً كلامه لطلحة والزبير: " أما أنت يازبير فحواري رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأما أنت ياطلحة فوقيت رسول الله بيدك، وأرى معكما أم المؤمنين، فهل جئتما بنسائكما ؟! قالا : لا ، قال : فما أنا منكما في شيء " ، ثم أنشد :

صنتم حلائلكم وقدتم أمكم ... هذا لعمرك قلة الإنصاف
أمرت بجر ذيولها في بيتها ... فهوت تشق البيد بالإيجاف

غـــرضاً يقاتل دونها أبناؤها ... بالنبل والخطّـــيّ والأسياف
هُتكت بطلحةَ والزبيرِ ستورُها ... هـــذا المخبّر عنهم والكافي

وتصـــدى لهـــا الأحنف بن قيس يقول : " إني سائلك ومغلظ لك في المســألة، فلا تَجِدي عليَّ، أعندك عهد من رسول الله صلى الله عليه وآله وســـلم في خروجك هذا ؟ قالت: لا، فسأل: أفعندك عهد من رسول الله صـــلى الله علـــيه وآله وسلم أنك معصومة عن الخطأ ؟ أجابت: لا، قال: صدقت، إن الله رضي لك المدينة فأبيت إلاّ البصرة، وأمرك بلزوم بيت نبيه فترلـــت في بيت أحد بني ضبّة، ألا تخبريني يا أم المؤمنين للحرب قدمت أم للصلح ؟ أجابت وهي تكظم غيظها: بل للصلح، فقال لها: والله لو قدمت ولـــيس بينهم إلاّ الخفق بالنعال والضرب بالحصى مااصطلحوا على يديك، فكيف والسيوف على عواتقهم ؟!، فلم تدر عائشة بم تجيب، واكتفت بأن تقول في غيظ وألم : لقد استغرق حلمَ الأحنف هجاؤه إياي، إلى الله أشكو عقوق أبنائي" (١).

ركبت عائشة جملها، وقدمت بين يديها ابن أختها عبد الله بن الزبير، وأحاطت نفسها بطلحة والزبير، ومروان بن الحكم والوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعبد الله بن سرح بن عامر الحضرمي، وكعب بن سور سيد الأزد في البصرة، وقد حف بهم مايزيد عن ثلاثين ألفاً من الهمج الرعاع أتباع كل نـــاعق، ممن رافقوها من مكة، أو انضموا إليها في البصرة، وخرجت للقاء

---

(١)- تراجم سيدات بيت النبوة – السيدة زينب ص ٦٩٥ – ٦٩٨ – بنت الشاطئ .

جيش الخليفة الشرعي المنتخب، علي بن أبي طالب عليه السلام.

ماأوضح الفاصلة بين عائشة بنت أبي بكر وبين أم سلمة، كلتاهما أم للمؤمنين وزوجة لرسول رب العالمين، لكنهما لم تكونا سواء في الإيمان والتقوى، ولا في الفعل والسلوك، فلقد ودّت أم سلمة أن تنصر علياً عليه السلام، لكنها كرهت أن تبتلى بمثل ماابتليت به عائشة من الخروج، فجاءت علياً وقدّمت إليه ابنها عمر قائلة: ياأمير المؤمنين، لولا أن أعصي الله عزّ وجلّ وأنك لاتقبله مني لخرجت معك، وهذا ابني عمر، والله لهو أعز عليّ من نفسي، يخرج معك فيشهد مشاهدك.

ثم إن أم سلمة أتت عائشة فقالت لها: أي خروج هذا الذي تخرجين ؟ الله من وراء هذه الأمة !! لو سرتُ مسيرك هذا ثم قيل لي ادخلي الفردوس، لاستحييت أن ألقى محمداً هاتكة حجاباً قد ضربه عليّ، لكن عائشة التي أعماها الحقد لم ترجع، بل مضت في طريقها، وتخلفت عنها أمهات المؤمنين اللاتي كنّ قد خرجن معها إلى مكة، مؤثرات أن يرجعن إلى المدينة، عدا حفصة بنت عمر فإنها قالت: رأيي لرأي عائشة تبع، وأرادت أن تخرج معها إلى البصرة، فحال أخوها عبد الله بن عمر بينها وبين ذلك، و لم تجد حفصة بداً من الاعتذار لعائشة والقعود عن الخروج معها (١) .

ألقت زينب نظرة من بعيد على قادة ذلك الخليط العجيب، وهي تحدث نفسها وكأنها تقول: سبحان الله، هؤلاء هم أعداء بعضهم في الأمس

---

(١) (تراجم سيدات بيت النبوة – السيدة زينب ص ٦٩٥ – ٦٩٨ ، بنت الشاطئ).

القريب، الذين فرقت بينهم الأهواء والمصالح فإذا هم فريقان: طلحة والزبير وعائشة وأنصارهم في جانب، والأمويون وحزبهم ومن شايعهم وشاكلهم في الجانب الآخر، وكل منهم يستبيح دماء الآخرين، وحتى الطرف الواحد منهم لم يكونوا على قلب رجل واحد، كيف وكل منهم كان ينطوي على أحقاد وأضغان، ويخفي مطامح ومطامع، فعائشة لم تكن تطيق الزبير، والزبير لم يكن يثق بطلحة، وكل منهما كان يطمح إلى الظفر بالأمر دون الآخر، حتى عبد الله بن الزبير لم يكن صافياً لأبيه، ولا محمد بن طلحة كان مقتنعاً بتصرفات أبيه طلحة، ومع ذلك فقد التمّوا على بعضهم في هذا الخليط العجيب.

إن المصالح والأهواء التي فرقت بينهم في الماضي، وجعلتهم أعداء في الأمس القريب، هي نفسها التي تجمع بينهم اليوم، وتجعلهم يقفون صفاً واحداً في وجه الدولة الجديدة، التي وقفت في صف الفقراء والمستضعفين، وأنصفتهم ممن احتكروا المناصب والمصالح والمنافع دونهم، الدولة الرشيدة التي ألغت الامتيازات، ووزعت الأموال والمنافع بالسوية على كل أفراد الشعب، وزوت المناصب عن غير الأكفاء المخلصين، من ذوي الإيمان والتقوى، والجدارة والدراية.

جميع هؤلاء المستكبرين والطفيليين والطامعين تجمعوا اليوم معاً، يستنفرون كل الفئات التي كانت تنعم بالخيرات على حساب الفقراء والمستضعفين، ويدفعونهم للوقوف صفاً واحداً في وجه السلطة الشرعية، الحكومة العادلة، التي تولاّها أبوها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

وحانت من السيدة زينب التفاتة إلى أبيها، فوجدته قد ترجل عن فرسه، وتوجـــه نحو الكعبة المشرّفة، فصلّى أربع ركعات، ثم عفّر خديه بالتراب وقد خالطته الدموع، ثم قام رافعاً يديه نحو السماء وهو يقول:

- اللهم ربَّ السماوات وما أظلت، والأرضين وما أقلت، هذه البصرة أسألك الـــلهم من خيرها وأعوذ بك من شرها، اللهم أنزلنا فيها خير مترل وأنت خير المترلـــين، اللهم هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتي، ونكثوا بيعتي، وبغوا عليَّ ... اللهم احقن دماء المسلمين.

* * *

مـــا أن أشـــرقت شمس يوم الخميس العاشر من شهر جمادى الثانية سنة ٣٦ لـــلهجرة، حتى أرسل أمير المؤمنين وفداً رفيع المستوى جليل القدر إلى أم المؤمـــنين عائشة، يناشدها الله في دماء المسلمين وفي أموالهم، لكن عائشة أبت بكـــل عناد أن تستجيب لمناشدة أمير المؤمنين، ورفضت الاستماع لتذكيرات الوفد، وأصرت ومن معها على القتال.

كانـــت أم المؤمنين تتنصل أمام الوفد من كل مواقفها السابقة من عثمان، ومن تحريضها على قتله، والأنكى من كل ذلك أنها كانت تلقي مسؤولية قتل الخليفة عثمان على عاتق الإمام عليّ، وتطالبه – وهذا هو بيت القصيد لديها، وغاية كل تحركاتها – بالتخلي عن الخلافة التي حمّله المسلمون عبأها بعد مقتل عـــثمان، وألحوا عليه مراراً وتكراراً حتى قبل كارهاً النهوض بتلك المسؤولية الجســـيمة، ولم يكـــن من الصواب أبداً أن يلقي عليٌّ عن ظهره ذلك العبء الثقيل بعد أن رضي بحمله، ولمن يتركه؟! ومن يستطيع أن يحمله سواه؟!.

وأمـــام إصرار أهل الباطل على باطلهم، وتمسك أهل الحق بحقهم، كان لابـــد مـــن المواجهة،كان لابد من القتال، وهكذا برز الحق الخالص للباطل الصريح.

بـــرز أمـــير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى ميدان القتال حتى وقف بين الصفين حاسر الرأس، قد ألقى درعه، وأغمد سيفه، ثم نادى الزبير وطلحة، فخرجا إليه مدجّجين مقنّعين، واقتربا منه حتى اختلفت أعناق خيلهم.

أقـــبل عليهما أمير المؤمنين بوجهه الناطق بالصدق، ونضح عليهما من وجدانـــه وقلـــبه .. نصـــح لهما ووعظهما، وأماط لثام الحق أمام أعينهما، وذكّرهما بأقوال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن موقفهما اليوم منه، وظلمهما له، فأما الزبير فغادر أرض المعركة معتزلاً نادماً (١) ، وأما طلحة فعاد إلى مكانه على يمين عائشة حيران قلقاً، يحدث نفسه بالثبات مع عائشة مـــرة، وبالـــلحاق بالزبير مرة أخرى، ومازال كذلك متردداً يقلب وجوه الـــرأي، ويخـــير نفســـه بـــين الجـــنة والنار حتى فطنله مروان بن الحكم، وكـــان له حاسداً وعليه حاقداً، فاهتبل الفرصة السانحة، وسدد إليه سهماً

---

(١) يـــروي الطبري في تاريخه والمسعودي في مروج الذهب عند الحديث عن معركة الجمل أن أمير المؤمـــنين علـــيه السلام ذكّر الزبير بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لـــه: لتقاتلنّه وأنت لـــه ظـــالم، فـــأراد أن يعـــتزل القتال، ولكنه لم يستطع ذلك كما يبدو، لأن ابنه عبدالله وصفه بالجبن والخوف من سيف علي، فأثار ذلك القول حميّته وحفيظته فعاد وقاتل حتى قتل، ولعل مما يدل على ذلـــك مـــاورد في نهـــج الـــبلاغة من قول الإمام علي في طلحة والزبير: ( اللهم إنهما قطعاني وما وصـــلاني، ونكثا بيعتي وألّبا الناس عليَّ، فاحلل ماعقدا، ولاتحكم لهما ماأبرما، وأرهما المساءة فيما أمّلا وعملا، ولقد استتبتهما قبل القتال واستأنيت بهما أمام الوقاع، فغمطا النعمة وردّا العافية ).

وكـــان له حاسداً وعليه حاقداً، فاهتبل الفرصة السانحة، وسدد إليه سهماً أصابه فقتله.

أمـــا أم المؤمـــنين عائشـــة فلم تتراجع عن موقفها، ولم تعتبر بما جرى حولهـــا، إذ أردى سهم مروان ميمنتها طلحة، وأخرج الندم ميسرتها الزبير من أرض المعركة، وإنما ركبها العناد وأصرت على القتال، وأمرت جيشها بفتح النار على جيش الخليفة الشرعي.

وهكذا التحم الجيشان التحاماً شديداً، واقتتلا اقتتالاً عظيماً، إلى أن عقـــر جمل عائشة، ومال بها هودجها إلى الأرض، فخفّ إليها أخوها محمد بـــن أبي بكر بأمر من علي، مخافة أن يصيبها أذىً أو تمس بسوء، وأمر عليٌّ بـــالجمل أن يحرق ثم يذرى في الريح، وقال: "لعنه الله من دابة، فما أشبهه بعجل بني إسرائيل"، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً (٩٧)﴾ سورة طه، ثم جـــاء إلى هـــودج عائشة – وقد سبقه إليها أخوها محمد بن أبي بكر– فقرع الهودج برمحه ثم قال :

– أبهذا أمرك الله وأوصاك رسول الله ياحميراء ؟! والله ماأنصفك الذين صانوا عقائلهم وأبرزوك.

– ياابن أبي طالب، ملكتَ فاصفح، وظفرتَ فاسجح.

– والله ماأدري متى أشفي غليلي! أحين أقدر فيقال لي لو عفوت، أم حـــين أعجـــز فيقال لي لو صبرت ؟!، بلى أصبر وأصفح، فإن لكل شيء زكاةً، وزكاة القدرة والمكنة العفو والصفح.

ثم التفت إلى ربيبه وتلميذه محمد بن أبي بكر يوصيه بأخته عائشة:

– شأنك بأختك، فلا يدنو منها أحد سواك، حتى تنزلها في دار صفية بنت الحرث بن أبي طالب العبدي في البصرة (١) .

فـيما مضـت عائشة مع أخيها، وهي لاتفتر عن سب الإمام وسب أخـيها، والترحم على أصحاب الجمل، وقف أمير المؤمنين يجيل بصره في أرض المعركة، وينظر إلى قتلى الطرفين الذين جاوز عددهم ثمانية عشر ألف قتيل، وقد اغرورقت عيناه بالدموع على ضحايا " عجل السامري "، وراح يتمتم بصوت لم تفارقه رنة الحزن والأسى:

– يـرحمكِ الله ياعائشـة، كيف استخفّكِ الهوى، فاستقبلت هذه الفتنة واستدبرت كتاب الله وهو يناديكِ: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولى ﴾ الأحزاب/٣٣، لأنتِ حقاً بنتُ أبيكِ؟.

مضـت عائشـة – كما أمر الإمام إلى بيت تستقر فيه– وهي تندب حظها وتلعن قدرها، وتعلن سخطها على بنيها، ومضى أمير المؤمنين يلملم أطـراف النزاع، ويطفئ جمار الفتنة، ويضمد للجميع الجراح التي خلفتها تلـك الحرب الظالمة (معركة الجمل الذي ركبته عائشة وأدارت من فوقه تلك الحرب)، فلم يسمح لجيشه بالإجهاز على جريح ولا بملاحقة هارب، ولا بكشـف عـورة قتيل، كما كفّ أتباعه عن جمع الغنائم والمتروكات،

---

(١) وفي روايـة : حـتى تنزلها في دار ابن خلف في البصرة ، انظر : ( الإمام علي من المهد إلى اللحد ص ٤٦٤ ).

وعن أخذ شيء من أموال المتمردين، بل وأعلن العفو العام عن الجميع، ونادى مناديه أن من أحب أن يواري قتيله فليواره، وأمر أصحابه أن يواروا قتلاهم في ثيابهم التي قتلوا فيها، فإنهم يحشرون على الشهادة، وقال عليه السلام: وإني لشاهد لهم بالوفاء.

دخل أمير المؤمنين البصرة، فكان أول همه أن يؤوي أم المؤمنين عائشة إلى بيتها في المدينة المنورة، حيث إقامتها الطبيعية التي خلفها فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجهزها بكل ماتحتاج إليه في سفرتها تلك، وأرسل معها بعض النسوة لخدمتها وحراستها، وهكذا سارت عائدة إلى بيتها معززة مكرمة، بصحبة أخيها محمد بن أبي بكر، وهي لاتفتأ تبدي لأخيها بغضها لأمير المؤمنين، وحقدها عليه ومعارضتها لخلافته.

عادت الأمور إلى وضعها الطبيعي في البصرة، ورجع الناس إلى أمير المؤمنين يجددون له الولاء والبيعة، ويبايعه من أهلها من لم يكن قد بايعه قبل ذلك.

ارتاحت زينب .. وداخلها سرور كبير لما آلت إليه الأمور بعد هذه الفتنة الكبرى، وبعد تلك الأيام الهوج التي خلفت من الحزن والخوف والقلق مالا يوصف، ودخلت على أبيها تود أن تبدي له ما في قلبها من السرور، فوجدته جاثماً يبكي أولئك القتلى، وينتحب والدموع تسيل على خديه.

أسرعت زينب إلى أبيها تحاول أن تخفف عنه بعض مابه من الوجد والحزن:

- مايبكيك ياأبي؟!.أليس قد انحسرت الفتنة، وانتهت المعركة بانتصار الحق وخذلان الباطل؟!.

- يابنتي ٠٠ إن مايبكيني ويحزنني كثرة الداخلين النار بسببي، لقد جعلنا الله أهل البيت ميزاناً بين الحق والباطل، وفرقاناً بين الإيمان والنفاق، فوالله يابنتي لايدخل الجنة ولايشم ريحها امرؤٌ في قلبه ذرة من بغض لي أو لأحد من أهل بيتي، من ذرية فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكيف بمن خالفني وامتنع عن بيعتي واستحل قتالي أو قتال أحد من أهل بيتيَ؟!، يابنتي ٠٠ إن ماهو آت أعظم وأشد وطأة مما فات، ولك من كل ذلك يازينب الحظ الوافر والنصيب الأوفى، لقد امتحننا الله بهذه الأمة وامتحنها بنا.

- أليس ذلك في سبيل الله ورضوانه ياأبتاه ؟.

- بلى والله يابنتي، رضى الله رضانا أهل البيت.

- إذن والله نصبر على قضاء الله، ولانبالي ماجرى علينا ولا ماحلَّ بنا يا أمير المؤمنين.

- لكنني يابنتي إنما أشفق على هذه الأمة، لقد ذرَّ الشقاق والنفاق قرنه فيها، ولعب الشيطان في نفوس وقلوب أكثر أفرادها، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون.

* * *

# الفصل الثالث

## مع معاوية

## ( فرع الشجرة الملعونة )

## إلى الكوفة

لم تغب عن بال أمير المؤمنين استعدادات معاوية بن أبي سفيان للحرب، وتفاصيل رسائله إلى بعض زعماء أهل الكوفة وإغراءاته لهم، وميل بعضهم إلى نقض بيعة الإمام، والانضمام إلى جيش معاوية عند احتدام المعركة، أو التخذيل على الأقل عن أمير المؤمنين، وإثارة القلاقل والمشاكل في وجهه وبين جنده وأتباعه، وخاصة الأشعث بن قيس الكندي، الذي لم يستطع أن يمحو من ذاكرته مااعتبره إهانة بالغة له من علي بن أبي طالب، عندما رفض علي أن يزوجه ابنته زينب.

لذلك فقد قرر الإمام أن يجعل من الكوفة محطته الثانية بعد البصرة، لوقف هذه المؤامرات، وعدم تمكين معاوية من زعزعة الاستقرار في الكوفة.

جلس أمير المؤمنين إلى ابنيه الحسن والحسين عليهما السلام، وابنته زينب وزوجها عبدالله بن جعفر، وخاصة بني هاشم، يتداول معهم الأمر ويشرح لهم خافيات الأمور، مما يجري في الشام، والرسل التي تترى بين الشام والكوفة، فوجدهم جميعاً يرتأون التحرك إلى الكوفة، لأن الكوفة هي ملتقى ومفترق الطرق إلى العالم الإسلامي يومئذ، وإن وجود أمير المؤمنين في الكوفة سيبعث السرور في قلوب أهلها، وسيبث الانشراح في صدورهم، فيلتفون حول أمير المؤمنين، ويرصون صفوفهم خلفه، وبذلك يفوت الفرصة على معاوية، وعلى بعض ضعاف القلوب من زعماء الكوفة، الذين استطاع معاوية استمالتهم إليه، وخداعهم بالمكيدة والمكر،

اســتطاع معاويــة استمالتهم إليه، وخداعهم بالمكيدة والمكر، والإغراءات السخية بالمناصب والمنافع المادية.

تحــرك ركــب أمــير المؤمــنين قاصداً الكوفة، بعد أن بسط الأمن والاســتقرار في البصرة، وولّى عليها ابن عمه عبد الله بن عباس، حبر الأمة وعالمها وبطلها الشجاع، الذي عرف بالحنكة والحكمة والدراية والكفاءة.

كان هذا هو السفر الثاني لزينب خارج المدينة المنورة، وفي الطريق إلى الكوفــة، راحــت الحــوراء زينب تستعيد مع زوجها عبدالله بن جعفر، الأحداث الجسام التي تختزها في ذاكرها منذ وفاة جدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإقصاء أبيها عن حقه الشرعي في الخلافة، ونزع فدك من يد أمها الزهراء، فدك تلك الأرض الخصبة المعطاء، والبساتين الزاخرة بشتى أنــواع الثمار، فدك ذات الغلال الوفيرة والمحاصيل الكثيرة، فدك التي كان رســول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد نحلها ابنته فاطمة، ووهبها إياها مقــابل أمــوال أمها خديجة، التي كانت قد وضعتها بكاملها تحت تصرف الرسول حين تزوجته، ليصرفها كيف يشاء بلا حدٍّ ولا قيد، فصرفها جميعاً عــلى المســلمين، لإعلاء صرح رسالة الإسلام الخالدة، فدك هذه .. يأتي الخلــيفة الأول أبــو بكر، فيترع يد صاحبتها فاطمة عنها ظلماً وعدواناً، ويضمها إلى أموال الخلافة.

ويجــتمع عــلى الزهراء فقد أبيها الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم، واغتصــاب الخلافة من زوجها علي عليه السلام، ثم سلبها حقها في فدك، والــتهجم علــيها وإهانــتها، بل وتكذيبها فيما كانت تدّعيه من حق لها

ولـــزوجها، ومرضها منذ ذلك اليوم المشؤوم، يوم جمع الحطب خلف باب دارها عليها السلام، لإرغام زوجها على البيعة كرهاً للخليفة الأول، فيشتد علـــيها المرض، ثم تفارق الحياة ساخطة على الخليفة وصاحبه عمر، غاضبة عليهما، وتوصي زوجها أن يدفنها ليلاً دون علمهما، لتحرمهما وأتباعهما من فضيلة الصلاة عليها وتشييع جنازتها، متظاهرين أمام الناس بالحزن عليها والفجيعة بفقدها.

ماأشـــد ماتجرعت زينب من كؤوس المرارة، وماأكبر ماغصّ به فؤادها مـــن الشجى والأسى فيما مضى، وما أعظم ما لايزال يترل بها من الفواجع والحوادث اليوم وهي بعد شابة يافعة، وما أقسى وأصعب وأمرّ ماسيجري عليها وعلى أهل بيتها من الويلات والمصائب، حينما تغدو امرأة كهلة!.

طفـــرت الدمـــوع سخيّة من عيني زينب، وعلا نشيجها وهي تروي لـــزوجها عبد الله من الذكريات والحوادث ماكان يعرفه تمام المعرفة، لأنه عاشها جميعاً لحظة بلحظة .. واندفع إليها أخواها الحسن والحسين يسألانها عما بها، ويستوضحان منها عما أبكاها وأسال الدموع من عينيها، ورفعت زينب كمها تمسح به الدموع التي سالت على خديها، والتفتت إلى أخويها تقول:

– عـــادت بي الذكريات إلى أيام طفولتي الأولى، ورأيتني أُكِبُّ على صدر جـــدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يجود بأنفاسه الأخيرة، وسمعـــته في تلـــك اللحظة يقول لأبي: " ياعلي، قد أجمع القوم خلافك"، وســـأله أبي يومئذ: " فماذا تأمرني أن أصنع يارسول الله؟". فأجابه جدي:

"إن اجتمع إليك أربعون مؤمناً فقاتلهم بهم، وإلاّ فاصبر حتى يحكم الله والله خير الحاكمين". وقد صدق جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فما أن جاد بنفسه الزكية، وأسلم لبارئه روحه الطاهرة، حتى هرع الناس إلى سقيفة بني ساعدة، فما خرجوا منها حتى استخلفوا عليهم أبا بكر، فكان هذا أول الخلاف، وبداية الانقلاب والنكوص على الأعقاب، ثم مالبثوا أن عدوا على أرض لأمي فاطمة تدعى فدكاً، فانتزعوها منها بغياً بغير حق، وكذّبوا دعواها، وردوا شهادة زوجها علي، حيث ادعى أحدهم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة، ثم لم تمض على ذلك ستة أشهر حتى تجددت مصيبتنا بجدنا حين توفيت أمنا الزهراء، فدفنت سراً في عتمة الليل، وهي بنت رسول الله، وبضعة خاتم الأنبياء والرسل، فويل لأمة تموت بنت نبيها - لابنت له سواها - ثم تدفن سراً دون علم الأمة وقبل أن تصلي عليها، ويعفّى علىقبرها فلا يعلم أحد من هذه الأمة المحرومة مكانه، وتدرك الأمة سرّ كل ذلك، ثم لاتنتفض لتعدّل الميل وتزيل الانحراف، وتعيد الحق إلى نصابه، والأمور إلى مجراها الطبيعي، وإنما تستكين للانقلاب الظالم، وتقر الانحراف الخطير، وتركن إلى الدنيا، وتميل إلى الدعة والراحة.

وراحت زينب تذكّر أخويها وزوجها بتفاصيل تلك الأحداث التي شهدوها جميعاً، ولم يغب أي منهم عن شيء من تفاصيلها التي نقشت في ذاكرتهم ووعتها عقولهم، وأراد زوجها عبد الله أن يفسح لها المجال لرواية خطبة أمها الزهراء، تلك الخطبة الفريدة التي ألقتها في مسجد أبيها رسول

الله صـــلى الله عليه وآله وسلم، أمام الخليفة الأول أبي بكر وهو بين حشد كـــبير من المهاجرين والأنصار، خاصة والطريق أمامهم إلى الكوفة طويل، والحديـــث يسلّي المسافر ويخفف من مشاق السفر، وزينب تحب كثيراً أن تعـــيد رواية تلك الخطبة التي لم تنس منها حرفاً واحداً مذ سمعتها في ذلك اليوم العصيب، قال لها زوجها عبد الله:

– أما زلت تحفظين تلك الخطبة البليغة لأمك الزهراء في المسجد؟.

– تلـــك خطبة صريحة، لم تترك لدى المسلمين لبساً ولا غموضاً فيما يـــتعلق بحقهـــا في فدك، وحق زوجها في الخلافة — وإن أغمض المسلمون الطرف عن ذلك — فهل تنسى زينب خطبة كهذه ؟.

– ألا تعـــيدين عـــلى مسامعنا بعض مقاطعها يازينب ؟ فلقد والله مرّ عليـــنا زمن طويل لم نسمعها، ولعل أخويك الحسن والحسين يبغيان سماعها من جديد كذلك؟.

– بلى والله ياعبد الله، قال كل من الحسن والحسين.

– لكنني أسمعتكم الخطبة مراراً، وكذلك لعبد الله بن عباس، وما أظن أحداً من بني هاشم لم يسمعها مني.

– فنحب يازينب أن تعيديها على مسامعنا اليوم. قالوا جميعاً.

– حـــباً وكرامة، سأنتقي لكم بعض مقاطعها فيما تبقى لنا من وقت، قـــبل أن يحـــط الركـــب رحاله لصلاة العشائين، ولأخذ قسط من الراحة والنوم.

راح الجميع يصغون لحديث السيدة زينب التي انطلقت تقول:

- كنت إلى جانب أمي الزهراء في المسجد، وقد ضرب ستار بيننا وبين أبي بكر، وقد احتشد حوله جمعٌ من المهاجرين والأنصار، وران الصمت المطبق إلاّ من صوت أمي تقول:

[..فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهرت فيكم حسيكة النفاق، وسَمُلَ جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الأقلين، وهدر فنيق المبطلين.. وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين.. فوسمتم غير إبلكم، ووردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكَلْمُ رحيب، والجرح لما يندمل، والرسول لما يقبر ..].

[.. فهيهات منكم، وكيف بكم، وأنّى تؤفكون ؟! وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة، قد خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون ؟ أم بغيره تحكمون ؟!، ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾، ثم لم تلبثوا إلاّ ريث أن تسكن نفرتها ويسلس قيادها، ثم أخذتم تورون وقدتها وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء نور الدين الجلي، وإهماد سنن النبي الصفي، وأنتم تزعمون أن لا إرث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون ؟].

وتابعت أمنا الزهراء :

[ أيها المسلمون، أأُغلَب على إرثي؟! أفي كتاب الله يابن أبي قحافة أن ترث أباك ولا أرث أبي؟! لقد جئتَ شيئاً فريّاً، أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾، وإذ يقول على لسان زكريا: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي

وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾، أفخصكم الله بآية أخرج منها أبي ؟! أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي ؟!].

قالت زينب: "وإذ رأت أمنا الزهراء تصميم الخليفة على المضي في الدرب الذي انتهجه من ظلم آل محمد وغصب حقوقهم، وعاينت تخاذل المسلمين عن إحقاق الحق، وسرعتهم في ممالأة الباطل، صرخت في وجوههم تقول:

[ ألا قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وخلوتم بالدعة، ونجوتم من الضيق بالسعة، فمججتم ماوعيتم، ودسعتم الذي تسوغتم، فـ ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، ألا وقد قلت ماقلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وبثة الصدر، وتقدمة الحجة، فدونكموها فاحتقبوها، دَبِرَةَ الظهر نَقِبَةَ الخف، باقية العار، موسومة بغضب الله وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة، فبعين الله ماتفعلون، وسيعلم التالون غبَّ ماأسس الأولون، وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ ].

كانت الدموع تفيض من عيني السيدة زينب وهي تروي لهم هذه المقاطع من خطبة أمها الزهراء، ومن أعينهم جميعاً وهم يستمعون لها تروي مالاقته أمهم الزهراء من عنت وجهد، وما واجهتها به أمة أبيها من نكران

وجحـــود، واستهانة وخذلان، وفيهم من كشف عما في نفسه لها من حقد وبغض.

أفبهذا كله تواجه الأمة بنت نبيها وهو صلى الله عليه وآله وسلم القائل عنها: (فاطمة بضعة مني، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن أغضبها فقد أغضبني، ومن أغضبني فقد أغضب الله)؟!، وأين المودّة في القربى الـــتي أمرها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ الشورى / ٢٣.

ولـــو أن هذه الأحداث، كانت مجرد ذكريات مضت، وانقضى حينها، وانقطـــع رنينها، لهان أمرها إذن وانبتّ أنينها، لكن الخطب مايزال مستمراً، والمصيبة ماتزال قائمة، فهاهي سنة الأولين في مخالفة أهل البيت، وإزالتهم عن مواضـــعهم الشرعية التي وضعهم الله تعالى فيها ورسوله، قد توارثها التالون، وهكـــذا تـــتابع القاســـطون والناكثون، وسيتبعهم المارقون والخارجون، في مواجهة أمير المؤمنين، ووضع العراقيل أمامه، وشن الغارات والحروب عليه، وهاهو معاوية بن أبي سفيان في الشام، يعد العدة ويجهز الجيوش، للانقضاض على الخلافة الشرعية، ممثلة في علي بن أبي طالب عليه السلام، أمير المؤمنين، وســـيد العبّاد والزهّاد والعلماء والعارفين، وقائد البررة المخلصين، وإمام الغرِّ المحجلين إلى جنات النعيم.

- لماذا توقفت يازينب عن رواية هذه الدرر الثمينة ونحن إليك مصغون، وإلى تلقفها من فمك مبادرون، وعليها وعلى استماعها حريصون ؟!.

- رأيـــتكم وقد تصدعت لكلام الزهراء عليها السلام قلوبكم، وجرت

على خدودكم دموع عيونكم، فحبست في قلبي الجوى، وكظمت في صدري الغيظ، فحسبكم مني مارويت لكم، وأنتم أعلم بما كففت عنه من بقية الكلام.

أحس الحسنان بما يعتمل في صدر أختهما زينب من لهيب النار، وجمرة الحزن ووقدة الأسى، ولم يكن مايعتمل في صدريهما دون الذي يعتمل في صدرها، وكان عبد الله مثلهما ومثل زينب ألماً وحرقة وشجىً، فانطلق كلٌّ يواسي الآخر، وانطلقوا جميعاً يواسون السيدة زينب ويطيبون خاطرها، وكلٌّ منهم يذكّر الآخرين بما لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من أجر العاملين الصابرين، وما ينتظرهم وأنصارهم وأتباعهم وشيعتهم من النعيم المقيم، ورضوان الله العظيم.

* * *

## في الكوفة

في أواخر رجب من سنة ست وثلاثين للهجرة، دخل ركب أمير المؤمنين الكوفة، فاستقبله أهلها بحفاوة بالغة، وقد نشروا الزينات، ورفعوا الرايات، وعلت من حناجرهم الهتافات بحياة أمير المؤمنين، وقد بدا الفرح على الوجوه، وبان السرور على جميع أهل الكوفة يومئذ، وكانت قد وصلتهم قبل ذلك أخبار النصر المبين الذي منّ الله تعالى به على أمير المؤمنين وجيشه، والخزي والخذلان الذي مني به الناكثون، ففُلّت سيوفهم، وهزمت جموعهم، وقتل قادتهم ومحرضوهم، وأدخل العار والشنار عليهم وعلى

أبـــنائهم الذيـــن آزروهـــم وعاضـــدوهم على غدرهم وخيانتهم للإسلام والمسلمين، وعلى خروجهم على أمير المؤمنين.

ومـــا أن حـــطّ ركـــب الخليفة في الكوفة، واجتمع إليه أهلها فرحين مسرورين بقدومه إليهم وإقامته بينهم، حتى أمرهم بالاستعداد لحرب معاوية بن أبي سفيان، الطليق ابن الطليق، فوجد منهم تجاوباً كبيراً لدعوته، وحماساً شديداً لحرب معاوية ومن معه من الطلقاء الموتورين والطامعين المخدوعين.

استعد أهل الكوفة جميعاً، وأخذوا أهبتهم الكاملة لنصرة الإمام، فالذين اشـــتركوا معه من قبل بحرب الناكثين في معركة الجمل، يريدون أن يضيفوا نصـــراً إلى نصر، والذين تخلفوا عنه في تلك الموقعة، يريدون أن يعوضوا ما فاهم، وأن يعتذروا عن تخلفهم، وأن يعبروا عن توبتهم وندمهم لما بدر منهم من تخاذل وتقصير.

رأت زينب من تجاوب أهل الكوفة بهذا الشكل الكبير، بادرة تدعو إلى الاطمئـــنان، وتبعـــث على الأمل، ورأت كيف بلغ من حماسهم أن راحوا يـــلحون على الإمام، أن يسارع لغزو معاوية في الشام قبل أن يتحرك معاوية لغـــزو الكوفـــة، وكانوا يعلمون عن غدر معاوية وفجره الكثير، لكن أمير المؤمنين استمهلهم ريثما ينذر معاوية، وينصحه أن يرجع عن الغي والضلال، وأن لايتمادى في الباطل.

دلفت زينب إلى أبيها تحدثه :

– قـــد خرجت من عندي الآن زوجة أحد الزعماء في الكوفة، وكأنها جاءت تستفسر عن شيء حاك في نفس زوجها.

– عمّاذا استفسرت ؟.

– تساءلت عن سر عدم مباغتة الخليفة لمعاوية في الشام، وعن دوافع إنذاره قبل بدء الهجوم.

– وبماذا أجبتها يازينب ؟.

– قلت: بعث الله جدّنا نبياً هادياً، لامحارباً غازياً، وأمير المؤمنين أبي على منهج رسول الله جدّي، وإن إيمان امرئ بالإسلام خير عنده من فتح حصن وقتل مافي داخله، ثم إن هؤلاء بغوا علينا بالعصيان، فلا بدّ أن نبدأهم بالحجة والبيان، ولئن قابلناهم بالباطل الذي أبدوه لنا، فبماذا نكون خيراً منهم ؟، ومن أجل ماذا نقاتلهم ؟!.

– أحسنت يازينب، لنعم الجواب جوابك، ولنعم المعلمة أنت، فهل ترينَ أنها قنعت بما سمعت ؟.

– هكذا بدا في الظاهر يأمير المؤمنين، والله يتولى السرائر.

– نعم يازينب، ومأظنها إلاّ رسول قوم إليّ، أفلا تكونين رسولي إلى نسائهم ؟.

– كيف يأبت ؟.

– تتصدّين لتفقيههنّ وتعليمهنّ، وتفسير القرآن لهنّ، وتنقلين لهنّ أمرنا وشأننا – أهل البيت – بالحكمة والموعظة الحسنة.

– إني طوع أمرك يأمير المؤمنين.

لقد كانت لفتة كريمة من الإمام حينما أشار على ابنته زينب الكبرى أن تتصدّى لتعليم النساء في الكوفة، وأن تجذبهنّ لمدرستها الربانية، ليتسنى لها

بـــثّ المعرفة السليمة إليهن، ونشر الوعي الصادق بينهنّ، وهكذا أصبح بيت زينب المدرسة النسائية الكبرى في الكوفة، وجلست زينب للنسوة تفسر لهنّ القــرآن الكرم ، وتروي لهنّ أحاديث جــدها المصطفى صلى الله عليه وآله وســلم، وأخبار أمها الزهراء عليها السلام، وتوجيهات أبيها علي المرتضى، وأقبلــت نســوة الكوفة على مدرسة زينب، وتحلّقن حولها يغرفن من معين عــلمها الغزير، وعرفانها الصافي، وينهلن من نمير حديثها العذب، ومنطقها السليم، وكلامها الفصيح، وتوجيهاتها الربانية الحكيمة.

سُــرّت نســوة الكوفــة بمدرستهنّ الكبرى وناديهنّ العظيم، والتزمن الــدروس والندوات، ولم يسمحن لشيء أن يشغلهنّ عنها، ومضت زينب تمارس الدور الذي أسنده إليها أبوها أمير المؤمنين، وتؤديه بحكمة وصبر، ولم يكن مفاجأة لها أن العلوم التي بثتها في النساء انتشرت وفشت في معظم أهل الكوفــة رجــالاً ونساء، وكان هذا بعض ماهدف إليه أمير المؤمنين، ضمن أهداف مستقبلية أخرى تتعلق بدور مكمل، ستلعبه زينب في المستقبل.

* * *

كــثرت رسل الخليفة إلى معاوية يدعوه إلى الطاعة، والدخول فيما دخل فيه المسلمون، إتماماً للحجة علىمعاوية، وإعذاراً إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكي يكون المسلمون على بينة من عدوان معاوية، ويقين تام من عدالة أمير المؤمنين وحكمته وصبره، والتزامه أحكام الإسلام في كل

تصرفاته، وجميع حركاته وسكناته.

وكـــان مـــن المعلوم لدى الإمام أن معاوية لن يرتدع عن غيّه، ولن يترجـــر عمـــا هو فيه من الزيغ والضلال واتّباع الباطل، فكان الإمام يرسل رسله إلى معاوية على رؤوس الأشهاد من أهل الكوفة، ويطلعهم كذلك على ردود معاويـــة وأجوبته الرافضة للحق، حتى أيقن الجميع أن معاوية سادر في الغي والضلالة، غارق في الإثم والباطل، طامع في الإمرة والخلافة، وما قميص عثمان الذي يرفعه سوى خدعة ظاهرة، وكذبة سافرة، لم يستطع أن يخدع بهـــا غـــير أهل الشام، المائلين عن الدين، المسرعين إلى الدنيا، المنحرفين إلى الأهـــواء والمطامع والشهوات، المخلدين إلى الأرض، الذين طمس الشيطان مسامعهم وخطف أبصارهم، وأعمى قلوبهم وأضل أفئدتهم، فانقادوا لمعاوية خاضعين، واستجابوا له مسرعين، والتفّوا حوله آملين طامعين.

وأقبل المتحمسون والمستعجلون من أهل الكوفة على الإمام :

– يـــاأمير المؤمنين، قد أنذرت وأعذرت، وإن معاوية بن أبي سفيان في غدره وختله، وغيه وزيغه، لجدير أن تغزوه في عقر داره، وإن سيوفنا لمشرعة معك على عدوك وعدو المسلمين، فانهض بنا إليه فإنا نراه قد حاد عن الحق ولزم العناد، وخرج على جماعة المسلمين وإمامهم.

– نعـــم والله ياأهل الكوفة، عما قليل لأنهضنّ بكم مشرعي السيوف ضـــد الـــباطل، منشرحي الصدور لقتال أهل البغي، فخذوا أهبتكم وأعدوا عدتكـــم، واشـــحذوا ســـيوفكم ورمـــاحكم، ولتستعد لهذا الأمر قلوبكم وأفئدتكم.

سار معاوية بما يزيد على مائة ألف مقاتل من أهل الشام، كاملي العدة والعـــدد، مجهـــزين بكل مايحتاج إليه جيش قد وعده قائده بالنصر، ورغّبه بالغنائم، وأطمعه في الدنيا وزخارفها وبهارجها.

وتحـــرك جيش الخليفة من الكوفة، وقد أعد لمعاوية مااستطاع من القوة ورباط الخيل، بعد أن شحن القلوب بحب الشهادة، ورغّب الأفئدة بالآخرة ونعيمها، وجوار الله ورضوانه، حتى كان كل همّ أحدهم أن يذود عن أمير المؤمنين فيستشهد، ويلقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيشرب من كوثره شربة ماء لايظمأ بعدها أبداً.

في وادي صـــفّين الفسيح، قرب الرقة من بلاد الشام، وعلى ضفتي نهر الفرات حطّ جيش معاوية، واستولى على الماء وحال بينه وبين أهل العراق، وعلى مقربة منه نزل جيش أمير المؤمنين، وعاين أهل الكوفة الموقف، وعلموا أن معاوية قد خطط لحرمانهم من ماء الفرات، وأيقنوا أنه إما الموت عطشاً، أو إزاحة جيش معاوية عن الماء.

وكتـــب أمـــير المؤمـــنين علي عليه السلام إلى معاوية، يذكّره أن الماء للمســـلمين، ويعاتبه على احتجازه عنهم، ويأمره أن يترك الماء مباحاً لكافة المسلمين من الطرفين، وجاء جواب معاوية حاسماً قاطعاً:

- والله لاتذوقون منه قطرة حتى تموتوا عطشاً.

وأشار الخليفة إلى مالك بن الأشتر النخعي، فمال على جيش معاوية في كتيـــبة مـــن أهل الكوفة، فما هي إلاّ سويعات قليلة، حتى أزالوهم عن الماء واســـتعادوه مـــنهم، لكن عليّاً أصدر أمره إلى عسكره أن يخلوا بين عسكر

معاوية والماء، وكتب إلى معاوية: " أبحتم لأنفسكم جهلاً أن تمنعونا من الماء وحرّمتموه علينا بلا حجة منكم ولاجور منا، ونبيحه لكم على بغيكم، واستحقاقنا لتحريمه عليكم، فدونكموه، وارتدعوا عن الباطل، ولا تتمادوا في الضلالة والغي ".

بهذا السلوك وأمثاله، كان علي عليه السلام يضرب للناس أروع الأمثلة، ويكشف للناس جميعاً أنه صاحب رسالة يريد انتشارها، وطالب حق يرجو أن يجتمع الناس عليه، وأن معاوية ليس أكثر من باغ، يحارب من أجل الوصول إلى السلطة، واغتصابها من صاحبها الشرعي الذي بايعه المسلمون، كما كان يفعل من قبل أبوه ( أبو سفيان ) يوم كان يحارب رسول الإسلام ومنهج القرآن.

وتابع عليٌّ مساعيه للسلام دون جدوى، فالرين قد طمس بصيرة معاوية، والطمع بالإمرة والملك قد سيطر على عقله وقلبه، ورغم كل محاولات الخليفة تلك، فقد انفجرت أخيراً معركة صفّين، واندلع القتال عنيفاً بين الجانبين، واستمر شهوراً طوالاًحتى جاء اليوم الحاسم، وأشرق صباح الأول من ذي الحجة سنة ٣٦ للهجرة على جيش معاوية، وإذا بعلي وأصحابه إلىجانبهم قد خالطوهم، وأوشك جيش العراق أن يحتل مضارب عسكر الشام، وأن يقبض على معاوية حيّاً، فسارع يمتطي فرسه لينجو عليه ويفر من أرض المعركة، لولا أن أتاه عمرو بن العاص مع آت من أهل العراق فناشداه التريث والصبر.

- وكيف أصبر على ماترى يا عمرو، وقد أوشك عاتقي أن يصبح

نهبة لسيوفهم ؟!.

- أمــا إن هذا العراقي أخبرني أنه قد ترك أصحابه في أهل العراق على مثل لــيلة الصدر من مِنَى تأهباً للانقلاب على علي، وأرى أن ترفع المصاحف على رؤوس الرماح طالباً تحكيمها، وأرى أنك ما أن تفعل ذلك حتى يدب الخلاف والاضطراب، وترى بعده مايشرح صدرك ويفرح قلبك.

وهــز العراقي رأسه علامة الموافقة والتأييد لرأي ابن العاص، فاطمأن معاوية قليلاً وأمر بالمصاحف فرفعت على الرماح، ونادى منادي معاوية :

- يــاأهل العــراق ماتنقمون منا؟ هذا كتاب الله بيننا وبينكم، هلموا إلى كتاب الله .. هلموا إلى كتاب الله.

وصاح أهل الشام صيحة واحدة:

- أوقفوا الحرب، أوقفوا الحرب قبل أن تأكل العرب.

وتجاوبــت مــع أصــوات أهل الشام أصوات الخونة المنبثين في جيش الإمــام، المــتآمرين مع معاوية الذي دفع لهم الأموال، وأغراهم بالمناصب والمنافع، وادّخرهم لمثل هذا اليوم.

ارتفعت أصوات هؤلاء تعلن وجوب الاستجابة لنداء السلام، بالموافقة على الهدنة ووقف القتال، والرجوع إلى حكم الكتاب، وكأن هؤلاء الخونة كانوا مع رفع المصاحف من قبل جيش معاوية على ميعاد، وكان الأشعث بــن قــيس وشبث بن ربعي من أشد هؤلاء المتحمسين للتحكيم ووقف القتال.

لكــن أمير المؤمنين عليه السلام طلب من الجيش أن يتابع القتال حتى

النصر التام، وأن لاينخدعوا بألاعيب معاوية وحيله، ونادى في أهل الكوفة الذين أحاطوا به مشرعي السيوف:

ـ والله مامعاويــة والذيــن معــه من أهل الشام أصحاب قرآن ولا دين، ولكــنهم أرادوهــا مكــيدة وخدعة، بلغهم مافعلت قبل حرب الجمل في البصرة من رفع المصاحف صادقاً أطلب تحكيمه فيما بيننا، فرفضوه يومذاك ورفعــوه اليوم، ففعلوا مافعلت ولم يريدوا ماأردت، فلا تنظروا إلى فعلهم المخالف لنياتهم، وامضوا على يقينكم ونياتكم.

وكــان هــذا البيان من أمير المؤمنين، كافياً لمن كان له قلب أو ألقى الســمع وهــو شــهيد، وكان حريّاً بأهل الكوفة أن يطيعوا إمامهم، وأن يستجيبوا لأمر خليفتهم في متابعة الحرب، لولا أن صاح الأشعث بن قيس:

- والله لتجيبنهم إلى مادعوك إليه أو لندفعنك إليهم يرون فيك رأيهم.

لم يعبــأ أمير المؤمنين بكلام الأشعث رغم أنه يعني بالنسبة إليه الكثير الكــثير، ووقــف في الناس يحذرهم ويوضح لهم، ويطلب منهم الاستمرار بالقتال، وعدم الانصياع للخديعة والمكر:

- أيها الناس، أنا أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وابن العاص وابــن أبي معيط، وابن أبي السرح وابن مسلمة، ليسوا بأصحاب دين ولا قــرآن، وأنا أعرف بهم منكم، صحبتهم صغاراً ورجالاً، فكانوا شرّ صغار وشــرّ رجــال، ويحكم ياأهل الكوفة، إنها والله المكيدة والخديعة، أعيروني ســواعدكم ساعة، فلقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلاّ أن يُقطَع دابر الذين ظلموا، ويفرح المؤمنون بنصر الله.

فما هو إلاّ أن أنهى الإمام كلامه، حتى أحاط به نحو من عشرين ألف مقاتل مقنّعين بالحديد وهم يصيحون:

- أجب القوم وإلاّ قتلناك، ووالله لنفعلنّها إن لم تجبهم إلى مايريدون من تحكيم الكتاب.

صعّد أمير المؤمنين عليه السلام نظره في القوم يستطلع الوجوه، فراعه أن كثيراً من قواد جيشه بينهم، وأدرك أن الكثرة الغالبة من جيشه قد انطلت عليهم الحيلة أو سئموا القتال، وانضموا لأولئك الخونة المتآمرين، الذين اشتراهم معاوية بالأموال الطائلة من بيت مال المسلمين، وأغرى زعماءهم بالمناصب، فقادوا تلك المؤامرة الخبيثة، وأحدثوا ذلك الانقلاب المريع في أهل الكوفة المخدوعين، فلم يبق مع الخليفة من الذين يطيعونه وينقادون لأمره سوى القليل، الذين هم بنو هاشم وخُلّصٌ من الأصحاب من أهل الكوفة وسواها، ووجد نفسه بين خيارين لاثالث لهما:

- فإما المضي في القتال بأقل من ربع جيشه، ومعنى ذلك أن أكثر من ثلثي الجيش سينقلبون عليه ويقاتلونه مع جيش معاوية، وستكون الغاية التي هدف لها معاوية وابن العاص من رفع المصاحف قد تحققت، وتهيأت الأرضية لانقسام جيش علي، ودخول الخلاف والوهن إليه، وليس ببعيد أن تنتهي معركة كهذه بالقضاء على عليٍّ ومن معه من أهل بيته والصفوة المختارة من أصحابه.

- وإما القبول بالتحكيم وانتظارمايؤول إليه الأمر بعده، وهو على كل حال أقل الشرّين خطراً وضرراً، وهذا -ربما- هو الخيار الذي لم يكن

حـــال أقـــل الشرّين خطراً وضرراً، وهذا –ربما– هو الخيار الذي لم يكن يتمنى معاوية ومن معه أن يقبل به عليّ، ليقينهم أنه لو تم الحكم بكتاب الله حقاً، لكان الحكم عليهم لا لهم، لكنهم يكونون على كل حال قد أوقفوا القـــتال الذي أوشك أن يقضي عليهم وعلى أحلامهم وآمالهم لو استمر، ومهما كانت نتيجة التحكيم فإنهم سيكونون في وضع أفضل بعده.

أعاد أمير المؤمنين النظر إلى الوجوه المحيطة به وهو يقول:

-تـــباً لكـــم مـــن أتباع!!.. أفسدتم أمر خليفتكم، وأوزرتم أنفسكم، وأسقطتم ثواب جهادكم، وأحدثتم فتقاً لارتق له أبداً.

توقف القتال بين الفريقين، ووقف عليٌّ بين الصفّين، ونادى:

– يامعاوية .. ألم أحذركم الحرب وأدعوكم إلى السلم والاحتكام إلى العقـــل والشرع؟!.. ولم أترك حيلة ولا وسيلة إلاّ قدمتها لكم ودعوتكم إليها، فلم تستجيبوا لي إذ دعوتكم، آلآن وقد أكلتكم الحرب وقطعت كل أمـــل لكـــم بالانتصار، وأيقنتم بالهزيمة والانكسار، رفعتم المصاحف على رؤوس الـــرماح، ودعوتم لتحكيم كتاب الله ؟!، ماأنتم وكتاب الله، حكم أيّة آيةٍ منه ترومون ؟.

* * *

انتهـــت معـــركة صفّين – في الثالث عشر من شهر صفر سنة سبع وثلاثـــين للهجرة – إلى التحكيم الذي طلبه معاوية، بعد أن تحققت هزيمته وأوشـــك هـــو وجيشـــه على الفرار من تلك المعركة الطاحنة، التي كان حصـــادها قد أربى على سبعين ألفاً من الطرفين، منهم خمسٌ وعشرون ألفاً

مـــن أصحاب عليّ، فيهم خيار أصحابه وأحبته، كعمار ابن ياسر وهاشم المـــرقال وغيرهما، وبدأ خيط القيادة الحكيمة والحازمة يفلت من يدي أمير المؤمنين، بسبب انصداع مبدأ الطاعة للقائد بعد تلك المؤامرة الخبيثة.

لقد أحكم الخونة مؤامرتهم الدنيئة مع معاوية، وتابعوا دقّ إسفينهم في جيش عليّ حين رفضوا جميع من رشحهم أمير المؤمنين للتحكيم، وفرضوا عليه أبا موسى الأشعري الذي سبق وأن خذّل أهل الكوفة عن نصرته يوم الجمـــل، وكـــان مـــنحرفاً عنه خارجاً عن طاعته، ولم يشترك معه في أي معـــركة من معاركه، وإلى هذا كله، فهو لم يكن كفؤاً لعمرو بن العاص مـــندوب معاويـــة، ومرة ثانية اضطر أمير المؤمنين للنزول عن رأيه لأولئك الخونـــة الذين كانوا يشكلون أغلبية جيشه، وتكررت بعد ذلك التنازلات الإجبارية تحت تهديد الأكثرية وتلويحها بالسلاح بين الحين والحين.

هكـــذا .. ونتـــيجة عصيان الأمة لقائدها الحكيم، وفرضها المواقف والآراء علـــيه، جـــاء التحكيم مثلجاً لصدور الخونة المتآمرين مع معاوية، ومخيباً لآمال المخدوعين بهم من جيش عليّ، وحصلت هزة عنيفة في جيش الكوفـــة، كانت نتائجها – كما قدر الإمام – لصالح إعادة التماسك إلى جيشـــه، فأمـــا الخونة والمتآمرون فانكشفت خيانتهم، ووضح الدور الذي قـــاموا به، فانفصلوا عن جيش علي وانحازوا إلى معاوية، وأما المخدوعون بهم فقد انكشف الغطاء عن بصائرهم، وعرفوا خطأهم وما جرّه موقفهم، فعادوا إلى القيادة يلتحمون معها من جديد، ويؤازرونها في معركتها الطويلة القاسية، وخرجت من بين هؤلاء وأولئك فرقة قالوا لأمير المؤمنين:

- قـــد كفرنا حين ألجأناك إلى التحكيم وأجبرناك عليه، وقد كفرتَ حـــين نزلت عند رأينا وقبلت به، وقد تبنا إلى الله من ذلك، فإن شهدت عـــلى نفسك بالكفر كما شهدنا وتبت إلى الله كما تبنا، فنحن معك وإلاّ اعتزلناك.

- أيتها العصابة المخدوعة عن دينها، إني نذير إليكم أن تصبحوا لعنة هذه الأمة غداً وأنتم صرعى في مكانكم هذا بغير برهان ولاسنة، ألم تعلموا بأني نهيتكم عن الحكومة، وكشفت لكم مكيدة القوم، وأنبأتكم أنهم ليسوا بأصـــحاب ديـــن ولا قرآن، وإنما هم أهل المكر والغدر، وأني أعرف بهم منكم، فعصيتموني وأكرهتموني، حتى وافقت على التحكيم بعد أن شرطت واســتوثقت، وأخــذت على الحكمين أن يحييا ماأحياه القرآن، وأن يميتا ماأماته، ولما خالفا حكم الكتاب والسنة وعملا بالهوى، نبذنا أمرهما وبقينا على الأمر الأول، وها أنا عائد إلى حرب معاوية وأتباعه.

- لابد أن تقر بالكفر وتتوب منه، وإلاّ نابذناك على سواء.

وراحوا يتصايحون حوله من كل جانب ويرددون:

- لاحكم إلاّ لله ، ولاطاعة لمن عصى الله.

تحـــرك هـــؤلاء المخدوعون بأنفسهم مبتعدين عن الإمام، وخرجوا من الكوفـــة إلى النهروان وهم يربون عن الأربعة آلاف، ثم التحق بهم وانضم إلـــيهم مـــن كان على شاكلتهم، من أهل الكوفة والبصرة وغيرهما حتى صـــاروا اثني عشر ألفاً، إلاّ أن الإمام مازال يحاورهم ويعظهم ويمهلهم حتى تفـــرق معظمهم، و لم يبق سوى أربعة آلاف فقط، فيهم حرقوص بن زهير

(ذو الثدية )(١)، وعبد الله بن وهب الراسي، ومالك بن الوضاح، وزرعة والأخنس ابنا العزيز الطائيان، وقد خاطب الإمام هؤلاء ووعظهم فلم يرتدعوا، وصاح مناديهم:

- دعوا مخاطبة عليٍّ وأصحابه، وبادروا إلى الجنة.

وهكذا أشرع القوم سيوفهم ورماحهم وسهامهم وهم ينادون:

- الرواح إلى الجنة .. الرواح إلى الجنة.

- بل إلى النار بإذن الله، فقد والله نصحتكم وقدمت لكم إعذاراً إلى الله، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة.

وماهي إلاّ ساعة حتى قتلوا بأجمعهم، لم ينج منهم إلاّ تسعة أنفار تفرقوا في البلاد، فاستقر اثنان منهم في شمال العراق نواحي تكريت، وتسلل

---

(١) جاء في الصحاح المتفق عليها – على حد تعبير ابن أبي الحديد في المجلد الأول من شرح نهج البلاغة – أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لما شرع في تقسيم الغنائم بعد معركة حنين، قام إليه رجل من بني تميم يدعى " ذا الخويعة " فقال له : "اعدل يامحمد"، فقال صلى الله عليه وآله وسلم " ويحك ، ومن يعدل إن لم أعدل ؟ "، فلما مضى قال النبي : " سيخرج من ضئضئ هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، يخرجون على حين فرقة من الناس ، تحقرون صلاتكم في جنب صلاتهم ، يقرأون القرآن فلا يتجاوز تراقيهم ، آيتهم رجل أسود مخدج اليدين ، إحدى يديه كأنها ثدي امرأة ، يقتله خير أمتي من بعدي ".

( وجاء في مسند الإمام أحمد عن مسروق أنه قال: قالت لي عائشة : إنك من ولدي ، ومن أحبهم إليّ ، فهل عندك علم بالمخدج ؟ فقلت نعم ، قتله عليّ بن أبي طالب على نهر يقال له النهروان ، قالت : ابغني على ذلك بينة ، فأتيتها برجال عندهم علم بذلك ، ثم قلت لها : أسألك بصاحب القبر ، ماالذي سمعت من رسول الله فيه ؟ قالت: سمعته يقول: إنه شرُّ الخلق والخليقة، يقتله خير الخلق وأقربهم عند الله وسيلة ).

آخـــران إلى سجســـتان من أرض خراسان، وبها نسلهما، وصار اثنان إلى اليمن وفيها نسلهما، وقتل من أصحاب الإمام تسعة فقط، بعدد من نجا من الخوارج.

* * *

## اغتيال الإمام علي

عـــاد أمير المؤمنين عليه السلام إلى الكوفة يداوي الجراح، ويعالج الفتن والمؤامــرات، ويواجه المتمردين، ويعد العدة لمتابعة الحرب على معاوية بعد أن قضى على الخوارج ووأد فتنتهم.

وتابعت السيدة زينب دروسها المنتظمة التي كانت بدأها في بيتها الذي اســتقرت فيه مع زوجها عبد الله بن جعفر بجوار أبيها وإخوتها في الكوفة، تفسر القرآن الكريم للنساء، وتروي لهنّ حديث جدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتقصّ عليهنّ أخبار المسلمين منذ وفاة جدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتصدي أبي بكر وعمر لخلافة المسلمين، وحتى الســاعة التي هنّ فيها، بأسلوب رشيق وكلام بليغ، ولسان فصيح وذاكرة حافظة واعية، وقلب تقي وفؤاد صافٍ نقي، تروي لهنّ تفاصيل ماجرى من تاريخ الإسلام والمسلمين، في عصر هي شاهِدَتُه، وهي الشهيدة عليه، وهي وأهــل بيــتها محور أحداثه وبيت القصيد فيه، تحكي والزفرات تتتابع من صــدرها والدمــوع تسيل من مآقيها، وكلما وصلت إلى ذروة حدث من الأحــداث، تهــدّج صوتها واكتست عبراتها ثوب حزن عميق وأسىً بالغ،

فـــتجهش النسوة معها بالبكاء، ولايملكن إلاّ أن تسيل عبراهنّ، وأن تكثر آهـــاهنّ، فـــإذا حلّ المساء، جلست إلى زوجها عبد الله وأخويها الحسن والحسين عليهما السلام، تذاكرهم بما ألقت على النسوة من علم وموعظة، ومـــا توجَّهن به إليها من الأسئلة، وما ألهمها الله تعالى وانطلق لساها به من الأجوبـــة، وتســـتظهر مـــنهم أحـــداث ذلك اليوم ومجريات الأمور فيه، وتستوضـــحهم عن توجهات أبيها أمير المؤمنين، ومواقف أهل الكوفة من كل ذلك.

وعلمت السيدة زينب أن أباها أمير المؤمنين، استطاع أخيراً أن يحشد أهـــل الكوفة، وأن يحفزهم لقتال معاوية من جديد، فتداعوا إلى الجهاد مع الإمـــام، وتعـــاقدوا معه علىالموت، حتى أصبحت الحرب حديث الناس، وأرسل الإمام إلى عماله في مختلف المناطق، يدعوهم للاشتراك معه في حرب معاوية بمن عندهم من الجيوش والمقاتلين، وخرج هم جميعاً إلى معسكراته في النخيلة، ينتظرون انسلاخ شهر رمضان من سنة أربعين للهجرة النبوية، على صاحبها وآله الصلاة والسلام.

أدرك معاويـــة أنهـــا ستكون المعركة الفاصلة التي ستنهي أطماعه، وتئد أحلامـــه إلى الأبـــد، فقـــد أيقن أن لم يبق له سوى الفشل والهزيمة في أي مواجهـــة علنية عسكرية مع الإمام، إذ لم يعد أمامه أي مجال للعبة جديدة، ولم يكن أهل الكوفة لتنطلي عليهم حيلة أخرى، ولايلدغ المؤمن من جحر مرتين، فلجأ هذه المرة إلى مؤامرة سرية راح يحيك خيوطها ويدير خطواهما مـــن وراء الكواليس، مؤامرة هدفها هذه المرة رأس الإمام، وأطرافها معاوية

وعمــرو بــن العاص، والأشعث بن قيس وشبث بن ربعي، ومنفذها عبد الرحمن بن ملجم المرادي، وأغلب الظن أن ابن ملجم تحرك في هذه المؤامرة الدنيــئة، غــير عــالمٍ بمن خطط لها وحبك خيوطها ورسم خطواتها، ولا عارفٍ بالمستفيد الأكبر منها.

تقــول السيدة زينب: "في شهر رمضان من سنة أربعين للهجرة، كان الإمام يفطر يوماً عند أخي الحسن، ويوماً عند أخي الحسين، ويوماً عندي ويومــاً عند أختي أم كلثوم، وفي اليوم الثامن عشر، كان الإمام في دار ابنته أم كلــثوم، فأفطــر ثم حمد الله وأثنى عليه وقام إلى الصلاة، فلم يزل قائماً وقــاعداً، وراكعــاً وساجداً، يبتهل إلى الله تعالى ويتضرع إليه ويتذلل بين يديــه، ثم يخرج فينظر إلى السماء ويقول: إنها هي والله، إنها هي والله الليلة التي وعدنيها حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم رقــد الإمام هنيهة انتبه بعدها مرعوباً، فجعل يمسح وجهه بثوبه، ثم نهــض قائماً على قدميه وهو يقول: اللهم بارك لنا في لقائك، اللهم لاحول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

أثارت حركات الإمام وأقواله الريبة والخوف في نفس ابنته أم كلثوم، فاندفعت إليه تسأله في لهفة وقلق عن سبب ذلك كله، فأخبرها عليه السلام أنــه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يمسح الغبار عن وجهه ويقول: ياعلي لاعليك، قضيت ماعليك.

ارتعبــت أم كلــثوم مــن رؤيــا أبيها، وهي تعلم أن رؤيا الأنبياء والأوصياء حق لامراء فيه، وأرقت مع أبيها تلك الليلة، فلم يغمض لها جفن

و لم تنم لها عين.

صـــلى الإمام حتى ذهب بعض الليل، ثم نامت عيناه وهو جالس، ثم مالبث أن انتبه من نومه، فأرسل إلى أولاده الذين هرعوا إليه، فلما جلسوا بين يديه بادرهم يقول:

- إني رأيت رؤيا هالتني، وأريد أن أقصها عليكم.

- وماهي ياأمير المؤمنين ؟.

- رأيـــت جدكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول لي: ياأبـــا الحســـن، عمـــا قريب يجيء إليك أشقاها فيخضب شيبتك من دم رأسك، وإنك قادم إلينا في العشر الأواخر، وإنا والله مشتاقون إليك، فهلمّ إلينا فما عندنا خير لك وأبقى .

فـــلما سمـــع أولاده كلامه ضجوا بالبكاء والنحيب، وارتفع عويلهم، لأنهم يعلمون أن رؤيا الأوصياء حق كرؤيا الأنبياء.

أقسم عليهم أبوهم بالسكوت فسكتوا، ثم أقبل عليهم يوصيهم بالصبر، ويأمـــرهم بـــالخير ويـــنهاهم عن الشر، ثم عاد إلى صلاته وقيامه وقعوده، وركوعـــه وسجوده وهو يخرج ساعة بعد ساعة، يقلّب طرْفه في السماء، ويتنســـم الهواء، وينظر في الكواكب وهو يقول(١): "والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ، وإنها الليلة التي وعدت بها"، ثم يعود إلى مُصَلاّه وهو يقول: " اللهم

---

(١) لاينبغي أن يفهم من هذه العبارة أن الإمام يؤمن بالنجوم والمنجمين ، لأنه إنما كان ينظر إلى هيئة مخصوصة من النجوم كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبره أنه يقتل عندما تتشكل النجوم على تلك الهيئة ،

بـــارك لـــنا في الموت، اللهم بارك لنا في لقائك ولقاء الأحبة"، ويكثر من قول: "لاحول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم صلِّ على محمد وآل محمد"، ويكثر من التسبيح والاستغفار، حتّى قالت له أم كلثوم:

– يا أبت ما لك تنعي نفسك منذ الليلة ؟!.

قال عليه السلام:

– بنيّة، قد قرب الأجل وانقطع الأمل.

ثم إنه نعس فقال لابنته:

– يا بنية إذا قرب الأذان فأعلميني.

استسلم الإمام للنوم، وجعلت أم كلثوم ترقب الأذان، فلمّا لاح وقته أتـــت أباهـــا فأيقظته ومعها إناء فيه ماء، تناوله الإمام منها فتوضأ وأسبغ الوضـــوء، ثم لبس ثيابه ونزل إلى الدار، وكانت فيها أوزات فرفرفن تجاهه، وصِحْنَ في وجهه، فقال عليه السلام:

– لاإله إلاّ الله، صوائحُ بعدهنّ نوائح، وفي غداة غدٍ يظهر القضاء.

فـــلما وصل إلى الباب وعالجه ليفتحه، تعلق به مئزره فانحل عن بعض جسده الشريف جزء منه، فشدّه إليه وهو يقول:

– اللهم بارك لنا في الموت، اللهم بارك لنا في لقائك.

خرج الإمام من بيته، حتى إذا دخل مسجد الكوفة، صلى فيه ركعتين خفيفتين، ثم صعد المئذنة فأذّن لصلاة الفجر كعادته، فلم يبق في الكوفة بيت إلاّ اخترقه صوت الإمام وهو ينادي : " حيّ على خير العمل .. حيّ على

خير العمل ".

نـــزل الإمام عن المئذنة، وفي طريقه إلى المحراب، راح يتفقد النائمين في المســـجد ويقـــول لهم: الصلاة .. الصلاة، حتى مرّ على رجل منكبٌ على وجهه يتظاهر بالنوم وقد أخفى سيفه تحت إزاره، فقال له الإمام:

- قم ياهذا من نومتك هذه، فإنها نومة يمقتها الله، وهي نومة الشيطان ونومـــة أهـــل النار، وإذا نمت فنم على يمينك، فإنها نومة العلماء، أو على يسارك، فإنها نومة الحكماء، أو على ظهرك، فإنها نومة الأنبياء.

تمـــلمل ابن ملجم في مكانه دون أن يغير من هيئة نومه، وتحرك الحقد الدفـــين في قلـــبه، فحدّثته نفسه أن يغير من خطته فيبطش بالإمام في تلك اللحظة، لولا أن الإمام عليه السلام عاجله بقوله:

- ياابن ملجم، لقد هممتَ بشيء تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشقّ الأرض وتخـــر الجبال هدّاً، ولو شئتُ لأنبأتك بما تحت إزارك هذا، وأشار بيده الشريفة إلى موضع السيف الذي يخفيه ابن ملجم تحت إزاره، ثم تركه ومضى إلى المحراب مكبّراً لصلاة سنة الصبح.

وفـــيما أمير المؤمنين ساجد في محراب المسجد، انقضّ عليه المجرم اللعين عبد الرحمن بن ملجم المرادي بسيفه المسموم، فضربه على رأسه وهو يرفع من السجود ضربة خرّ منها الإمام إلى الأرض وهو يقول:

- فـــزت ورب الكعـــبة، قتلني أشقاها، قتلني ابن ملجم، أيها الناس: لايفوتنكم ابن ملجم.

ظـــلّ الإمـــام يكابد ألم الضربة ثلاثة أيام بلياليها وقد سرى السم في

جميع بدنه، وبلغ به الألم مبلغه حتى كان يرفع فخذاً ويضع أخرى من شدة السم وكثرته، ومع ذلك لانسمع منه – كما تقول ابنته السيدة زينب – تأوهاً ولا توجعاً ولا أنيناً، وكلما رأى أحدنا يبكي يكفه عن البكاء قائلاً:

– لاجزع على أبيكم بعد اليوم، هذا جدكم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وهذه جدتكم خديجة الكبرى عليها السلام، وأمكم فاطمة الزهراء عليها السلام، ينتظرون قدوم أبيكم، فطيبوا نفساً وقِرّوا عيناً.

تتابع السيدة زينب: أغمي على الإمام، فارتجت الكوفة من أقصاها إلى أقصاها بالبكاء والنحيب، وساور أهلها قلق عظيم، وعلت وجوههم الكآبة والحزن .. لقد انتابهم الجزع والخوف من المستقبل المظلم، الذي طالما حذّرهم إياه أميرالمؤمنين وأنذرهم به، ذلك المستقبل الذي سيخلو من العدالة الاجتماعية، ويتّسِم بالظلم والاضطهاد، وإبعاد العلماء الأتقياء الزاهدين، وتقريب الفسّاق والجهّال، المنغمسين في الدنيا، الغافلين عن الآخرة، الذين يبيعون الدين بالدنيا، ويقدمون مصالحهم الذاتية ومنافعهم الشخصية العاجلة على كل مصلحة ومنفعة سواها .. أفاق الإمام من إغماءاته تلك، وقد عرق جبينه حتى صار كاللؤلؤ الأبيض، فجعل يمسح العرق بيده، تقول السيدة زينب: فقمت إليه أسأله :

– أراك تمسح جبينك ياأبه !!.

– يابنية .. سمعت جدك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

[إن المؤمن إذا نزل به الموت ودنت وفاته، عرق جبينه وسكن أنينه].

– ياأبه، إن أم أيمن قد حدثتني بحديث كربلاء وأحب أن أسمعه منك.

- يابنية، الحديث كما حدثتك أم أيمن، لكأني بك وبنساء أهلك سبايا بهذا البلد، خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس، فصبراً صبراً.

ثم التفت عليه السلام إلى ولديه الحسن والحسين، فقال لهما:

- وكـأني بكما وقد خرجت عليكما الفتن من هاهنا وهاهنا، فاصبرا حـتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، ياأبا عبد الله، أنت شهيد هذه الأمة، فعليك بتقوى الله والصبر على بلائه.

ثم أدار عينيه في أهل بيته واحداً واحداً، وقال:

- أسـتودعكم الله جميعاً .. سددكم الله جميعاً .. خليفتي عليكم الله وكفى بالله خليفة.

في ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان المبارك لعام أربعين للهجرة، قضـى الإمـام عـلي عليه السلام نحبه، وأسلم روحه الطاهرة إلى باريها، فخمدت حركته وسكن جسده، وفارق أهل الدنيا ..

قضى عليٌّ شهيد الحق والعدالة، مدافعاً عن دين الله تعالى، وذائداً عن حقوق المسلمين، تاركاً وراءه أروع الأمثلة في البطولة والتضحية، والحكمة والـزهد والتسـامح، وصـدق القـول والعمل، مستخفاً بالدنيا ومتاعها وزخـرفها، مخلّفـاً بعده أفضل إمامين على ظهر الأرض، وهما ابناه الحسن والحسـين، اللذان قال فيهما جدهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (سبطاي هذان إمامان قاما أو قعدا، وهما ريحانتاي من الدنيا وسيدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما).

قضـى الإمـام عليه السلام نحبه، وخرج من الدنيا من بيت الله، كما

دخلها – حين الولادة – من بيت الله، وترك الإمامين الجليلين الحسن والحسين عليهما السلام، والصدّيقة الصغرى السيدة زينب (عقيلة بني هاشم، وحوراء الطف) وأختها أم كلثوم، وباقي الذرية الطيبة والكوثر العذب المستدفق، يمزقهم الألم وتنتهبهم الحسرة، ويقسو عليهم الزمن، في سلسلة من المآسي والرزايالم تعرف البشرية أشدّ منها هولاً، ولاأعظم إيلاماً، يتجرعون خلالها الغصص ألواناً، ويواجهون المصائب والفواجع أنواعاً، فيلقون صنوف القتل والسبي والسجن والنفي والتشريد، من أمة كان جديراً بها – لو استجابت لأمر الله ورسوله في مودّتهم والانقياد لطاعتهم – أن تجعلهم قادتهاوسادتها، وأمراءها وأئمتها، فيجنبونها الفتن، ويخوضون بها بحارها بسفن النجاة، ويوصلونها إلى شاطئ الأمان وبر السعادة، والنعيم الدائم في الدنيا والآخرة.

* * *

## المصائب تتجدد على السيدة زينب

بوفاة الإمام علي عليه السلام تجددت مصائب ابنته الكبرى السيدة زينب، ومصائب أهل البيت عليهم السلام، ونظرت زينب فإذا هي قد فقدت الجدّ والأب والأم، وأصبحت وأهل بيتها بين:

– خصم فاجر ظالم لايرحم، كل مبتغاه من الدنيا الوصول إلى السلطة أياً كانت السبل والوسائل، والتشفي من أهل البيت الذين يحولون بينه وبينها، والسعي إلى محو ذكرهم وطمس فضائلهم ..

– وأمة أغلبيتها وكثرتها الكاثرة لاتعقل ولاتدرك غير المصالح الدنيوية

العاجلة ، والمنافع المادية الدنيّة.

– أما أنصار الحق وأصحاب الدين فيها فقد صاروا غيضاً من فيض، فهم قليل مستضعف بين كثير متحكّم متجبر، يجري كالسيل الهادر ولايدري إلى أين المصير.

بدأت زينب تقلّب في نفسها الأمور، وتتلمس منعرجات الطريق الوعر، وتستشرف مايكمن في ظلمات وزوايا المستقبل الآتي كالفرس السريع، وراحت تسائل فكرها وعقلها:

– ترى .. أتزيد هذه الفاجعة في تفكك أهل الكوفة، وتشتت أمرهم وتخاذلهم عن نصرة الحق، وانهزامهم أمام الباطل؟! أم أن فقد الإمام والخوف من المستقبل المظلم، سيلمّ شعثهم ويرصّ صفوفهم، ويوحّد رايتهم وقلوبهم خلف الإمام الجديد، الذي خلّفه أبوها فيهم، وأقامه إماماً عليهم حين أوصى عليه السلام لابنه الحسن، وأشهد على وصيته هذه الإمام الحسين، ومحمد بن الحنفية، وجميع أولاده ورؤساء أهل بيته وشيعته، ثم دفع إليه الكتب والسلاح قائلاً:

– يابني: أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أوصي إليك، وأن أدفع لك كتبي وسلاحي كما أوصى إليّ ودفع لي كتبه وسلاحه، وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين.

ثم أقبل الإمام عليه السلام على ابنه الحسين فقال:

– وأمرك جدك أن تدفعه إلى ابنك علي بن الحسين.

ثم أقبل على حفيده علي بن الحسين – وكان صغيراً ساعتئذ– فقال له:

– وأمرك رسول الله أن تدفع وصيتك إلى ابنك محمد بن علي، فاقرأه من رسول الله ومني السلام.

ثم عاد إلى الإمام الحسن فقال له:

– يابني: أنت ولي الأمر بعدي، وأنت ولي الدم، فإن عفوت فلك، وإن قتلت فضربة بضربة، ولاتأثم.

* * *

## *البيعة للإمام الحسن*

كـــان صـــباح الحادي والعشرين من شهر رمضان المبارك حزيناً أبلغ مايكون الحزن، كئيباً أشدّ ماتكون الكآبة، فلم يسمع المسلمون في الكوفة – فجرذلك اليوم – ذلك الصوت المدوي ينادي: الله أكبر.. الله أكبر، و لم تتلقف آذانهم دعوته المباركة في تلك الساعة المبكرة وهو يهتف بهم: حيّ عـــلى الصـــلاة .. حيّ على الفلاح .. حيّ على خير العمل، و لم تكتحل عيونهم بذلك الوجه الملائكي الجميل، وجه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

إنهـــا الوحشـــة بـــأفظع معانيها وأقسى آثارها على نفوس جميع أهل الكوفة، فكيف بنفوس أهل البيت عليهم السلام ؟!.

وفيما كانت تعتصرهم هذه المشاعر الفياضة المؤلمة، التي كانت تعصف بأفـــئدة وقلوب أولئك المسلمين، فتكاد تقضي على مابقي فيها من طاقات الصـــبر والتجمل والتحمل والجلد، يطل عليهم ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسيد شباب أهل الجنة الإمام الحسن بن علي، بكل وقار

أبـــيه وهيبـــته، فيتوجه عليه السلام نحو محراب أبيه ليملأ الفراغ ويسد الثلمة، وإذا بالوجوه تشرق بالأمل الذي يدبّ في النفوس دبيب الشفاء في جسم المريض (١) .

دخـــل الإمام الحسن المسجد وعليه ثوب أسود، وعلى ملامحه هيبة أبيه ووقاره ونوره، وعلى عاتقه سيفه ذوالفقار، وعلى رأسه عمامته السوداء ، وهـــي عمامة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فصلى بالمسلمين صلاة الصـــبح، ثم اعتـــلى المنبر وحوله من بقي من وجوه المهاجرين والأنصار، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

- أيها الناس، لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون، ولا يدركه الآخـــرون، ولقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله سلم فيقيه بنفسه، وكان رسول الله يوجهه برايته، فيحفّه جبرائيل عن يمينه وميكائيل عـــن شماله، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه، ولقد توفي في الليلة التي نزل فيها القـــرآن، وعـــرج فيها بعيسى بن مريم، وقبض فيها يوشع بن نون وصي موسى، وماخلّف صفراء ولا بيضاء(٢) ..

ثم خنقـــته العبرة فبكى وبكى الناس معه حتى دوّى البكاء والنشيج في أرجـــاء المسجد وجنباته، وحتى ارتفعت الأصوات بالبكاء من جميع نواحي الكوفـــة وأركانها، فلما أن هدأت عبرته، وتوقفت دمعته عليه السلام، عاد إلى ماكان فيه من الحديث فقال:

---

(١) الإمام الحسن بن علي للشيخ محمد حسن آل ياسين ص ٧١ - ٧٢ .

(٢)تاريخ اليعقوبي ٢/١٩٠ - تاريخ الطبري ٥/ ١٥٧ - مقاتل الطالبيين ص ٥١-٥٢.

– أيهـــا الناس .. من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن عـــلي، وأنا ابن النبي والوصي، وأنا ابن البشير النذير، وأنا ابن الداعي إلى الله بإذنه وابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين كان جبريل يترل إلينا ويصـــعد مـــن عندنا، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهـــرهم تطهـــيراً، وافترض مودّهم على كل مسلم، فقال تعالى في كتابه المجـــيد: ﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى، وَمَنْ يَقْـــتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ(٢٣)﴾، فاقتراف الحسنة هي مودّتنا أهل البيت.

ثم جلـــس الإمـــام الحسن عليه السلام على المنبر، فساد الناسَ سكون عجيـــب، وبدا على الناس ترقُّبٌ ممزوج بالقلق، وشق السكون صوت عبد الله بن عباس (١) وقد قام تحت المنبر فقال:

– معاشر الناس، هذا ابن بنت نبيكم ووصيٌّ إمامكم، فبايعوه.

فمـــاهي إلاّ أن نطـــق ابن عباس بهذه الكلمات، حتى هرع الناس إلى الإمام الحسن يبايعونه، ويعلنون الرضى بـــه والانقياد لأمره، وهم يقولون:

– ماأحبه إلينا، وماأوجب حقه علينا ، ومن أحق بالخلافة والبيعة منه؟ أليس هو ريحانة رسول الله وسبطه وسيد شباب أهل الجنة ؟.

وهكـــذا بايع أهل الكوفة الإمام الحسن، وبايعه أهل البصرة والمدائن، وجميع أهل العراق، ثم بايعه أهل الحجاز واليمن، وأهل فارس وسائر المناطق

---

(١) في رواية أنه عبيد الله بن عباس.

التي كانت تدين بالبيعة لأبيه (١) ، ولم يتخلف عن بيعته إلاّ معاوية ومن والاه من عبّاد الدنيا وأصحاب المصالح والمطامح.

تقول السيدة زينب:

– في ذلك الجو المشحون بالفتن والمؤامرات، قام الإمام الحسن بأمر المسلمين خير قيام، ومضى على نهج أبيه وسيرته، يميت البدع التي انتشرت، ويحيي السنن التي اندثرت، فأقرّ ولاة أبيه على أعمالهم، وأوصاهم بالعدل والإحسان، ومحاربة الجور والبغي والعدوان، ثم التفت إلى معاوية، فكتب إليه يزجره عن التمرد والعصيان، ويدعوه إلى جمع الكلمة ورأب الصدع، وتوحيد أمر المسلمين، وعدم التوثّب على سلطان الأمة، وترك الأمر لأهله الذين هم أولى به: (فدع التمادي في الباطل وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فإنك تعلم أني أحق بهذا الأمر منك عند الله، وعند كل أوّاب حفيظ، وعند كل من له قلب منيب، واتّق الله ودع البغي واحقن دماء المسلمين، وادخل في السلم والطاعة ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق به منك، ليطفئ الله الثائرة، ويجمع الكلمة، ويصلح ذات البين، وإن أنت أبيت إلاّ التمادي في غيك، سرت إليك بالمسلمين، فحاكمتك حتى يحكم الله، والله خير الحاكمين)(٢) .

كان معاوية رجلاً طامحاً للسلطة طامعاً بالملك، سادراً في الضلالة والغي، لايرى للحق صورةً، ولا يسمع له حسّاً ولا ركزاً، ولذلك فقد

---

(١) تاريخ الطبري ٥/١٤٠ و ١٦٢ – تاريخ الخميس ٢/ ٢٨٩ – الاستيعاب ١/٣٦٩.

(٢) مقاتل الطالبيين ص ٥٦ – ٥٧ ، شرح نهج البلاغة ١٦ / ٢٤ و٣٤ .

تجاهل دعوة الإمام الحسن عليه السلام وتغافل عنها، ومضى في دربه يثير الفـــتن، ويحيك المؤامرات، ويشتري النفوس الضعيفة، وراح يجدد اتصالاته بزعماء أهل الكوفة، ويستميلهم إليه بما يعجل لهم من الأموال القليلة، وما يـــبذل لهم من الوعود المؤجلة الجزيلة، حتى إذا اطمأنّ إلى خطته، واستيقن مـــن حبكة مؤامرته، كتب للإمام الحسن جواباً لرسالته، وكان الإمام واثقاً أن معاوية لن ينقاد للحق، ولن ينصاع لما هو صلاح للمسلمين، وأنه ماض في طلـــب الخلافة لنفسه، مصرٌّ على صرفها عن أهل البيت بأي ثمن، سلماً كان أو حرباً.

قـــرأ الإمام الحسن عليه السلام رسالة معاوية أمام أخيه الحسين وأخته زينـــب، واستمعوا إليه يقول في رسالته: (وقد فهمت الذي دعوتني إليه من الصـــلح .. فلـــو علمتُ أنك أضبط مني للرعية، وأحوط على هذه الأمة، وأحســـن سياســـةً وأقـــوى على جمع الأموال وأكيد للعدو، لأجبتك إلى مـــادعوتني إليه، ولو رأيتك لذلك أهلاً لسلّمت لك الأمر بعد أبيك، وقد علمـــتَ أني أطـــول منك ولايةً، وأقدم منك بهذه الأمة تجربةً، وأكبر منك ســـناً، فأنـــت أحق أن تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني، فادخل في طاعتي ولك الخلافة من بعدي، فأنت أولى الناس بها، واحذر أن تكون منيتك على أيدي رعاع الناس)(١).

لم يكـــن معاويـــة يجرؤ على مجرد التلميح إلى الخلافة في عهد الإمام

---

(١)مقاتل الطالبيين ص ٥٨، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ١٦/ ٣٦.

علي عليه السلام، وكان قصارى مايظهر، أنه يسعى للاقتصاص للخليفة عثمان من قاتليه، فكان يقاتل تحت هذا الشعار الظاهري، ويخفي مطامحه ومطامعه ولا يبديها، أما اليوم فقد أفصح بل أعلن، بل دعا الإمام الحسن إلى التنازل له عن الخلافة والدخول في طاعته.

وإنه لواضح جداً مافي السطرين الأخيرين من رسالة معاوية من ترغيب وترهيب، ترغيب .. لايثير الإمام الحسن، ولايفي به معاوية، وترهيب .. لايخيف الإمام الحسن الذي لايهاب الموت، ولايحرص على شيء من متاع الحياة الدنيا الذي يسعى إليه معاوية، ثم هو على يقين أن معاوية يخطط لاغتياله، كما خطط من قبل لاغتيال أبيه أمير المؤمنين عليه السلام.

جلست زينب تفكر في هذا الأسلوب المخادع الماكر الذي اتّبعه معاوية مع أخيها الحسن، فبينما هو يقلب الحقائق سفهاً، ويزيف الوقائع طيشاً وحمقاً، إذا هو يركب مطايا الترغيب والترهيب، وسفن المراوغة والمخاتلة أيضاً، والتفتت زينب إلى أخويها الحسن والحسين، وقد نشرا أمامهما كتاب معاوية، وتساءلت:

- وماذا أنتما فاعلان مع هذا الثعلب المراوغ ؟.

- إن ظنّ معاوية أننا سنلين أمام وعوده ومغرياته، أو نهاب من حشوده وتهديداته، فقد أخطأ الحساب وتجافى عن الصواب.

قال الإمام الحسن، وعقب الإمام الحسين بقوله:

- والله ياأخت، إن معاوية لايفي بشيء وعد به ولا بعهد أبرمه أبداً،

لأنه لاذمة له تأمره بالوفاء، ولا دين له يردعه عن النكوص والنكول، وإنك لتعلمين أنه الطليق ابن الطليق، لم يخلص للإسلام يوماً، و لم يَبِتْ مع الإيمان ليلة واحدة.

وردّت زينب:

- ولكنكما قد خبرتما أهل الكوفة وعلمتما أحوالهم، وجرّبتما برمهم بالجهـــاد وكرههم للقتال، وتقاعسهم عن نصرة أبيكما وتخاذلهم عنه، حتى لقد ملّهم وملّوه، وسئمهم وسئموه، فهم بعده أشدّ تقاعساً وأكثر تخاذلاً، وأعظم كرهاً للقتال وبرماً بالجهاد، مع مايبذل لهم معاوية من الوعود، وما يشـــيعه أتباعه بينهم من التهديد، وهم بعد ذلك أشتات متفرقون وأخلاط متنافرون، وإن شيعتكما وشيعة أبيكما بينهم قليلون.

- نعم إنه والله لكذلك يازينب، قال الإمام الحسن، لم يغب شيء من كل ذلك عن بالنا لحظة، وإنا لنعلم أن أبانا إنما كان يقاتل معاوية بمن كان معـــه من المهاجرين والأنصار، وقد استشهد جلّهم و لم يبق معنا منهم إلاّ قلـــيل، إلاّ أنـــه لابد لنا من إتمام الحجة على الناس، والإعذار إلى الله تعالى بذلك.

وقال الإمام الحسين عليه السلام:

- لقد نطق أخوك الحسن بالصواب وفصل الخطاب، وحكم بما يلزمه به الكتاب، ونحن معه في كل مايريد، على مايحب إن شاء الله تعالى.

وختمت زينب :

- إذن فامضيا على درب الجهاد والشهادة، درب جدكما رسول الله

وأبيكما أمير المؤمنين، فإنه لامحيص عن القدر ولا مردّ للقضاء.

أحضرت زينب لأخيها الإمام الحسن دواةً وقرطاساً، وجلست إلى جانبه تقرأ ردّه على معاوية:

( .. أما بعد، فلقد وصلني كتابك تذكر فيه ماذكرت، وتركت جوابك خشية البغي عليك وبالله أعوذ من ذلك، فاتّبع الحق تعلم أني أهله والسلام).

استحضرت زينب وهي تقرأ رسالة أخيها الإمام الحسن، نهج جدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأبيها عليٌّ عليه السلام، واغرورقت عيناها بالدموع وهي تخاطب أخاها:

- لله درُّك ياأبا محمد، فلقد والله صدرت في رسالتك هذه عن مشكاة النبوة ونور الإمامة حكمةً وبلاغةً وفصاحةً وشجاعةً، ولا غرو فأنت فرع الشجرة الطيبة، وغصن الدوحة المباركة، وسليل النبوة والإمامة، وابن أبيك وجدك، ووارثهما علماً ومنهجاً وطهراً.

* * *

## زينب ومحنة الإمام الحسن

راح معاوية يقلّب جواب الإمام الحسن بين يديه، ويصعّد فيه نظره ويعيده، حتى لقد خيل للجالسين حوله أن أمراً جليلاً قد حدث أو هو على وشك الحدوث.

لم يكن جواب الإمام الحسن لمعاوية يزيد على سطرين اثنين، قد خُطّا على ورقة صغيرة، فلماذا استغرق من معاوية كل هذه الفترة الطويلة من

التأمل والتفكير، وهو يعيد قراءته المرة تلو المرة ؟!.

لقـــد أدرك معاوية من هذا الجواب القصير وعباراته البليغة الصريحة، أن مخططه في الترغيب والترهيب قد فشل تماماً مع الإمام الحسن، وأن أسلوبه في المـــراوغة والمخاتلـــة لم يـــؤت أكله و لم تينع ثماره، وكانت الحشود قد تجمعـــت لديـــه، والوفود قد وفدت إليه، فنشرهم خلفه وسار بهم باتجاه العـــراق، وإنـــه ليعلم أنه إن خسر الحرب مع الحسن فإنه سيخسر الدنيا والآخـــرة، فإن الحسن كأبيه علي، لن يقر معاوية في ولاية، ولن يسند إليه منصباً قطّ إن استقرت خلافته، أما إن ربح معاوية تلك الحرب مع الحسن، فسيربح الدنيا بأسرها ولو خسر الآخرة – تلك التي لم يكن لها في وجدانه أي حســـاب، و لم يكن لها في عقله أي وجود – لأن كل مايهمه ويطمح إليه، أن يصبح ملكاً يأمر فيطاع، ولن يصل إلى مطمحه، ولن ينال بغيته إلاّ عـــن طـــريق الحرب، فلتكن الحرب، مادام يجد الناس الذين يبيعونه دينهم بدنـــياهم، بـــل يبـــيعونه دينهم بدنياه هو، ماأحمق هؤلاء الناس وما أشدّ غباءهم؟.

كاد لسان معاوية يفصح علناً عن هذه الأفكار التي تدور برأسه، لكنه انتبه لنفسه وأمسك لسانه، أليس هو أيضاً قد باع دينه بدنياه ؟! وضحك معاوية في سرّه، أي دين ذلك الذي بعته؟ وهل وسعه قلبي طرفة عين؟ هل هـــو إلاّ شقشقات لسان لم يهضمها الجَنان، و لم يقبلها الوجدان؟! لله درك يـــا أبا سفيان، عرفتَ كيف تخفي وتظهر، وأتقنت إحناء الرأس أمام الريح القويـــة العاتـــية، وعلّمتنا ذلك فأصبح لنا ديناً وديدناً، فنحن على خطاك

وآثارك سائرون، نخفي مثلك ونعلن، ونظهر غير مانبطن.

سار معاوية بجيشه العرمرم الذي تجاوزستين ألفاً باتجاه العراق، وحاول الإمام الحسن أن يستنفر أهل العراق فتخاذلوا وتباطأوا، ثم استنفرهم الثانية والثالثة فترددوا وتلكأوا، فغضب كل من عدي بن حاتم الطائي، وقيس بن سعد بن أبي عبادة الأنصاري، ومعقل بن قيس الرياحي، وزياد بن صعصعة التيمي لهذا التخاذل والتقاعس، فقاموا يؤنبون الناس ويلومونهم، ويحرضونهم على الخروج لحرب معاوية ومن نفر معه من عبيد الدنيا.

وأخيراً خرج الناس – وما كادوا – إلى النخيلة معسكر الكوفة، وتكامل جيش الإمام الحسن أربعين ألفاً، فدعا إليه ابن عمه عبيد الله بن عباس، فجعله طليعته وسيّره أمامه، وأوصاه بالنهج الذي يسلكه:

– ياابن عم، إني باعث معك اثني عشر ألفاً من فرسان العرب وقرّاء مضر، فسر بهم على الشاطئ حتى تقطع الفرات، وألن لهم جانبك، وابسط لهم وجهك، وافرش لهم جناحك، وأدْنِهم من مجلسك، فإنهم من ثقات أمير المؤمنين، فإن أنت لقيت معاوية فاحبسه حتى آتيك، فإني على أثرك وشيكاً، وليكن خبرك عندي كل يوم، ولاتقاتل معاوية حتى يكون هو البادئ بالقتال، فإن أنت أصبت فقيس بن عبادة على الناس، وإن أصيب فسعيد بن قيس الهمداني على الناس بعده.

بدا لكل الناس أن الأمور قد استقرت لصالح الإمام الحسن، وأن الحرب مع معاوية لامحالة ستكون طاحنة، ولكنها ستنهي أسطورة معاوية، وستدور رحاها على أحدوثته وبدعته، وعلى ضلاله وباطله.

وأراد معاوية أن يختبر تصميم الحسن على القتال، وعزم جيشه على الصمود معه، فأرسل خيلاً كثيرة أغارت على أطراف جيش عبيد الله بن عباس، الذي كان قد أدرك جيش معاوية، ونزل تجاهه في مكان اسمه "مسكن" ، فوقف جيش ابن عباس لتلك الخيل الكثيرة وردها على أعقابها خائبة خاسرة مهزومة.

وعندما أيقن معاوية من تصميم الحسن فعلاً على القتال، ومضيّه على درب أبيه دون ضعف أو خور، عدّل في خطته، وعاد إلى خلقه المفطور على الكذب والاحتيال، وأسلوبه القائم على المكر والخداع، فأعدّ لهذا الموقف الجديد طرح خديعة الصلح، تماماً كما كان قد أعدّ من قبل طرح خديعة التحكيم.

راح معاوية يشيع حديث الصلح الوشيك مع الحسن في مجالسه وبين أتباعه، ولدى أنصاره وجواسيسه في جيش العراق، ويأمرهم بإشاعته بين الناس، لبث الفرقة في صفوف جيش الإمام، وإعداد الناس لتقبل هذا المشروع الخبيث، بل ولفرضه على الحسن إذا رفضه.

لم يكن الحسن غافلاً عما يجري من أمور، وما يحاك من دسائس، ولم يغب عن أبصاره ماكان يتداول بين معاوية وبعض كبار قادة جيش العراق من رسائل الإغراء بالأموال والمناصب، والجاه والنفوذ، بين عاجل وآجل، لكي يتخلوا عن الحرب ويثبطوا الناس عنها، ويبثوا فيهم روح التخاذل والاستسلام للأمر الواقع، ورأى الإمام الحسن كيف أن معظم هؤلاء القادة قد مالوا عنه إلى معاوية، وانخدعوا بما أشاع من اتفاق الحسن معه على

الصلح، وتسابقوا إلى إرضاء معاوية وكسب ودّه، وإعلان طاعتهم له وتحوّلهم إليه.

وانعقد جمع الإخوة الثلاثة: الحسن والحسين وزينب يتدارسون الموقف الجديد، قال الإمام الحسين:

- إنها الدنيا، وقد أصبح الناس عبيدها.

وعقّبت زينب :

- لطالما خيّب أهل العراق آمال أبيكما أمير المؤمنين، وخذلوه في المواقف الحاسمة، حتى كان يخاطبهم بلسان صريح فصيح، وقلب مفعم بالأسى جريح: " لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، ياأنصاف الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال".

وتنهّد الإمام الحسن متألماً وهو يقول:

- لقد نهب كلاب الدنيا فسطاطي، وسحبوا مصلاّي من تحتي، وطعنني أحدهم في فخذي، ولو أرادهم معاوية على أن يسلموني إليه موثق الأكتاف موطّأ الأكناف لفعلوا، مايردعهم عن ذلك دين، ولايمنعهم منه عهدٌ ولا بيعة، فإنهم قد وعدوه ذلك في رسائلهم إليه.

واقترحت زينب :

-هل لك ياأخي أن تجمع أهل الكوفة، فتختبر رغبتهم في الصلح أو الحرب، فتكون بذلك قد أعذرت إلى الله، وأوضحت للناس وللتاريخ الموقف ؟.

وأومأ الإمام الحسين بالإيجاب، مؤيداً اقتراح أخته زينب، لما يرى فيه

من الحكمة والسداد.

وقام الإمام الحسن، فأخذ بيد أخيه الإمام الحسين إلى المسجد، وكان قـــد غـــصّ بالناس وتزاحمت فيه جموعهم، فصعد المنبر يجلّي للناس الموقف الألـــيم، ويصارحهم بواقعهم المؤسف، ويكشف لهم دخائل نفوسهم التي هدّهـــا الخوَر ونخرها التخاذل، بما لم يعد يجوز السكوت عليه، ثم قال يختبر نواياهم في الحرب:

- يا أهل الكوفة، أنتم الذين أكرهتم أبي على الكفّ عن القتال، ولو صـــبرتم معه لظفرتم وانتصرتم، وأنتم الذين ألجأتموه إلى القبول بالتحكيم ثم اختلفـــتم علـــيه، ولو انتظرتم حكمه وقبلتم قوله لأمِنتم، لكنكم اختلفتم وتنازعتم في الأمر ففشلتم وخُذِلتم، وقد أتاني أن أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية وبايعوه، فحسبي منكم لاتغرّوني في ديني ونفسي.

ثم ســـكت طويـــلاً ينتظر جواباً منهم، فأطرقوا كأنّ على رؤوسهم الطـــير، ولم يلْـــقَ مـــن أي منهم ردّاً ولا جواباً،فلما رأى منهم كل ذلك الإطراق والسكوت، تابع كلامه يختبر نواياهم في الصلح:

- فـــوالله معاشـــر الناس، إني لأرجو أن أكون أنصح خلق الله لخلقه، ووالله ماأصبحت محتملاً على مسلم ضغينةً، ولامريداً لـــه سوءاً ولا غائلةً، ألا وإن ماتكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة، ألا وإني ناظرٌ لكـــم خيراً من نظركم لأنفسكم، فلا تخالفوا أمري ولا تردّوا عليّ رأيي، غفر الله لي ولكم.

وسكت عليه السلام مرة أخرى يتفرّس وجوه القوم جميعاً، ثم نزل عن

المنبر، وقد أسفرت الحقيقة عن وجهها، وانكشفت مواقف الناس ونواياهم بلا لبس ولا غموض، وكانت تماماً كما استيقنتها زينب وأخواها:

- ففريق من أهل الدنيا، انخدعوا بمعاوية ووعوده، فكانوا يسوقون الأمور سوقاً إلى هذا المصير، فهؤلاء أشرقت نفوسهم بالسعادة، وظهر على ملامحهم السرور.

- وفريق من أهل الآخرة، ممن أخلصوا دينهم لله، ونصحوا لأمير المؤمنين عليّ وابنه الإمام الحسن عليهما السلام، ومحضوهما الودّ وأعاروا لهما جماجمهم وأنفسهم وسيوفهم في كل الظروف والأحوال، فهؤلاء انقبضت قلوبهم وضاقت صدورهم، وبان الحزن الشديد على ملامح وجوههم وفاضت الدموع من أعينهم وسالت على خدودهم، وانبعثت الآهات والزفرات من أفئدتهم وألسنتهم، لكنهم صمتوا طاعة للإمام الحسن، وعلماً منهم بصدق مقالته وحسن نيته، وعمق حكمته وسداد رأيه.

- وفريق ثالث، لم يكونوا من المخدوعين بمعاوية ووعوده، ولا كانوا من الميالين إليه، ولكنهم كانوا مخدوعين بحسن نواياهم وسعة مداركهم، مغرورين بما لديهم من ظاهر العلم، قد أتاهم الشيطان من حيث لم يحتسبوا، فكانوا لايدينون بالطاعة إلى إمام راسخ في العلم، ولا يستندون إلى ركن ركين من اليقين، هؤلاء جدّدوا مع الإمام الحسن فتنة الخوارج الذين خرجوا على أبيه من قبل، وكرّروا الجريمة الكبيرة التي وقع فيها أسلافهم أولئك، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: "كفر والله الرجل، يريد أن يصالح معاوية ويترك الأمر إليه"، حتى لقد بلغ الأمر بأحدهم – وهو الجراح بن

سنان — أن قام إليه يصرخ في وجهه، ويصارحه بما في قلبه الزائغ عن الحق ويقول: "أشركت ياحسن كما أشرك أبوك من قبل".

إنهـــا لمحـــنة جديدة شديدة على أهل البيت عليهم السلام، وكم ستمر علـــيهم مـــن محن شديدة متوالية، ألحت إليها الزهراء عليها السلام، حينما مالـــت الخلافـــة عن عليّ إلى غيره ممن جرت عليهم نعمه، وبان لهم سبقه وفضـــله، وخرجت من بيت النبوة والإمامة، إلى بيوت الطامحين والطامعين من خاملي قريش، يومها قالت الزهراء عليها السلام: " لقد لقحت الفتنة، ونظرة ريثما تنتج ".

وهـــا قد بدأت تظهر نتائجها تباعاً، وراحت الأمة تقطف ثمارها المرة حيناً بعد حين.

* * *

## ***توقيع الصلح مع معاوية***

مضت أيام والإمام الحسن قابع في بيته يعالج جرح فخذه، ويشاور أهله وخاصته، حتى أتته رسل معاوية يحضونه على الصلح، ويعطونه كل ماشرطه معاوية على نفسه في رسائله(١).

أرسل الإمام الحسن إلى معاوية يستقدمه إلى الكوفة، للاتفاق على بنود وثـــيقة الصلح، وليتنازل الإمام الحسن عليه السلام لمعاوية من ثم عن تولّي

(١)- صحيح البخاري ٢٣١/٣ و ٧١/٩ - وروى الطبري أن معاوية أرسل إلى الحسن بصحيفة بيضـــاء مختوم على أسفلها، وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ماتريد، فهو لك، تاريخ الطبري ١٦٢/٥، وقريب منه في الكامل في التاريخ ٢٠٣/٣ .

أمور المسلمين، وهو يعلم أن الخلافة قد ختمت، وأن عهداً جديداً قد بدأ، وراحــت تلوح في الأفق ملامحه، وكيف لايبدأ عهد جديد، والأمة لم تعد نفــس الأمــة ؟ .. ماأشد عمق الهوة التي تسير إليها الأمة بعد أن أُنهكت عقــيدتها، وزاغت قلوب أفرادها، وانحرف حتى سلوك عُبّادها وزُهّادها، فتاهت مسالكهم وهم يظنون أنهم مايزالون على الجادّة، وأساؤوا من حيث يظنون أنهم يحسنون صنعاً، ولله عاقبة الأمور.

ورأت زينــب في جــنوح أخيها الحسن للصلح مع معاوية وقبوله به، والتــنازل لــه عن الخلافة، حكمة بالغة وموقفاً سديداً موفّقاً، فرضه عليه الحفــاظ على من بقي من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، وأملته مصلحة الإســلام العليا وحقن دماء المسلمين، قبل خوض معركة غير متكافئة بين الفريقين، ودعت إليه معرفة الإمام الحسن عليه السلام بالظروف المستقبلية التي ستكشف للناس – كل الناس – حقيقة هؤلاء المتلبسين بلبوس الدين، ممــا ســيتيح للأمة الكشف عن هويتهم، والاطلاع على دخائل نفوسهم الجــاحدة للديــن، الحاقدة على حامليه ودعاته، خاصة وقد قبل معاوية – ولوظاهرياً – بالشروط التي أملاها الإمام الحسن، والتي سيعلنها بنفسه على المــلأ، وفي بعــض بنودها: أن يعمل معاوية في المسلمبن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الصالحين، وأن لايحاسب معاوية أهل المدينة والحجاز والعــراق عــلى شيء كان منهم في عهده أو في عهد أبيه الإمام علي عليه السلام، وكذلك عدم التعرض للإمام علي وأبنائه وأهل بيته بطعن أو سبٍّ أوأذىً، وإعادة الخلافة بعد معاوية للإمام الحسن، فإن كان قد مات فلأخيه

الإمام الحسين (١).

ذلـــك كله إضافة إلى أن الصلح يومئذٍ كان خياراً وحيداً لاثاني لـــه، وأن الإمام الحسن اضطُرّ إليه اضطراراً، و لم يندفع إليه أو يرغب فيه اختياراً.

ومـــع هـــذا الـــذي تراه زينب من أمر الصلح، فإنها وأخويها الحسن والحســين قد عاشوا أقسى الآلام وعانوا أشد المعاناة عندما أراد معاوية بن أبي ســفيان - زعيم الفئة الباغية، وفرع الشجرة الملعونة في القرآن، وعدو الإســـلام ونبـــيه وأهل بيته، الشانئ لأبيهم أمير المؤمنين والمحارب له - أن يدخـــل الكوفة عاصمة الدولة الإسلامية، ومركز الخلافة الراشدة، دخول الجـــبابرة الفاتحين، ورأوا شيعتهم الخلّص، يتململون قلقين مما ينتظرهم من جـــور واضطهاد وتشريد، على يد أول ملوك بني أمية، وما ينتظر الإسلام والمسلمين من أولئك الطلقاء المستهترين بالمقدسات، العابثين بالقيم، وبكل ماجاء به الإسلام ونبيّ الإسلام محمدّ صلى الله عليه وآله وسلم.

* * *

في شـــهر ربـــيع الأول مـــن سنة /٤١/للهجرة، تم التوقيع على وثيقة الصلح ببنودها التي كتبها الإمام الحسن بخط يده الشريفة، بعد أن أمضى في الخلافـــة ماينوف على ستة أشهر، عاش خلالها ظروفاً مؤلمة حرجة، اختبر فـــيها مـــدى تمسك أهل الشام بمعاوية، واجتماعهم عليه رغم باطله وسوء

---

(١) الإمامـــة والسياســـة لابن قتيبة ١/ ١٥٠ و ١٥٦ - الصواعق المحرقة ص ٨١ - شرح نهج الـــبلاغة ١٦/٢٢ و٤٤ - الطبري ٥/ ١٦٠ - مقاتل الطالبيين ص ٦٧ - الكامل ٣/٢٠٣ .

ســريرته، وتفــرق أهــل الكوفة وبقية المسلمين، وتخاذلهم عن نصرة أمير المؤمــنين الإمــام الحسن بن علي، علىماهو عليه من الحق وحسن الظاهر والــباطن، ممــا جعل المعسكرين غير متكافئين عدداً ولاعدّة ولا تماسكاً، وهكــذا رضخ الإمام الحسن للأمر الواقع حقناً للدماء، وحفاظاً على خطّ أهل البيت ونهجهم.

صــعد معاوية لأول مرّة منبر الكوفة، وراح يخطب في المسلمين وعيناه تحدقان في الحسن والحسين لاتحيدان عنهما، وكأنما كان يخاف منهما غدراً أو مكــراً أوغيلة، وهكذا المخاتل والغدار، يظن أن كل الناس مثله وعلى شاكلته، واستمع الناس في عجب إليه يفتتح خطابه بالقول:

– أيهــا الناس، مااختلف أمر أمة بعد نبيها إلاّ وظهر أهل باطلها على أهل حقها ..

ســرت همهمة طويلة بين أهل الكوفة، وراح الناس ينظر بعضهم إلى بعــض في استغراب، وتبسم الإمامان الحسن والحسين إذ أدركا أن معاوية كــان يريد أن يقول: إلاّ وظهر أهل حقها على أهل باطلها، فغلبه الله على أمــره، وأنطق لسانه بما يخفي في جنانه، وفطن معاوية للخطأ الفادح الذي وقــع فــيه إذ سمع الهمهمة ورأى الحسنين يتبسمان، فادّارك نفسه وأصلح خطأه واستدرك يقول بعد تلجلج وتلكؤ:

– إلاّ ماكان من أمر هذه الأمة، فإن حقّها غلب باطلها(١).

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢١٦ .

فكـــان هذا الكلام أول خرق فاضح لبنود اتفاقية الصلح الذي لم يكد يجفّ حبره، لما ينطوي عليه من صريح التعريض بالإمام الحسن وأبيه، حيث اعتبر معاوية نفسه وجماعته من أهل الحق، واعتبر الحسن وأباه وأتباعهما من أهل الباطل.

ســـرت الهمهمـــة من جديد بين أهل الكوفة احتجاجاً هذه المرة على تطـــاول معاويـــة وتجاوزه حدود اللياقة، وسارع معاوية لقطع الطريق على أهـــل الكوفة، وإيقاف همهماتهم واحتجاجاتهم، وإرغامهم على السكوت والإصغاء، فأضاف غريبة أخرى من غرائبه الكثيرة:

-يـــاأهل الكوفة، والله ماقاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا.. ثم استدرك.. فـــإني أراكـــم تصلّون وتصومون، ولا لتحجّوا وتزكّوا فإني أراكم تحجّون وتـــزكّون، وإنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم وألِيَ رقابكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون(١).

هـــا قد فضح معاوية نفسه مرّة أخرى، من حيث لايدري، أو ربما من حيـــث يدري قاصداً إرهاب الناس، ذلك أن أهل الباطل مهما حاولوا أن يحسّـــنوا صورهم، وأن يلبسوا لبوس أهل الحق، فلا بد أن ينكشف باطلهم على ألسنتهم هم، وعلى أيديهم قبل غيرهم، وهاهو معاوية يكشف بنفسه للـــناس، أنـــه لم يقاتل حرصاً على الدين، ولاحميّةً له، ولا صيانة لأركانه وحفظـــاً لتعاليمه وأحكامه، فكل ذلك لايهمه في كثير ولا قليل، وإنما قاتل

---

(١)شرح نهج البلاغة ١٦/١٥ — مقاتل الطالبيين ص ٧٠ — المدائني.

لأمـــر آخر يشغل قلبه، ويملأ عليه وجدانه، وهو أن يتحكم برقاب العباد، وأن يتســـلّط عـــلى أنفسهم وأموالهم، إرضاءً لنزواته وشهواته، واستجابة لرغبته الآسرة في الملك والسلطان، ولذلك اعتبر أول ملك في الإسلام(١).

ثم مضى معاوية في خطابه ذاك، مفصحاً بشكلٍ مخزٍ عن سوء ما تخفيه سريرته وبشاعة ما تحمله طويته:

- ألا وإني كنت أعطيت الحسن بن عليّ وعوداً، ومنّيته أماني لاأفي له بشيء منها أبداً، وهي تحت قدميّ هاتين(٢).

وهكذا أخلّ معاوية ببنود الصلح كلها من أول يوم، وألغاها ورماها خلف ظهره، ليثبت أنه لاذمّة له ولاعهد، بل ولا دين ولا ضمير.

كان الإمامان الحسن والحسين جالسين تحت المنبر، يسمعان كلمات معاويـــة تلك وهما صابران ساكتان، فلما انحدر معاوية في خطابه إلى النيل من الإمام الحسن وأبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام، قام إليه الحسين ليردّ عليه مقالته، فأخذ الإمام الحسن بيد أخيه فأجلسه، ثم قام هو فقال:

- أيها الذاكر علياً، أنا الحسن وأبي عليّ، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمـــي فاطمـــة وأمك هند، وجدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،

---

(١) وروى الطـــبري في تاريخـــه ٣٣٦/٥ قول معاوية : ( إني لأحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا ) وقوله : ( والله إنه الملك ) ٥/ ٣٣٤ .

(٢) شـــرح النهج ١٥/١٦ – لكن الطبري في تاريخه لم يشأ أن يذكر قول معاوية هذا ، إلاّ أنه صرّح أن معاوية لم ينفّذ للحسن من الشروط شيئاً .

وجدّك عتبة بن ربيعة، وجدّتي خديجة وجدّتك قتيلة، فلعن الله أخملنا ذكراً وألأمنا حسباً وشرفاً، قديماً وحديثاً، وأقدمنا كفراً ونفاقاً.

ثم جلس الإمام الحسن، فارتجّ المسجد بقول: "آمين آمين"، لكن معاوية استمرّ في خطابه غير ملتفت لهذه المظاهرة، فعبّر ماشاء عن خلجات ضميره، وأظهر مافي دخيلة نفسه من شهوة الملك، وعدم الاهتمام بالدين، والحقد على بني هاشم، والطعن على أمير المؤمنين.

فلما نزل معاوية عن المنبر، اعتلاه الإمام الحسن من جديد، فخطب الناس خطبة طويلة، فصل فيها بين الحق والباطل، واستعرض الظروف التي فرضت عليه الصلح فرضاً لامفرّ منه.

وكان مما قال عليه السلام:

- "زعم لكم معاوية أني رأيته للخلافة أهلاً ولم أر نفسي لها أهلاً، لقد كذب معاوية، نحن أولى الناس بالناس في كتاب الله وعلى لسان نبيّه، ولم نزل – أهلَ البيت – مظلومين منذ قبض الله نبيّه، فالله بيننا وبين من ظلمنا وتوثّب على رقابنا، وحمل الناس علينا، ومنعنا سهمنا من الفيء، ومنع أُمّنا الزهراء ماجعله رسول الله لها، وأقسم بالله لو أن الناس بايعوا أبي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأعطتهم السماء قطرها والأرض بركتها، ولما طمع فيها معاوية، فلما خرجت الخلافة من معدنها، تنازعتها قريش بينها، وطمع فيها الطلقاء وأبناء الطلقاء، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ما ولّت أمة أمرها رجلاً وفيهم من هو أعلم منه، إلاّ لم يزل أمرهم يذهب سفالاً- أي إلى الأسفل – حتى يرجعوا إلى ماتركوا "

– أي إلى الشرك والجا هلية –.

فلقـــد ترك بنو إسرائيل هارون، وهم يعلمون أنه خليفة موسى فيهم، واتّبعوا السامري، وتركت هذه الأمة أبي وبايعت غيره، وقد سمعوا رسول الله يقول له: " أنت مني بمترلة هارون من موسى إلاّ النبوّة "، ورأوا رسول الله حين نصب أبي يوم غدير خُمّ وأمرهم أن يبلّغ الشاهد منهم الغائب".

ثم التفت الإمام الحسن إلى الحشود المجتمعة فقال متابعاً خطبته:

–" لقد هرب رسول الله من قومه وهو يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ حتى دخـــل الغار، ولو أنه وجد فيهم أعواناً ماهرب، وقد جعل الله نبيّه في سعة حين دخل الغار إذ لم يجد أعواناً، وكذلك فإن أبي وأنا في سعة من الله حين خذلتـــنا هذه الأمة، وإنما هي السنن والأمثال، يتبع بعضها بعضاً، فوالذي بعـــث محمـــداً بالحق، لاينتقص من حقنا أهلَ البيت أحد إلاّ نقص الله من عمله، ولا تكون علينا دولة إلاّ وتكون لنا العاقبة، ولتعلمنّ نبأه بعد حين".

نـــزل الإمـــام الحسن عليه السلام عن المنبر والعيون باكية، والآهات تـــنطلق مـــن أفواه المسلمين، والقلوب تتقطّع ألماً وحسرة على ماآلت إليه أمورهـــم، وبكـــل تثاقل وتكاسل، بايع أهل العراق معاوية وهم بين طائع ومكـــره، وبـــين راضٍ وســـاخط، وسمّى أنصار معاوية ذلك العام "عام الجماعـــة"، وماهو –على قول الجاحظ– إلاّ عام فرقة وقهر وغلبة وجبر، وعامٌ تحولت فيه الإمامة ملكاً كسروياً، والخلافة غصباً قيصرياً (١) ، فلقد

---

(١) نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثني عشرية ، للدكتور أحمد محمود صبحي ص ٣٢٨ ينقله عن رسالة الجاحظ في الأمويين .

عمّ الحزن والأسى جميع المسلمين في شتّى أقطارهم وأمصارهم، وانتشر الرعب والقلق فيما بينهم، حذراً وترقُباً لطغيان معاوية وبني أمية من بعده، وتذكروا في تلك الحال قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهم ذات يـــوم: " رأيـــت بـــني أمية يترون على منبري نزو القردة، وسيملكونكم، وستجدونهم أرباب سوء "(١) ، وأيقنوا أنهم مقبلون على مرحلة جديدة، يضيع فيها العدل، ويحل محله الجور والظلم، ويفقد فيها الأمن، ويظهر فيها الخوف والترقب والحذر، ويغيب عنها الاستقرار، وتبرز فيها الفتن المتتالية كقطـــع الليل المظلم يتلو بعضها بعضاً، ويأخذ بعضها برقاب بعض، فليس في معاويـــة خصلة واحدة تقرّبه من الخلافة، كما يقول ابن عباس، وكما يعلم المسلمون جميعاً.

* * *

## العودة إلى المدينة المنورة

أقبلـــت الســـيدة زينب على أخيها الإمام الحسن، تهوّن عليه الخطب والخطب ليس بهيّن، وتخفف عنه بعض مابه من الأحزان والأشجان، وهي كثيرة وثقيلة الوقع، تلاطفه وتحادثه علّه يفضفض لها عما في نفسه من الألم والشجن، وينفث بعض مافي قلبه وصدره من الحنق والغيظ:

- هوّن عليك أيها الإمام، فأنت ابن أسرة مرزوءة ممتحنة.

- أما غيظي ياأختاه فكظيم، وأما حقي وحظي فهيّن، فما على شيء مـــن ذلك يتحرّق قلبي، وما لشيء منه يلتهب جمر صدري، ولي في ذلك

أســوة بــأبي عــليّ وأمي الزهراء عليهما السلام، فلقد حيل بينهما وبين حقوقهمـــا فصبرا، وأنا الحسن ابنهما، نشأت في أحضانهما، وتربيت على منهجهما، فصبري على حظ نفسي كصبرهما، ولكن مايحز في نفسي ويقلق بــالي، مصير المسلمين عموماً، ومصير شيعتنا على الخصوص، فسيلقون من هذا الطاغية ومن بني أمية بعده أثرة وجوراً، وظلماً وتقتيلاً وتشريداً.

غــصّ الإمام الحسن بريقه، ونظر إلى أخته زينب والدموع تطفر من عينيه، ثم أضاف:

- وعــلى الأخص ماستلقينه أنت يازينب، وما سيلقاه أخوك الحسين وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قتل وسبي.

- نحن وإياك ياأخي أبناء أسرة ممتحنة مرزوءة، وقد ابتلانا الله سبحانه بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمرنا على كل ذلك بالصبر، وإنــه لقدرنـــا الذي لامهرب منه ولامحيد عنه، أفلا ندع المستقبل لحينه، ونفرغ منه إلى مانحن فيه اليوم ؟.

- أنـــا الـــيوم يازينب في محنة كبرى وابتلاء عظيم، بين شماتة العدو وفرحته، وحزن شيعتي وقلقهم، ويزيد محنتي وبلائي ماأسمعه من بعض خيار شيعتي وأشدهم إخلاصاً وولاء لنا أهل البيت، من أقوال غاضبة، وعبارات قاسية، ألم تسمعي قول حجر بن عدي لي حينما سمع معاوية يسب أبي علياً أمـــير المؤمنين على المنبر: " أما والله لوددت أنك متَّ في ذلك اليوم ومتنا معك، فإنا رجعنا راغمين ورجعوا مسرورين"، وقول عدي بن حاتم الطائي ونفســه تكـــاد من الألم والأسى تذهب من بين جنبيه: " يابن رسول الله

لــوددت أني متُّ قبل تسليمك الأمر لمعاوية، لقد أخرجتنا من العدل إلى الجــور، فتركــنا الحق الذي كنا فيه، ودخلنا الباطل الذي كنا نهرب منه، وأعطيــنا الدنيّة من أنفسنا"، والأقسى من كل ذلك ياأختاه، قول أبي عامر ســفين بــن أبي ليلى: "السلام عليك يامذلّ المؤمنين"، وأنا أعلم يقيناً أني لست كذلك!.

- صبراً ياإمام، فوالله لو أنهم كانوا يعلمون من الأمر ماتعلم، ويرون من الشأن المستور ماترى، لعذروك فيما أقدمت عليه من الصلح وترك الأمر لمعاويــة، ولصــبروا معــك عــلى هذه المصيبة، وسيصبرون، وإنهم اليوم لمعذورون فيما يقولون، لعظم الموقف وعدم الاطلاع على حقائق الأمور وما خلف الحجب.

- ولذلــك ياأخت أنا صابر عليهم، حزين من أجلهم، حليم معهم، رؤوف ورحــيم بهــم، أجيب كلاً منهم بما يصلحه، وأكشف لكل منهم بقدر مايطيق فهمه، ويتسع له عقله وفكره.

* * *

مــرت عــلى الصلح أيام قليلة، استقر بعدها عزم الإمام الحسن على مغــادرة الكوفة، عائداً إلى يثرب مدينة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وســلم، حيث مثوى الرسول العظيم، ومثوى ابنته فاطمة الزهراء البتول، فدعــا إليه إخوته وآله من بني هاشم، يطلعهم على ماعزم عليه، ويستطلع آراءهم في العودة إلى المدينة المنورة، فألفاهم بذلك راغبين، وإليه متلهفين،

فأذن لهم بشد الرحال والتهيؤ للمسير، لكن السيدة زينب وهي راغبة فيما رغبوا فيه، متلهفة إلى مثوى جدّها وأمها، وإلى مسقط رأسها ومدارج صباها، عزّ عليها كثيراً أن تعطل مجلسها الذي كانت قد افتتحته في بيتها منذ اللحظة الأولى لاستقرارها في الكوفة، بإشارة من أبيها أمير المؤمنين عليه السلام، والذي تابعته حتى هذه اللحظة دونما توقف أو انقطاع، ولذا فقد استأذنت أخاها الإمام الحسن لعقد جلستها الأخيرة مع نساء الكوفة، اللواتي تقاطرنَ إليه كالسيل، وجلسنَ متلهفات لسماع الكلمات الأخيرة، والتوجيهات النهائية من الصّدّيقة زينب حوراء بني هاشم.

رفعت السيدة زينب نظرها إلى النسوة، فوجدهنّ مصغيات متلهفات لسماع ماستقوله السيدة الجليلة، بنت أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وأخت الإمام الحسن بن علي عليهما السلام، ولم تتركهنّ السيدة طويلاً في تلهفنّ، فبادرهنّ بالقول:

(يحسن بنا في هذا اللقاء الأخير أن لانطيل الكلام، فخير الكلام أوجزه وأنفعه، وإذا كنت مودّعتكنّ اليوم، وقد جُهّزت الركاب وشُدّت الأطناب وهُيّئت الأقتاب، فأنفع الكلام أن أشبع قلوبكنّ بحب أهل البيت، فأضعكنّ في الصورة الحقيقية لهم كما رسمها الله جلّ جلاله، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأفضل مقال في هذا المقام، قول أمّنا الجليلة أمُّ سلمة رضي الله عنها، زوجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم: في بيتي نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) ﴾ سورة الأحزاب، فأرسل النبي إلى ابنته فاطمة وزوجها علي

وابنيهما الحسن والحسين، فضمهم جميعاً إليه وجلّلهم بكساء كان عليه، ثم أخرج يده من الكساء ورفعها يدعو: [اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب الرجس عنهم كما أذهبته عني، وطهرهم تطهيراً كما طهرتني]، فأسرعت أجذب الكساء لأدخل فيه معهم، فقال لي النبي: [مكانك يا أم سلمة] فقلتُ : ألستُ منهم يارسول الله ؟ قال: [لا، ولكنك إلى خير](١).

وبقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ستة أشهر، كلما خرج إلى صلاة الصبح مرّ على بيت فاطمة وعلي يناديهم: "الصلاة .. الصلاة .. إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ").

تمهلت السيدة زينب قليلاً، ريثما يخف سيل الدموع الجارية على خدود النسوة، ثم تابعت:

(ولقد أحس بعض صلحاء المسلمين وأتقيائهم بعظمة النعمة الإلهية عليهم بهذه الرسالة الربانية، التي أخرجتهم برسول الله وأهل بيته من الظلمات إلى النور، ومن الحيرة والضلال إلى الهداية والاستقرار، ومن الظلم والجور إلى العدالة والأمن، فراحوا يسألون النبي المرّة تلو المرّة، عما يجب عليهم أن يقدموه له من أجر تجاه هذه النعمة الكبرى، فما كان يزيد على أن يقول: لاأبتغي على ذلك أجراً من الناس، إنما أجري على الله دون سواه، لكنهم ألحّوا وألحفوا حتى نزل قوله تعالى يخاطب نبيّه: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً

---

(١) سنن الترمذي ٥ / ٦٦٥ ، ومثله في صحيح مسلم ٧ / ١٣٠ .

نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)﴾ سورة الشورى ، ثم لم يلبث إلاّ قليلاً حتى نزل عليه قوله تعالى مبيناً وموضحاً: ﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧)﴾سورة سبأ، أي من أجلكم أنتم ولمصلحتكم، وهكذا أمرهم الباري سبحانه وتعالى باتّباع أهل بيت نبيهم، وفرض عليهم ودّهم وحبهم وطاعتهم، خصوصاً وأنهم عدل القرآن والراسخون في العلم، وهم أولياء الله الذين جعل الله لهم الولاية على المؤمنين، وخصهم بالخلافة والإمامة من دون الناس، حين قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغالِبُونَ (٥٦)﴾سورة المائدة، وكنت قد أشرت لَكُنَّ سابقاً أنها نزلت في أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، في تلك الحادثة المشهورة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما شرحتها لَكُنَّ وبينت تفاصيلها وأسباب نزول الآية في ذلك الموقف المشهود المشهور، ولما علم الله سبحانه وتعالى كراهة بعض المسلمين من ذوي الطموح والنفوذ لهذا الأمر، وحرصهم الشديد على دفع أهل بيت النبوة عن منصب الخلافة والولاية، ليتسنى لهم إشباع طموحهم بالتوالي على هذا المنصب الرفيع في المسلمين، أمر رسوله بأن يشيد بأهل البيت بين الفينة والفينة، وأن يرفع من شأنهم ومقامهم في نفوس المسلمين، وانطلق النبي

يدعم هذه المسيرة المباركة، فإذا هو:

- مـــرّةً يخاطـــب المسلمين فيقول: [مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق](١).

- ويلفـــت نظرهم مرة أخرى إلى أهمية أهل يته فيقول: [لاتقدّ موهم فتهلكوا ولا تأخّروا عنهم فتضلوا، ولا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم](٢).

- وثالثة يخص بالذكر أولهم علياً عليه السلام فيقول: [أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها، فمن أراد دخول المدينة فليأت الباب] (٣).

- ورابعـــة يقرن الحق بعليٍّ ويقرن علياً بالحق فيقول: [عليٌّ مع الحق والحق مع علي يدور معه حيث دار](٤).

- وحيث أن القرآن يتمثل الحق وينطق بالحق ويعرب عن الحق، يقول

---

(١) فضـــائل الخمســـة للفيروز أبادي ٢/٤٣-٥٦- ينابيع المودة للقندوزي ١/٢٦ - الصواعق المحـــرقة ص ١٨٤ و ٢٣٤ - مجمع الزوائد ٩ / ١٦٨ - حلية الأولياء لأبي نعيم ٤ / ٣٠٦ - ذخائـــر العقـــبى للطـــبري ص ٢٠ - كـــتر العمال للمتقي الهندي ٦/٢١٦ - المستدرك على الصحيحين ٢/٣٤٣ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٢/١٩ و١٢/٩١.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ٢/ ٤٦٤ الحديث رقم ( ٩٨٤ - ٩٩٤ ) - المستدرك للحاكم ٣ / ١٢٦و١٢٧ - أســـد الغابـــة ٤ / ٢٢ - المناقـــب للخوارزمي ص ٤٠ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٧٠ - فيض القدير للشوكاني ٣ / ٤٦ وغيرهم كثير .

(٣) تـــاريخ بغـــداد للخطيب ٢/٣٧٧ و ١٤ / ٣٢١ - أسد الغابة لابن الأثير ٤/٢٢ -تاريخ دمشق لابن عساكر ٣/ ١١٩ الحديث رقم ١١٦٢ - الإمامة السياسة لابن قتيبة ١ / ٧٣ .

(٤) تـــاريخ ابـــن عســـاكر ٣/١٥٣ - فرائد السمطين للجويني ١/١٧٧- المناقب للخوارزمي ص ١١٠ - المعجم الصغير للطبراني ١/ ٥٥ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٧٣ - فيض القدير للشوكاني ٤/ ٣٥٨ .

النبي صلى الله عليه وآله وسلم: [عليٌّ مع القرآن والقرآن مع عليّ ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض](١).

ثم ينتقل النبي بعد الإشادة بعليّ ودوره ومكانته، إلى الإشادة بابنيه الحسن والحسين ودورهما ومكانتهما، فتارة يقول صلى الله عليه وآله وسلم: [الحسن والحسين ابناي، وهما إمامان إن قاما وإن قعدا](٢).

- وتارة يقول: [الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما](٣).

- وتارة يقول: [الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا](٤).

- وكم كان يحمل الحسن على كتفه الشريف ويقول: [اللهم إني أُحِبُّه فأَحِبَّه، وأَحِبَّ من يُحِبُّه](٥) .

تريثت السيدة زينب قليلاً وهي تتفحص وجوه النساء ، وتستطلع وقع

---

(١) علي بن عيسى الإربلي : كشف الغمة في معرفة الأئمة ٢ / ١٥٩ .

(٢) المستدرك على الصحيحين ٣/ ١٦٧ –سنن الترمذي ٥/ ٦٥٦ و٦٦١–كنز العمال ٢ / ١١٢ الحديث رقم ٣٤٢٤٧ وص١١٥ الحديث رقم ٣٤٢٥٩ – الصواعق المحرقة ص ١٩١ .

(٣) سنن الترمذي ٦٥٧/٥– الإصابة في تمييز الصحابة ابن حجر ٣٣٢/١– الفصول المهمة في تأليف الأمة لابن الصباغ المالكي ص ١٥٢– ينابيع المودة لقندوزي ص ١٩٣– تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٢٩/١٤– كنز العمال للمتقي الهندي ١١٣/٢– النهاية لابن الأثير ٢/ ٢٨٨– الصواعق المحرقة ص ١٩١.

(٤) صحيح البخاري ٣٣/٥– صحيح مسلم ١٢٩/٧و١٣٠– سنن الترمذي٦٦١/٥– سنن ابن ماجة ٥١/١– حلية الأولياء ٣٥/٢.

(٥) فرائد السمطين للجويني ١٧٧/١.

حديـــثها في نفوســـهنّ ، فوجدهّنّ مصغيات والدموع تفيض من أعينهنّ وتسيل على خدودهنّ ، متلهفات لسماع المزيد من هذا الحديث الشيّق من سيدهّنّ الجليلة السيدة زينب .. وتابعت :

ولقـــد توّج الله سبحانه وتعالى كل هذه الإشارات والإشادات من نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بأهل بيته عليهم السلام، بتلك الحادثة المشهورة المشهودة عند غدير خُمّ ، أثناء عودة النبي من حجة الوداع في مائة ألفٍ من المسلمين أو أكثر، فأنزل عليه وهو في الطريق إلى المدينة المنورة قبل أن يبلغ الجحفة قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّـــكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (٦٧)﴾ سورة المائدة، وكان لابدّ أن يصـــدع رســـول الله بالحق الذي أمره الله تعالى به، مرغماً أنوف الطلقاء وذوي الطمـــوح والنفوذ من رؤساء قريش والقبائل الأخرى، فوقف عند غديـــر خـــمٍّ في لهيـــب الهاجرة، ووهْجُ الشمس يشوي الوجوه وينال من الرؤوس، وأمر بردِّ المتقدمين لموكبه، وانتظار المتأخرين عنه، ثم اعتلى رحالاً نضِّـــدت فوق بعضها، ومعه أخوه وابن عمّه وصهره عليّ بن أبي طالب، بحيـــث يراهما كل أحد، وراح يخطب في الجمع المحتشد بصوت عالٍ خطبةً طويلـــة، وكـــان ممـــا قاله في تلك الخطبة، في ذلك الجمع الحاشد واليوم المشهود: [أيها الناس .. يوشك أن أدعى فأجيب، وأخشى أن لاألقاكم في يومـــي هذا بعد عامي هذا .. وإنّي تارك فيكم الثقلين، إن تمسكتم بهما لن تضـــلوا أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ

الحـــوض](١)، ثم أردف قائلاً: [ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟] قالوا بـــلى يارسول الله، فأخذ بيد عليٌ ورفعها حتى بان بياض إبطيهما، ثم قال: [مـــن كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصـــر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار](٢) ، إلى آخر تلك الخطبة العظيمة، فلما نزل عن الرحال، أمر بخيمة فنصبت، وأقعد فـــيها علياً وأمر المسلمين جميعاً رجالاً ونساءً أن يبايعوه إماماً لهم، وخليفة عليهم بعد رسول الله، وتمّت البيعة لعليٌ على أفضل وجهٍ وأحسنه وأكمله، حتى كان أبو بكر وعمر يقول كل منهما: بخٍ بخٍ لك يابن أبي طالب .. أصـــبحت مـــولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة(٣) ، ثم لم يمنعهم كل ذلك حـــين توفي جدّي رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، من الانقلاب عـــلى أبي واغتصاب الخلافة منه وزَوْ يِها عنه، حتى وصل الحال إلى ماترين وتعـــلمن ممـــا نحن وأنتنّ فيه اليوم، ومايخبئه المستقبل أعظم، ولعمري فهذا الغَمْـــرُ من ذاك المطر، وهذه النيران من ذلك الدخان، لأنّ أولاء بنَوا على ماأسّـــسَ أولـــئك، ومشى الخلف على خُطى السلف، فالله حسيبهم يوم

---

(١) مسلم ٢ / ٣٦١ و٣٦٢ – الترمذي الحديث رقم ٢٧١٧ ورقم٣٧٢٠ – أحمد الأحاديث ذوات الأرقام : ١٠٦٨١ و١٠٧٠٧ و١٠٧٧٩ و١١١٣٥ و٢٠٥٩٦ .

(٢) الـــترمذي ٢٩٧/٥ الحديث رقم ٣٧٩٧ – سنن ابن ماجه ١ / ٤٥ الحديث رقم ١٢١ – النســـائي في الخصـــائص ص ٩٤ و٩٥ – المستدرك للحاكم ١١٠/٣ و١١٦ – مسند أحمد بن حنبل ٨٨/١ و٢/ ٦٧٢ وكثير غيرهم .

(٣) تاريخ دمشق لابن كثير ٢ / ٧٥ الحديث رقم ٥٧٥ و٥٧٧ و٥٧٨ –تاريخ بغداد للخطيب ٨/ ٢٩٠ – مناقب الخوارزمي ص ٩٤ – مناقب ابن المغازلي ص ١٨ الحديث رقم ٢٤ .

القيامة، هنالك يخسر المبطلون، ويعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون).

توقفت زينب ريثما مسحت عن خدّيها دمعات سالت دون قصد من عينيها، ثم تابعت حديثها لنساء الكوفة عازمة على أن تختم ذلك اللقاء الذي طال معهنّ:

(يانساء الكوفة، إن الله تعالى اختارنا أهل البيت لنفسه، وارتضانا لدينه وشريعته، واصطفانا على خلقه جميعاً، لامحاباة لنا، وإنما لسرٌ له فينا، والناس مايــزالون يدفعونــنا عن حقنا، فوالذي بعث جدّي محمداً بالنبوة، وكلّفه بالرسالة، لاينتقص من حقنا أحد في الدنيا، إلاّ نقص الله من حقه مثله من عــاجل دنياه وآخرته، ولاتكون علينا دولة إلاّ وتكون لنا العاقبة، ولتعلمنّ نبأه بعد حين).

ختمت السيدة زينب حديثها مع نسوة الكوفة، وهمّت بمغادرة المجلس، لــولا أن تجرّأت إحداهنّ وقامت تسأل السيدة زينب، ذلك السؤال الذي كان يدور في فكر كثير من أهل الكوفة يومئذٍ، ويتردد في صدورهم، ويشعّ من نظراتهم دون أن تفصح به ألسنتهم، قالت:

– يابنــت رسول الله، إذا كنتم أهل البيت كما تقولين، وكان الحق لكــم والخلافة فيكم، فلماذا صالح أخوك الإمام الحسن معاوية، وتنازل له وبايعه، ودعا الناس لمبايعته؟.

– لــنعم هذا السؤال الذي سألت أيتها المرأة الفاضلة، لقد سألت عن أمــر عظيم وخطب جسيم، فاعلمي واعلمنَ جميعاً أيتها النسوة، وأعلِمنَ أزواجكــنّ، أني ســألت أخي الإمام الحسن – وأنا عليمة بأحواله كلها

وشؤونه جميعاً – هذا السؤال، فقال عليه السلام:

– والله إن الـــذي عملـــت لخير لشيعتي مما طلعت عليه الشمس أو غربـــت، لقـــد عـــلموا أنني حجة الله على خلقه، وإمامهم بعد أبي، ولقد وصـــلهم قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيّ وفي أخي الحسين: [هذان إمامان إن قاما وإن قعدا]، فإن التبس عليهم وجه الحكمة فسخطوا مما فعلت، فلا تثريب عليهم، فإن نبيّ الله موسى قد سخط من فعل الخضر لمـــا خـــرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار، لالتباس وجه الحكمة عليه وهونبيّ، حتى أخبره الخضر فرضي عليه السلام، وما مثلي وهؤلاء إلاّ كمثل الخضر وموسى، فليعلموا أنه لولا ماأتيت من الصلح مع معاوية، لما تُرك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلاّ قُتل، وإن أبي عليه السلام كان يحدثني أن معاويـــة سَيَلِي الأمر، ووالله لو سرنا إليه بالجبال والشجر، ماشككت أنه ســـيظهر، وســـيلي الأمـــر كما قال أبي، وأنه لارادّ لقضاء الله ولا معقب لحكمه ، هذا أيتها النسوة جواب أخي الحسن، وهو جوابي وجوابنا جميعاً أهـــل البيت، إن الله بالغ أمره قد جعل لكل شيءٍ قدراً، وإني لأظنّ أن لي بكـــنّ بعد حين لقاءً آخر، تكثر فيه الدمعة، وترتفع فيه الرنّة، ويظهر فيه الأسى والحسرة.

ضـــجت النسوة بالبكاء والعويل، وهنّ يودّعنَ السيدة زينب بقلوب تكـــاد تـــنخلع عن مساكنها في صدورهنّ، وخرجنَ من عندها والدموع تغسل وجوههنّ، وتجري كالسيل على خدودهن.

* * *

أزفت ساعة الرحيل عن الكوفة، وتحرك الركب المبارك حول الإمام الحسن بعد أيام قليلة من ذلك الصلح، قضاها أهل البيت عليهم السلام مكلومي القلوب، مجروحي الأفئدة، تمرّ في خواطرهم تلك الأيام السود ، التي اضطرّت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى الإدلاء بالبيعة للخليفة الأول أبي بكر، حين رأى وجوه المسلمين قد تغيّرت عليه بعد وفاة الزهراء عليها السلام ، وبدأوا يواجهونه بغير الوجوه التي عرفهم بها قبل ذلك، فإذا هم يلقونه بجفاء بالغ، ويردّون عليه التحية بفتور واضح، وينفضّون عن مجلسٍ حضره، ويعزفون عن بدئه بتحية أو مبادرته بسؤال، وأدرك أن تصرفات الرعية انعكاس لإرادة الراعي، وأن سلوكهم نابع من إشاراته وتلميحاته.

ماأشبه اليوم بالبارحة، وماأقرب صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية من صلح الإمام علي عليه السلام مع أبي بكر، إلاّ أن هذا الصلح كان بعد اختلاف واقتتال ودماء، ولم يكن الأول كذلك.

خرج أهل الكوفة رجالاً ونساء لتوديع الركب المبارك والموكب الميمون، وحاول بعضهم أن يثني الإمام الحسن عن مغادرة الكوفة، وطلبوا إليه البقاء فيها معززاً مكرّماً، محفوظ المقام عالي الجناب، لكن الإمام كان قد عزم على ترك الكوفة ومغادرة العراق، إلى مدينة جدّه صلى الله عليه وآله وسلم، لعلمه أن ذلك أصلح لحاله وحالهم، وأسلم لهم وأدعى للتعايش مع الوضع الجديد.

مرّ الموكب حزيناً بين جموع أهل الكوفة، الذين هبّوا لتوديعه باكين

منتحبين، يُمضّهم الأسى ويملأ قلوبهم الأسف على ماآل إليه الحال .. حال أهل البيت عليهم السلام، وحال أهل الكوفة، وحال المسلمين جميعاً، من الوقوع تحت سلطان الملوك المتجبرين، والخضوع لحكم الطغاة المستكبرين.

ابتعد موكب أهل البيت رويداً رويداً وهم لايزالون يسمعون نحيب أهل الكوفة وبكاءهم، وصرخات رجالهم: ياحسن، ياحسين، وصيحات نسائهم: يازينب .. ويأم كلثوم.

ماأسرع ماانصرمت السنوات الخمس التي قضتها السيدة زينب في الكوفة، مع كل من أبيها عليٍّ وأخيها الحسن، تشاركهما جهادهما المقدس ضدّ أهل البغي والباطل، وتشاطرهما الآلام والأحزان على عدم وعي أمة جدّها لحاضرها، ولما ينتظرها في المستقبل العاجل القريب.

ابتعد موكب أهل البيت كثيراً عن الكوفة، وغابت عنهم دورها وقصورها وضوضاؤها، وراح يطوي البيداء الواسعة طيّاً، حتى إذا انتهى الموكب إلى "دير هند" ، ألقى الإمام على عاصمة خلافته نظرة أخيرة، ملؤها الأسى واللوعة، وراح عليه السلام يتمثل بقول الشاعر:

ولا عن قِليً فارقت دار أحبّتي    هم المانعون لحوزتي وذماري

إن الإمام الحسن عليه السلام ليغادر الكوفة إلى المدينة المنورة، وهو يعلم تماماً أن له في الكوفة من الشيعة الأوفياء والمحبين الخلّص، والأنصار الأبرار، أضعاف ماله منهم في المدينة المنورة، بل وفي جميع أنحاء الحجاز، ولمحت السيدة زينب دموعاً تطفر شاردة من عيني أخيها الحسن وهو يتمثل بذلك البيت من الشعر، وعيناه تنظران إلى آخر مايلوح له من مباني الكوفة ومنائر

مساجدها، وقلبه لايزال يطوف هناك بين أحبائه وأنصاره وأشياعه، وكأنه لم يكن يودّ أن يغادرهم ولا يريد أن يتركهم.

وتساءلت زينب في سرّها:

-تـــرى هـــل اتخذ أخوها الإمام الحسن قرار مغادرة الكوفة بناءً على مصلحة لأهل البيت وشيعتهم في الكوفة فقط، أم كان هناك إضافة إلى ذلك شرط من معاوية أن يغادر الإمام الحسن الكوفة، خوف أن يؤدي بقاؤه فيها إلى عودة أهلها للالتفاف حوله، ثم الانقضاض على معاوية من جديد ؟!.

كتمـــت السيدة زينب هذا التساؤل في صدرها و لم تبده لأخيها الحسن، بل و لم تتجرّأ يوماً أن تتوجّه إليه بالسؤال عن هذا الأمر، وهي تعلم أن هذه المغادرة هي في صالح أهل البيت وأهل الكوفة في كل الأحوال، قبل أن تكون شـــرطاً لمعاوية، لكنها صارحت فيما بعد أخاها الحسين عما دار في خلدها، فسكت عليه السلام عن الجواب.

مضـــى الركب مغادراً الكوفةميمماً وجهه شطر المدينة المنورة، يحدوه الأمل بـــنوع مـــن الاستقرار والهدوء إلى جانب الضريح المقدس للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وابنته الزهراء عليها السلام، وفيما هو يغذُّ السير، لحـــق به رسول معاوية يطلب من الإمام الحسن العودة إلى الكوفة، ليقاتل طائفة من الخوارج أعلنت العصيان والتمرّد عليه في جوارها.

ابتسمت زينب، وألقت بسمعها لتعرف جواب أخيها الإمام، لكنه لم يـــزد على أن أخذ رقعة صغيرة كتب فيها لمعاوية: (لو آثرت أن أقاتل أحداً من أهل القبلة، لبدأت بقتالك قبل أي أحد من الناس، لكني تركت قتالك

ابتغاء إصلاح الأمة وحقن دمائها)(١) ، ثم طواها ودفعها إلى رسول معاوية، وتابع سيره .

سُرّت زينب سروراً بالغاً بهذا الجواب الموجز الحازم، الذي يفصح بشكل لايقبل اللبس ولا الغموض عن باطل معاوية، وحق الإمام الحسن وأبيه الإمام علي، وحق أهل البيت الذي لاشك فيه ولاريب، وإن هم سكتوا عنه أحياناً، وتنازلوا عنه أحياناً أخرى، تحت ضغط الظروف الطارئة، وابتغاء مصلحة يرونها للإسلام والمسلمين في ذلك السكوت أو هذا التنازل.

مضى الركب في طريقه المرسوم نحو المدينة المنورة، وكلما وصل إلى قرية أو حاذى مدينة، خرج أهلها يستقبلونه ويرحبون به، ويبدون للإمام

الحسن مودّتهم وطاعتهم، وكرههم لهذا الصلح المفروض، ويسألونه النزول عندهم والإقامة فيهم، فيهش لهم الإمام ويبش، ويبثهم من وجده مايبث، ثم يودعهم ويتابع المسير، حتى إذا وصل يثرب، فإذا أهلها جميعاً بانتظاره، يترقبون مقدمه، وينتظرون وصوله، فما أن اكتحلت أعينهم بمطالع الركب المبارك حتى انطلقت حناجرهم بالتهليل والتكبير، وكان لقاء طالما ترقّبه أهل يثرب، فرحّبوا بالإمام الحسن وأخيه الإمام الحسين، وهم يتذكرونهما صغيرين قد ارتحلا ظهر جدهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أثناء الصلاة، وهو يبتسم لهما مسروراً بهما ويقول: (نعم الجمل

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣/ ١٦٣ و ٣/ ٣٠٨ .

جملكما، ونعم الراكبان أنتما)(١).

وتقـــدّم إليهما أهل المدينة المنورة وإن ألسنتهم لتقول: أهلاً بسبطي نبيّنا رسول الله وريحانتيه، أهلاً بسيدي شباب أهل الجنة، لازلتما كما قال النبي الأعظم إمامي هذه الأمة، سواء قمتما بالأمرحقّاً، أم قعدتما عنه ظاهراً، فاز والله من أحبكما، وخسر من أبغضكما أو قاتلكما أو تخاذل عن نصرتكما، أرواحنا لكما ولأهل بيت رسول الله الفداء.

هكذا استقبل أهل المدينة موكب أهل البيت عليهم السلام استقبالاًَحارّاً، ورحبوا به ترحيباً بالغاً، والسرور يطفح على وجوههم، وتنطق به ألسنتهم، والبشـــر بلقاء أهل البيت يملأ جوانحهم ويشرح صدورهم، ولقد خفّف عن أهل البيت بعضَ معاناهم وآلامهم، هذا الاستقبال الحافل لهم في كل مكان مـــرّوا به، والاستنكار الشديد من معظم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآلـــه وسلم لخلافة معاوية، وعدم ارتياح عامة المسلمين لهذا التحول الخطير في قضية إمرة المسلمين وقيادهم، ووقوف الجميع من هذه الأحداث موقف الترقـــب والحـــذر والخوف، متوقعين أسوأ النتائج والآثار، وأفدح العواقب والأخطار على الإسلام والمسلمين.

ولقـــد كانـــت " أم المؤمـــنين" الســـيدة عائشة قد عبّرت علناً عن استنكارها لخلافة معاوية، وأكثرت في الاستنكار، حتى اضطرّ معاوية ذات يوم للردّ عليها بقوله: عجباً لعائشة، تزعم أني في غير ماأنا أهله، وأنّ الذي

---

(١) ذخائر العقبى ص ١٣٠. أصبحتُ فيه ليس لي بحق، مالها ولهذا الأمر؟.

وسرعان ما تابعها أبو هريرة في الحملة التي تشنها على معاوية، فراح يروي للناس قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (الخلافة في المدينة، والملك في الشام ) (١) ، وقوله: ( الخلافة ثلاثون، ثم تكون ملكاً ) (٢) .

إلاّ أن معاوية استطاع أن يميل بهما إليه، ويحبب إليهما هواه، ويجعلهما في صفّه، بطرقٍ وأساليب ملتوية يتقنها كل الإتقان، فيدخل إلى كل شخص من مدخله، ويأتيه – كالشيطان – من حيث ينبغي أن يؤتى، فلهذا الترهيب، ولذاك الترغيب، ولواحد المال، ولآخر المنصب، ولثالث النفوذ والجاه والوجه عند السلطان ، لكنّ أحداً ممن يعتدّ به من المسلمين لم يعترف لمعاوية بالخلافة وإمرة المؤمنين، وإن اعترفوا به وبايعوه ملكاً مفروضاً وسلطاناً متسلّطاً على المسلمين.

دخل سعد بن أبي وقاص يوماً على معاوية، بعد أن تنازل له الإمام الحسن بن علي عليهما السلام ، فقال: السلام عليك أيها الملك، فضحك معاوية لسعد وقال له: غفر الله لك يا أبا إسحاق، ماكان عليك لو قلت: السلام عليك ياأمير المؤمنين؟ فأجابه سعد: أتقولها جذلان ضاحكاً ؟ والله ماأحبُّ أني ولِيتُها بما وليتها أنت به(٣) .

والتقى معاوية يوماً صعصعة بن صوحان العبدي، فسأله:

– أيَّ الخلفاء رأيتموني ياصعصعة ؟.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي المجلد الرابع .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٦ / ٢٢١ .

(٣) البداية والنهاية ٦ / ٢٢٠ وتاريخ أبي الفداء ١ / ١٨٣ .

- أنّى يكون خليفة من ملك الناس قهراً، ودانهم كِبراً، واستولى عليهم بأسباب الباطل كذباً ومكراً ؟ أما والله يامعاوية، مالك في يوم بدرٍ مضربٌ ولا مرمى، فلقد كنت أنت وأبوك في العير والنفير ممن أجلب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما أنت طليق ابن طليق، أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة، فأنّى تصلح الخلافة لطليق؟(٢).

* * *

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ / ١٦٣ و ٣ / ٢٠٥ .

(٢)مروج الذهب للمسعودي ٢ / ٣٤٠ .

## في المدينة المنورة

أقامت السيدة زينب وزوجها عبد الله بن جعفر في المدينة إلى جوار أخويها الإمامين الجليلين الحسن والحسين، لايفارقانهما ولايغيبان عن أمر من أمورهما الصغيرة أو الكبيرة، ولم يكن عيش الإمامين هيناً ولا ليّناً في المدينة، ذلك أن معاوية لم يلبث يسيراً حتى بدأ ينفّذ ماهدّد به في الكوفة، من إسقاط شروط الحسن التي نصّت عليها وثيقة الصلح، وعدم الوفاء بأي منها.

ولقد باشر فعلاً بنقض بنود هذه الوثيقة، فراح ينكّل بالشيعة، ويتهدّد حياتهم وأرزاقهم بالخطر المحدق، ويطاردهم من بلد إلى بلد، فلا يجدون لهم ملجأً إلاّ عند الإمام الحسن في المدينة، فيأتون إليه فارّين، يشكون له جور معاوية وعمّاله، ويجدّدون له مصائبه وأحزانه، وينكأون عليه جراحه وآلامه، وعندما صار البلاء على شيعة أهل البيت في الكوفة شديداً، وغدت المحنة عليهم طاحنة، وأصبح الصبر فوق طوقهم واحتمالهم، جاء وفدٌ منهم إلى المدينة، فيهم سليمان بن صُرَد الخزاعي الرئيس المطاع في قومه وفي أهل العراق، وحجر بن عدي سيد كندة، والمسيَّب بن نجيبة الفزاري فارس مضر، وغيرهم من رؤساء القبائل ووجهاء أهل الكوفة، عاصمة العراق يومئذ، بل عاصمة الخلافة الإسلامية قبل تنازل الإمام الحسن، واستيلاء معاوية على الملك، ولقد عرض الوفد على الإمام الحسن نقض الصلح، والعودة لمحاربة معاوية، وسحب بساط السلطة من بين يديه، ووضعوا

أنفسهم وأهليهم تحت تصرفه، ووعدوه بأن يكونوا رهن إشارته، وضمنوا له كل ماتتطلبه المعركة من الرجال والسلاح والعتاد.

سمعت السيدة زينب أخاها الإمام الحسن يرحب بالوفد ويطيب خواطرهم، ويدعوهم إلى الصبر وينصحهم بالسكينة، فهما خير سلاح لهذه المرحلة التي تمرّ بها الأمة، ويؤكد لهم ضرورة الحرص على تجنب أي ردّ فعل على جور معاوية وظلم عمّاله، إذ ليس شيء من ذلك في مصلحتهم ولا في مصلحة الأمة.

توالت الوفود على الإمام الحسن من الكوفة والبصرة وغيرهما، والكل يئنُّ من المحن، ويضجّ من الآلام والشجن، ويشكو من الجور والظلم، وهم يطالبون الإمام بنفض يده من هذه المعاهدة التي نقضها معاوية، والعودة للحرب، ويعدونه بالصبر معه حتى النصر الأكيد، فما كان عليه السلام يزيد على ماقاله للوفد الأول:

- هيهات ثم هيهات، لم يحن الأوان بعد، ليكن كل رجل منكم حِلْساً من أحلاس بيته مادام معاوية حيّاً مهما غيّر وبدّل، ومهما جار وظلم، فإن يهلك معاوية ونحن وأنتم أحياء، سألنا الله العزيمة على رشدنا، والمعونة على أمرنا، وأن لايكلنا إلى أنفسنا، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

- لانرى أيها الإمام أن وثيقة الصلح تقعدك، فلقد نقضها معاوية بنداً بنداً، ولم يَفِ لك بشيء منها، فهو البادئ والبادئ أظلم.

- هيهات هيهات، ولو فعل معاوية وفعل، إن قضاء الله لايُرَدُّ، وإن أبي كان يحدّثني أن معاوية سيلي الأمر، ووالله لو سرنا إليه بالجبال والشجر،

ماشككت أبداً أنه سيظهر، وما حاربته وحاربه أبي إلاّ لإلقاء الحجة الظاهرة، والإعلان عن وجه الحق السافر، ليحيا من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، وقد أعذرت بما يغني لو كان فيه غَناء.

رغم سرور السيدة زينب بموقف أخيها الإمام الحسن، فإنه ماأن خلا لنفسه وخرجت الوفود عنه، حتى هرعت إليه سائلة مستفسرة:

– جعلت فداك ياإمام، هذه الوفود جاءتك من كل مكان، وهم وجوه أهل الكوفة والبصرة، ورؤساء القبائل في العراق، جاؤوك نادمين على مافرط منهم، خائفين من جور معاوية على أنفسهم وأهليهم، عازمين على نصرتك والصبر على القتال معك حتى النصر، فلم رددهم وأمرهم بالخلود إلى السكينة والتزام البيوت ؟.

– أخيّة زينب، إن هؤلاء لمن شيعتنا المخلصين، وأنصارنا الصادقين، وإنهم والله على استعداد حقاً للموت دوننا، ولكنّ من وراءهم من أقوامهم ليسوا مثلهم، وقد رأيتِ أنهم مع إخلاصهم لم يستطيعوا أن يغنوا عنا شيئاً والأمر كان لنا، والكوفة والعراق وغيرهما من أمصار المسلمين بأيدينا، يحكمها ويديرها عمالنا، فكيف يمكن أن يغنوا عنا اليوم، والأمر لمعاوية والأمصار بيد عماله؟.

– ولم أمرهم بالجلوس في البيوت كحلس من أحلاسها، ولم تأمرهم بالتهيئة للثورة، والعمل على إعداد الناس لتأييدها ونصرها، والالتحاق بها حين تقوم؟.

– وهل من أخلاق أهل البيت أن ينقضوا عهودهم ويدوسوا على

مواثيقهم ، ويعملوا في الباطن بغير ما يعلنون في الظاهر؟ ثم هل كان معاوية وعماله ليغفلوا عنا وعن شيعتنا في أي مكان؟.

– وهل سيتركنا معاوية وعماله وشأننا كما تركناه وشأنه؟.

– أخية زينب، إنهم لن يتركوننا وشأننا ونحن مسالموهم، فكيف إذا أتينا مـــن الأفعـــال أو الأقـــوال مايريبهم ويثير حفيظتهم، ويهيّج مخاوفهم على ســـلطانهم؟ ثم إنـــنا يازينب لن نترك معاوية وشأنه، وإنما سنتركه وسلطانه فقـــط، أمـــا أمور الإسلام والمسلمين فسندافع عنها بكل ماأوتينا من بيان وجَـــنان، وسنفضـــح أيَّ تحريفٍ أو تأويلٍ فاسدٍ لقضايا الإسلام الأساسية مادمـــنا أحياءً، وبكل الجرأة والفصاحة اللتين ورثناهما من جدّنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن أبينا عليّ بن أبي طالب وأمنا الزهراء عليهما الســـلام، ولن نستطيع أن نقوم بدورنا في هذا المجال، إذا كان لنا ولأشياعنا صِلاتٌ بتحركات ثورية وسياسية، يخشاها بنو أمية على سلطانهم.

انصـــرفت السيدة زينب قريرة العين، منشرحة الصدر، يلمع السرور في عينـــيها، ويظهر جلياً على ملامح وجهها، وهي تدعو لأخيها الإمام بطول العمر، وتسأل الله أن يعينه على أداء المهمة الصعبة التي انتدبه لها.

* * *

## السيدة زينب تتابع دروسها

مـــاأن اطمأنت السيدة زينب في المدينة المنورة واطمأنت المدينة بها، حتى بدأت وفود نساء الأنصار والمهاجرين تترى على أهل البيت، يسألن السيدة

زينـــب عن شؤونهنّ، ويتعلّمن منها أحكام دينهنّ، فلقد علمنَ أنها كنزٌ من كـــنوز العلم والمعرفة، وكان قد وصل إلى مسامعهنّ أخبار مجلسها في نساء الكوفة، تفسر لهنّ آيات القرآن الكريم، وتروي لهنّ أحاديث جدّها الرسول العظـــيم صلى الله عليه وآله وسلم، فسألنها أن تكرمهنّ بمثل تلك المجالس السـنيّة، نشراً للعلم والمعرفة بين النساء، وماكان للسيدة زينب أن تردّهنّ، ولا أن ترفض طلبهنّ، فلطالما تشوّفت نفسها الشريفة إلى ذلك ورغبت فيه، ولذلك فما أسرع مااستجابت راضية مسرورة.

وهكـــذا تابعـــت السيدة زينب في المدينة — كما كانت في الكوفة — تحمُّلَ مسؤولياتها في تعليم النساء وإرشادهنّ وتوجيههنّ، وبث أصفى وأنفع العلوم والمعارف إليهنّ، ونشر الوعي في صفوفهن.

عـــلى أن كـــل ذلك لم يصرف السيدة زينب عن دورها الأساسي، في مشـــاطرة أخويها الإمامين الحسن والحسين أعباء مواجهة انحرافات الحكم وإساءات الحاكم، خاصة وأن معاوية لم يلتزم بالشروط والعهود التي أعطاها لأخيها الإمام الحسن، وماكان مثل معاوية جديراً بأن يفي بوعوده وعهوده، ومـــا كان ليلتزم بشروط أعطاها- مكراً بيّناً وخداعاً ظاهراً — ليقبض على ناصية الحكم، ويقف على قمة السلطة ملكاً فرداً، لايعارضه معارض ، ولا يحدّ من أهوائه ونزواته وشهواته معاند .. وهكذا راح معاوية ينقض هاتيك الشروط بلا رادع من دين ولا وازع من ضمير.

مـــاأن هـــمّ معاوية بمغادرة الكوفة حتى استعمل عليها المغيرة بن شعبة، وتـــرك له حـــرية التصرف في جميع الشؤون العسكرية والإدارية حسبما

تقتضيه خبرته وحكمته، وأوصاه بالاجتهاد في شتم أمير المؤمنين عليٌ ولعنه علـــى المنابر، وفي كل المناسبات(١)، وأمره بالتنكيل بشيعته وملاحقتهم، ومحاســـبتهم على كل صغيرة وكبيرة، وأخذهم بكل ذنب وجريرة، وقتلهم علـــى الشبهة والظنّة، ومحو أسمائهم من ديوان العطاء، وتشريدهم تحت كل سمـــاء، ولمـــا عـــاد إلى الشام عاصمة ملكه، اعتلى منبره وخاطب أنصاره ومهنئيه، مباشراً بنفسه تنفيذ وصاياه إلى المغيرة ابن شعبة عامله على الكوفة، فافتتح خطبته بقوله:

- .. وإن رســـول الله قـــال لي: إنك ستلي الخلافة من بعدي، فاختر الأرض المقدســـة فـــإن فيها الأبدال، وقد اخترتكم ياأهل الشام، فالعنوا أبا تـــراب، ثم رفع يديه بالدعاء قائلاً: " اللهم إن أبا تراب قد ألحد في دينك وحاد عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً وعذبه عذاباً أليماً "(٢)

ثم نزل معاوية عن المنبر، وكتب إلى كافة عماله في الأمصار بشتم عليٌ في كل مناسبة، وأن ينظروا إلى من قامت عليه البينة أنه يحبّ علياً وأهل بيته أن يمحـــوه من ديوان العطاء، وأن يمنعوا عنه الرزق، وأن ينكّلوا به ويهدموا داره.

ولم يـــتلكأ أي مـــن عمال معاوية في تنفيذ هذه الأوامر، فما عوّدهم ولاهـــم عـــوّدوه أن يتلكأوا، وهكذا ساروا في هوى معاوية، وتنافسوا في كســـب رضاه، وباعوا دينهم بدنياه، حتى قتل شيعة أهل البيت بكل بلدة

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/٢٣٤- تاريخ الطبري ٣/٢٥٣.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ٣ / ١٥ .

ومصر، وهدمت الدور ونهبت الأموال، وقطعت الأيدي والأرجل، وسملت العيون على الشبهة والظنّة والادّعاء والتهمة، ولقد بلغ الحال بالناس أن الرجل منهم كان أحبّ إليه أن يتهم بالكفر والزندقة، من أن يتهم بموالاة أهل البيت ومحبتهم والتشيع لهم(١) .

## اغتيال الإمام الحسن عليه السلام

أخذ معاوية يعمل على إقصاء الإمام الحسن عن طريق الخلافة، ليتسنى له إسنادها لابنه يزيد من بعده، ولقد كان معاوية يعلم علم اليقين أن من المستحيل عليه أن يتمكن من إسنادها لابنه مادام الحسن موجوداً، فإنه مازالت ترنّ في أذني معاوية كلمة الأحنف بن قيس، أحد زعماء المسلمين المعروفين، عندما حاول معاوية أن يقنعه بقبول ولاية العهد ليزيد من بعده، فراح يثنيه عن هذه الفكرة معرّضاً بيزيد، منوّهاً بفضل الحسن والحسين وحقهم:

- "يامعاوية، أنت أعلم بليله ونهاره، وسرّه وعلانيته، فإن كنت تعلم أنه خير لك فولّه واستخلفه، وإن كنت تعلم أنه شرٌّ لك فلا تزوِّده الدنيا وأنت صائرٌ إلى الآخرة، واعلم أنه لاحجة لك عند الله إن قدّمت يزيد على الحسن

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥/٣- وقد ذكر السيوطي وابن حجر في الصواعق المحرقة أنه كان في زمن بني أمية أكثر من سبعين منبراً يلعن عليها أمير المؤمنين عليٌّ صبحاً ومساءً وأيام الجمع والأعياد والمناسبات.

والحسين، وأنت تعلم من هما وماهما، وقد أعطيت الحسن ابن علي من عهود الله ماقد علمت ليكون لـــه الأمر من بعدك، فإن تَفِ بالعهد، وإلاّ فستعلم والله أن وراء الحسن خيولاً جياداً، وأذرعاً شداداً، وسيوفاً حداداً، وإن تُدْنِ لـــه شبراً من غدر، تجد وراءه باعاً من نصر، واعلم يامعاوية، أن أهل العراق ماأحبوك مذ أبغضوك، ولا أبغضوا علياً وحسناً مذ أحبوهما "(١).

ولأن معاويـــة كـــان مصمماً على توريث الملك لابنه يزيد من بعده، لينحصر في بني أمية، وينحسر عن أهل البيت، فقد توجهت نيته وصحّ عزمه عـــلى التخلص من الإمام الحسن بأي ثمن، فما كان الملك ليؤول إلى يزيد، والإمام الحسن على قيد الحياة.

كانت السنوات العشر، التي أمضاها الإمام الحسن وأخوه الإمام الحسين وأخـــتهما الســـيدة زينب في المدينة المنورة، ثقيلة جداً على معاوية، إذ كانوا شـــوكةً في حلقـــه وشـــجىً في صدره، وعقبةً في طريق خططه ومشاريعه، وخاصـــةً مشروع نقل سلطات الملك من بعده لابنه يزيد، فكان لابدّ لمعاوية أن يعدّ العدّة للتخلص من الحسن، ولكن كيف؟!.

ولمعـــت فكـــرة ماكرة في خيال معاوية! كان الحسن قد تزوج الجعدة بنـــت الأشعث بن قيس، وكان الأشعث هذا واجداً على الإمام عليّ لأنه رفـــض أن يزوجه ابنته زينب، وكان يتحين الفرص للنيل منه، وقد سنحت لـــــه إحدى الفرص في معركة صفّين، فراح يكيد للإمام ويثير الشعب في

---

(١) تاريخ الطبري ٥/٣٠١- الكامل لابن الأثير ٣/٢٤٩-تاريخ اليعقوبي ٢/١٩٥.

صفوف جنده، ويقلّب عليه أمراء الجند، انتقاماً لنفسه أولاً، وكسباً للمال وتشوّقاً للمناصب التي أغراه بها معاوية ثانياً، وقد تابع الأشعث هذه السياسة مع الإمام الحسن رغم أنه تزوج ابنته الجعدة، وخامرت معاوية تلك الفكرة الخبيثة، ألا يمكن أن تكون الجعدة هذه على طباع أبيها الذي تربّت في حجره، وشبّت تحت رعايته؟ ألا يمكن أن تستجيب البنت للإغراءات التي استجاب لها الأب؟ ولم تخيب الجعدة ظنّ معاوية بها، أليست بنت أبيها الأشعث بن قيس؟!.

تسللت امرأة من خواص معاوية - أرسلها مروان بن الحكم- إلى مخدع الجعدة، وأسرّت إليها بقول غريب:

- قد أشرقت شمسك ياجعدة ؟.

- ومتى غربت شمسي حتى تشرق ؟.

- إن يزيد بن أمير المؤمنين معاوية مغرم بك ويود الزواج منك.

- أعوذ بالله مما تقولين ياامرأة السوء، ألست زوجة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام ؟!.

- ياغافلة .. نجم الحسن في أفول، ونجم يزيد مايزال منذ اليوم يزداد تلألؤاً وبريقاً! وقد جئت أعرض عليك عزّ الدنيا والآخرة، ففكّري في الأمر جيداً، ودعيه سرّاً بيني وبينك، فسأعود إليك عما قريب.

غامت الدنيا في عيني الجعدة بادئ الأمر، إنه لأمر فظيع تقشعرّ له الأبدان، أمرٌ ماكان يمكن أن يدور في خلدها بحال من الأحوال، كيف تترك الإمام الحسن وتقبل بيزيد؟! لا..لا .. هذا أمرٌ غير ممكن أبداً، ولن

يكون مطلقاً، بل إنه المستحيل بعينه ..

إنها لتشعر بضباب كثيف يلفها في طيّاته، وثقل عظيم ينيخ على صدرها ويكـــاد يحطّـــم قلبها، لم تكن تستطيع أن تتخيل – مجرد تخيل – إمكانية حـــدوث هذاالأمر الفظيع، ورويداً رويداً بدأ هذا الثقل يتراح عن صدرها، والضـــباب يتقشّع عن قلبها، ثم مازال هذا الضباب ينقشع قليلاً قليلاً، حتى انكشـــف عن سراب لامع بدأ يتراقص أمام عينيها، ويداعب شغاف قلبها، ويلاعـــب أحلام نفسها، فراحت تردد كلمات تلك المرأة اللعينة: عز الدنيا والآخـــرة .. عزّ الدنيا والآخرة .. عز الدنيا والآخرة، الحسن نجمه في أفول .. يـــزيد .. تلألـــؤ .. بريق .. ثم هطلت الدموع غزيرة من عينيها وهي تقول: عزّ الدنيا .. ربما، أما عزّ الآخرة فلا ..

بكت الجعدة وبكت، وأغرقت الدموع خدّيها، إنها لمحنة مابعدها محنة، وإنها لامرأة ضعيفة، والنفس أمّارة بالسوء إلاّ مارحم ربي وقليل ماهم ..

ازداد الصـــراع بـــين عقل الجعدة وعواطفها .. وتأججت المعركة في داخلها بين نداء الدنيا العاجلة، ونداء الآخرة الآجلة، وعاشت أياماً عديدة في قلق مرعب وهمٌّ شديد لم يقطعه إلاّ صوت تلك المرأة اللعينة، وهي تضع في يد الجعدة صرّةً كبيرة من المال، وتقول:

-هـــذا مقدّم الصّداق أرسله لك معاوية، ومؤخره أضعاف أضعاف مقدمه، وعزٌّ وجاهٌ ورفعةٌ.

التقطـــت الجعدة المال في لهفة بالغة، دون أن يسعفها لسانها على النطق بأي كلمة، وعندئذ تجرّأت المرأة، وأخرجت لها زجاجة صغيرة وهي تقول:

- نعـــم هكذا ياجعدة، المال والجاه زينة الحياة، ماقيمة المرء بدون المال والجاه؟ إنه العز والجاه والرفعة.

وفتحـــت المـــرأة اليد الأخرى لجعدة التي لم تعد تملك أن تقاوم كل هاتيك الإغراءات ودست فيها زجاجة السم القاتل وهي تقول:

- مأحكم معاوية حين يقول : إن لله جنوداً من عسل (١) .

ياللســـيدة زينب بنت علي.. وياهول مصيبتها الفاجعة وخطبها الجليل، وهـــي ترى أخاها الإمام الحسن وقد سقي السمّ الزّعاف، فاخضرّ جسده، وانتشـــر الســـمّ في بدنـــه، وفتّت معدته وقطّع أمعاءه، وقضى على حياته الشـــريفة، ويـــالأهل البيت الكرام، الذين تجدّدت مصائبهم وجلّل السواد بيوتهم، وملأ الحزن العميق صدورهم، وسحّت الدموع من أعينهم، فغسلت وجوههم وسالت على خدودهم..

---

(١) كـــان معاويـــة قد أوفد رسوله إلى ملك الروم يطلب منه سمّاً فتاكاً سريع التأثير، فامتنع عن الاســـتجابة لطلبه، وردّ رسوله مع ورقة صغيرة يقول له فيها: (إنه لايصلح في ديننا أن نعين على قـــتل من لم يقاتلنا)، فردّ معاوية الرسول ودفع إليه رقعة فضّها ملك الروم فإذا فيها: (إن الرجل الذي أردتُ قتله هو ابن الرجل الذي خرج في أرض تهامة، وقد خرج الآن يطلب ملك أبيه، وأنا أريـــد قتله بالسمّ لأريح منه العباد والبلاد)، فحينئذ أرسل له ملك الروم مأراد، فقسمه قسمين: قسم دسّه لسعد بن أبي وقّاص، وقسم سلّمه للجعدة بنت قيس بن الأشعث، فدسّته الجعدة للإمام الحســـن، فماتـــا منه في أيام متقاربة، بعد مضي عشر سنوات من استيلاء معاوية على السلطة. (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ٤ / ١٧). وجاء في كتاب (سيرة الأئمة الإثني عشر) للســـيد هاشم معروف الحسني قول الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام: (اشترك الأشـــعث بن قيس في دم أمير المؤمنين ، وسمّمت ابنته الجعدة زوجها الإمام الحسن ، واشترك ابنه محمد بن الأشعث في دم الإمام الحسين ).

وما حالُ الإمام الحسين وهو يغسّل أخاه، وحال السيدة زينب وهي تصبّ له الماء وتحضّر له الحنوط وتناوله الكفن، وتتولّى وإياه تجهيزه للدفن في ملحودة قبرٍ سيغيّبه عنهم تحت أطباق الثرى، وكيف بأبناء الإمام وبناته يتصورون غياب أبيهم عنهم مظلوماً مسموماً، وقدكان بالأمس ملء أسماعهم وأبصارهم، لامرض به يشكو منه، ولاعلّة تقعده، ولاوهن بجسمه، وهو بعد رجلٌ لم يتجاوز السادسة والأربعين من عمره ؟!.

* * *

كان صباح الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة خمسين للهجرة، صباحاً حزيناً، كسفت فيه شمس الإسلام، وتهدّمت فيه أركان الهدى، وتنكّست فيه أعلام التقى، بل وكان يوم رزء عظيم وخطب جسيم، ومصيبة كبرى على أهل المدينة المنورة، وقد هبوا جميعاً يودعون إماماً من أئمة الدين، ويحفّون بجنازته باكين، يملأ الأسى نفوسهم ويعتصر الألم قلوبهم، حتى إذا أصبحت جنازة الإمام الحسن قريبة من مسجد جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فوجئ الناس بموقف غريب ومنظر عجيب، صدم مشاعرهم وجرح قلوبهم، إذ شاهدوا " أم المؤمنين عائشة"، وقد أقبلت على بغلة شهباء في حشد من بني أمية، على رأسهم مروان بن الحكم – وهو يومئذ عامل معاوية على المدينة – وقد تدججوا بالسلاح واستعدوا للقتال.

وقفت عائشة بين الجنازة والمسجد، وهي لاتشك أن بني هاشم إنما

يريدون أن يدفنوا الحسن عند جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم راحت تصرخ:

- إليكم عني ياآل ابن أبي طالب، مالي ولكم؟! تريدون أن تدخلوا بيتي من لاأحب؟!(١)، والله لايدفن الحسن بن علي عند جدّه أو تجزَّ هذه الناصية.

ونادى مروان بن الحكم:

- أيدفن عثمان في أقصى البقيع ويدفن الحسن في بيت رسول الله؟ والله لايكون ذلك أبداً وأنا أحمل السيف في يدي.

ساد الناسَ وجوم شديد، وران السكون دقائق كأنها الدهر، وفجأة ودون سابق تحذير أو إنذار، انطلقت سهام بني أمية ترشق بإشارة من عائشة جنازة الإمام الحسن بن علي، وثار الناس غاضبين من هذا الموقف المشين، وكادت الفتنة تقع بين بني أمية وبني هاشم، وكاد الشر يستطير بين الفريقين، لولا حكمة الإمام الحسين الذي تدارك الموقف، ومنع الهاشميين والناس الذين التفوا حولهم من الرد على سهام بني أمية، والتفت إلى عائشة ومروان يردّ عليهما ويسفه قوليهما:

- والله لولا عهد الحسن إليّ بحقن الدماء لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله مأخذها منكم، وقد نقضتم العهد بيننا وبينكم، وأبطلتم ماشترطنا عليكم

---

(١) نعم ، إن عائشة لم تكن تحب الحسن ولا أباه، بل ولاتطيق أن تسمع باسميهما ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لعلي ( ياعلي لايحبك إلا مؤمن، ولايبغضك إلا منافق) ويقول عن الإمامين الحسن والحسين (اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحبَّ من يحبهما).

لأنفسنا(١).

ثم أمـــر بـــالعدول بالجنازة نحو البقيع، حيث تم دفن الإمام الحسن إلى جانب أمه فاطمة الزهراء عليها السلام، وجدّته فاطمة بنت أسد زوجة أبي طالب عليه السلام، ووقف الإمام الحسين على قبر أخيه الحسن يرثيه ويبكيه وهو ينشد :

أأدهن خدّي أم تطيب مجالسي   وخـــدّك معفور وأنـــت ســـليب
سأبكيك ما ناحت حمامة أيكةٍ   وما اخضرّ في دوح الرياض قضيب
غريبٌ وأكناف الحجاز تحوطه   ألا كل مـــن تحت التراب غريب

ولم تســـتطع الســـيدة زينـــب أن تتمالك دموعها، ولا أن تكتم آهاتها وأناتهـــا، وخانتها في تلك اللحظة قواها وانهدّ جسمها، فانهارت على تراب قـــبر أخيها الحسن، تشمّه وهي تبكي بكاء مريراً، وتسقيه من مقلتيها دمعاً غزيراً.

وتقدم أخوها محمد بن الحنفية يؤبّن أخاه ويقول:

- رحمـــك الله أبا محمد، لئن عزّت حياتك، لقد هدّت وفاتك، فلنعم الروح روحٌ عَمَرَ بها بدنُك، ولنعم البدن بدنٌ ضمّه كفنك، كيف لا وأنـــت سليل الهدى، وحليف أهل التقى، وخامس أصحاب الكسا، رُبّيتَ في حجـــر الإسلام ورضعت ثدي الإيمان، ولك السوابق العظمى والغايات القصوى، فعليك من الله السلام، فلقد طبتَ حيّاً وميّتاً.

تفـــرق الـــناس عائدين إلى بيوتهم وإن عائشة لاتزال واقفة على بغلتها

---

(١) الإرشاد للشيخ المفيد ص ١٩٢ — ١٩٣.

خـــوف أن يعودوا بجنازة الإمام الحسن، ليدفنوه في غفلة منها بجانب جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومرّ بها القاسم بن أخيها محمد بن أبي بكر، فأثاره منظرها وآلمه موقفها، فوقف قبالتها معاتباً ومذكّراً ومناصحاً:

- والله ياعمّة، ماغسلنا رؤوسنا بعد من يوم الجمل الأحمر، أفتريدين أن يقال: يوم البغلة الشهباء ؟! (١).

لم تكـــن عائشة تطيق عتاباً ولا تقبل نصحاً من أحد، فنهرت ابن أخيها بعنف، وشتمته بلا تحرّج، فتركها ومضى لسبيله ناقماً على عمّته، آسفاً من تصـــرفاتها، لكـــن رجلاً آخر من أهل المدينة حلّ محلّ القاسم، يردّد على مسامعها مايشبه مقالة القاسم:

- إلى متى ياأم المؤمنين وأنت يوماً على جمل ويوماً على بغل، تريدين أن تطفـــئي نـــور الله وأن تعادي أولياءه، وأن تفتني المؤمنين؟! ارجعي، فلقد كُفيتِ ماتخافين وبلغت ماتحبين، والله منتصرٌ لأهل بيته ولو بعد حين (٢) .

وقبل أن تردّ عليه عائشة ، وتسمعه من الكلام العنيف ماتشتهي، قرع سمعها صوت عبد الله بن عباس يناديها:

تجمّلـــتِ تبغّلـــتِ ولو عشتِ تفيّلتِ
لكِ التسعُ من الثُّمْنِ وللكلّ تملّكـــتِ (٣)

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٠٠ .

(٢) مقاتل الطالبيين ص ٧٤ — ٧٥، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦ / ٥٠ —٥١ .

(٣)مقـــاتل الطالبـــين ص ٧٤ — ٧٥، شـــرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦ / ٥٠ — ٥١، والمعنى: ركبتِ الجمل وحاربت أمير المؤمنين علياً، وهو الخليفة الشرعي، ثم جئتِ اليوم ==

فأطرقت عائشة عندئذ برأسها، ولوت عنان بغلتها لتعود أدبارها، ولتقرَّ في بيتها إلى حين، وهي تعلم أن ليس لها طاقة بجواب ابن عباس، وأن ليس لديها ماتردّ به عليه.

طار خبر وفاة الإمام الحسن في الأمصار، وماأسرع ماوصل إلى مسامع معاويــة في الشام، فهو الخبر الذي كان ينتظره بفارغ الصبر، فكبّر فرحان جذلاً، وكبّر كل من كان في المسجد لتكبيره، وعمّت الفرحة بوفاة الإمام الحســن أهــل الشام، لكن امرأة اسمها " فاختة بنت قرضة " خرجت من حجرتها عندما سمعت تكبير معاوية ومن معه في المسجد، فقالت :

- سرّك الله ياأمير المؤمنين، ماهذا الذي بلغك فكبّرت ؟! أفتح الله على المسلمين مصراً من الأمصار، وأخزى لهم عدواً من الأعداء ؟!.

- لا، ولكن مات الحسن بن علي.

- لاحول ولاقوة إلاّ بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون، أبموت الحسن بن علي فرحت يامعاوية فكبّرت ؟!.

أجهشت المرأة بالبكاء والعويل، وسالت الدموع على خدّيها وهي تقول لمعاوية:

- لقــد مــات والله سيد المسلمين، ابن بنت المصطفى، وسبطه المجتبى،

---

== تركــبين هــذه البغلة لتمنعي أن يدفن الإمام الحسن إلى جوارجدّه، فبأي حق لك فعلت ذلك؟ فلقد كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسع زوجات، فلك من هذه الحجرة تسعها والباقي لزوجاته الأخريات، فكيف تملّكت كل الحجرة من دون بقية أمهات المؤمنين، وسمحت أن يُدفَن أبو بكر وعمر إلى جوار رسول الله، ومنعت أن يُدفَن الحسن إلى جوار جدّه وهو أولى بذلك منهما؟!.

وريحانته من الدنيا، لقد فقدنا بموته ركناً من أركان الدين، وإماماً للمسلمين، وسفينة نجاة للمؤمنين، وأنتم تضحكون ولاتبكون، وتفرحون ولا تجزعون ؟!.

انتبه معاوية لموقفه، وصحا من نشوته وسكرته، وخشي أن يفتضح أمره، فاستدرك قائلاً للمرأة

- إنه والله لكذلك، وإنه لأهلٌ لأن يُبكى عليه.

ذهل الناس لهذا التذبذب في موقف معاوية وحاروا في تفسير ذلك، وماهي إلاّ لحظات حتى انفجروا ببكاء مرير، ولم يجد معاوية بدّاً من أن يتباكى معهم، متظاهراً بالحزن على الإمام الحسن، وانطبق عليه قول القائل: "يقتل القتيل ويمشي في جنازته"، وهذا جزء من دهاء معاوية، إنه دهاء الكذب والمكر والخديعة والتزييف.

مات الإمام الحسن، وأراحه الله سبحانه وتعالى من معايشة هؤلاء الطغاة الأشرار، وفقد المسلمون بموته خيراً كثيراً، حتى قال قائلهم: " قد ذلّ الناس بموت الحسن بن علي".

واستراح الطغاة الأمويون لهذا الحدث الجسيم، وهم يدركون أي عقبة كبرى قد انزاحت من طريقهم، وأي كابوس ثقيل قد نزل عن صدورهم.

* * *

## الإمام الحسن يوصي للإمام الحسين

مأن سرى السم في بدن الإمام الحسن عليه السلام، وجرى مع الدم في

عروقه، حتى تغيّر لونه واخضرّ، فقال لـــه أخوه الإمام الحسين عليه السلام:

- مالي أرى لونك قد تغيّر إلى الخضرة ياأبا محمد؟.

- إني قد سُقيت السمَّ ياأخي، وإني لعارف بمن سقانيه، ولاأخاصمه إلاّ إلى الله سبحانه وتعالى.

- قل لي من فعل بك هذا ياأخي.

- ماتريد منه؟ أتريد أن تقتله؟ بحقي عليك لاتتكلم في هذا بشيء، فإنه إن يكـــن هو، فالله أشدّ منك انتقاماً، وإن لم يكن هو، فما أحبّ أن يؤخذ بي بـــريء(١) ، ولقد صحّ فيَّ وفيك ياأباعبد الله حديث جدّنا رسول الله صـــلى الله عليه وآله وسلم، إذ دخل ليلة المعراج روضات الجنان، ومرّ على منازل أهل الإيمان، فرأى قصرين عاليين متجاورين على صفة واحدة، إلاّ أن أحدهما من الزبرجد الأخضر والآخر من الياقوت الأحمر، فسأل جبرائيل:

- لمن هذان القصران ياجبرائيل؟.

- أحدهما للحسن والآخر للحسين عليهما السلام يارسول الله.

- فَلِمَ لَمْ يكونا على لون واحد؟.

سكت جبرائيل و لم يجب رسول الله، فبادره صلى الله عليه وآله وسلم:

- لِمَ لاتتكلم ياجبرائيل؟!.

- حياءً منك يارسول الله.

- سألتك بالله إلاّ ماأخبرتني.

---

(١) مناقب ابن شهراشوب ٣/٢٢٠ - الإرشاد للشيخ المفيد ص ١٩٢.

– أما خضرة قصر الحسن عليه السلام، فلأنه يموت بالسم ويخضرّ لونه عند موته، وأما حمرة قصر الحسين عليه السلام، فلأنه يقتل بالسيف ويحمرّ وجهه بالدم (١).

بكــت السيدة زينب مع أخويها فترة، قطعتها إشارة أخيها الحسن لها لتحضـــر جميع إخوته وأبنائه وأبناء عمومته، وجميع من تبقى من بني هاشم، فـــلما اجتمعوا إليه والتفوا حوله، تصفّح عليه السلام الوجوه الحزينة القلقة الباكية، فاهتاجت نفوسهم إذ وجدوا في عينيه نظرات جدّه رسول الله صلى الله علـــيه وآله وسلم، وفي وجهه هيبة أبيه علي أمير المؤمنين عليه السلام، وفاضت أعينهم بالدموع السخية، فلما هدأوا قليلاً بادرهم بالقول:

– لـــيس يغيـــب مثلكم عن كلام يحيا به الأموات ويموت به الأحياء، كونوا أوعية العلم ومصابيح الدجى، وكما أن النهار بعضه أضوأ من بعض، فكذلـــك جعل الله تعالى آل إبراهيم عليهم السلام أئمةً وفضل بعضهم على بعض .

ثم سكت الإمام الحسن عليه السلام هنيهة، خاطب بعدها أخاه محمد بن الحنفية قائلاً:

– يامحمد بن علي، أما علمت أن الحسين بن علي بعد وفاة نفسي، ومفارقة روحي لجسمي، إمام من بعدي ؟.

– ياإمامي وسيدي وأخي، والله لوددت أن نفسي كانت فدى نفسك،

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي ٤٤ /١٤٥

والله هو أعلمنا علماً وأحلمنا حلماً،وأقربنا من رسول الله رحماً، ولقد كان إماماً قبل أن يخلق، وقرأ الوحي قبل أن ينطق.

- لله درّك يـــامحمد بن علي، علم الله تعالى أنكم خير خلقه، فاصطفى مـــنكم محمداً للنبوة، واختار محمدٌ علياً للإمامة، واختارني عليٌّ، واخترتُ الحسين، وكل ذلك بأمر الله تعالى.

- والله أيهـــا الإمام، لو علم الله سبحانه أن أحداً من العالمين خيرٌ منا، مااصـــطفى محمـــداً صلى الله عليه وآله وسلم، فلما اختار الله محمداً نبياً، واخـــتار محمـــد علياً إماماً، واختارك عليٌّ بعده، واخترت الحسين بعدك، ســـلّمنا ورضـــينا بمن هو الرضى، وبمن نَسْلَمُ به من المشكلات، ونأمن به العثرات.

بكى الإمام الحسين وخنقته العبرات، وسالت على خدّيه الدموع، فسأله أخوه الإمام الحسن:

- مايبكيك ياأبا عبد الله؟.

- أبكي لما أنت فيه ياأبا محمد.

- ياأخـــاه لاتحـــزن عليَّ ولاتبكِ، فإن مصابك أعظم من مصابي، وإن رزأك أكـــبر مـــن رزئي، فإنك تقتل ياأبا عبد الله بشط الفرات من أرض كـــربلاء، عطشـــاناً لهـــيفاً، وحيداً فريداً، يزدلف إليك ثلاثون ألف رجل يدّعـــون أنهم من أمة جدّنا، وينتحلون دين الإسلام، فيجتمعون على قتلك وســـفك دمـــك وانتهاك حرمتك، وسبي ذراريك ونسائك، وحملهم على الأقتاب بغير وطاء ولا فراش، ورفع رأسك على سنان القنا، فعليك ياأخي

بالصبر على البلاء حتى تلحق بنا.

ثم التفت إلى الحاضرين من بني هاشم وقد ضجوا بالبكاء والنحيب، فقال:

- أيها الحاضرون، اسمعوا وأنصتوا، وافهموا ماأقول لكم، هذا الحسين أخي إمام بعدي ولا إمام غيره معه، ألا فليبلّغ الشاهد منكم الغائب، والوالد الولد، والحرُّ العبد، وهو خليفتي عليكم، من خالفه كفر، فلا يخالفه منكم أحد، وإني منصرفٌ عنكم، ولاحقٌ بجدّي وأبي، وأمي وأعمامي، أستودعكم الله، والله حافظكم، وهو خليفتي عليكم وكفى به خليفة (١) .

كان بنو هاشم يعلمون تمام العلم إمامة الحسين عليه السلام، فهم جميعاً يحفظون قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ابنايَ هذان إمامان إن قاما وإن قعدا"(٢)، ولم يكن أحد منهم يشك أدنى شك أنه الخليفة بعد أخيه الحسن، ولكن الإمام الحسن عليه السلام، أراد أن يجدّد النص ويؤكده، ليكون الأمر واضحاً وصريحاً بنص قاطع قريب أمام جميع بني هاشم، وفي اللحظات الأخيرة من حياته الشريفة، لينقلوه إلى غيرهم من شيعة أهل البيت، بحيث لايتخلف عنه أحد منهم، وليغادرهم وقد تركهم على المحجة البيضاء، والحق القويم والصراط المستقيم.

* * *

---

(١) أصول الكافي ص ٣٠٠ – ٣٠٢ – معالم السبطين ص ٤٧.

(٢) علي بن عيسى الإربلي : كشف الغمة في معرفة الأئمة ٢ / ١٥٩ .

# الفصل الرابع

# السيدة زينب في كربلاء

## النُذُرُ العاصفة

صرفت السيدة زينب عليها السلام النساء اللواتي كنّ في مجلسها اليومي، يســتمعن مــنها لتفســير آيات القرآن الكريم، ويلتقطن من فمها أحكام الإسلام، وانفتلت إلى زوجها عبد الله بن جعفر تستأذنه في الذهاب إلى بيت أخــيها الإمــام الحسين عليه السلام، تتنسم أخباره وتنعم بأحاديثه الدافئة، وتملأ عينيها من وجهه الشريف الذي يذكّرها بوجه جدّها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد كان عليه السلام أشبه الناس بجدّه خَلْقاً وخُلُقاً.

ما أن ولجت زينب دار أخيها حتى وجدته على أهبة الاستعداد للخروج من البيت، وإذا به يبادرها قائلاً:

- أختاه زينب، لقد جئت في الوقت المناسب، وما كنت أود أن أمضي في الوجه الذي أنا ماض فيه قبل أن أراكِ.

- ماذا وراءك ياقرة عيني وأنيس روحي؟.

- إنــنا مقــبلون على أمر خطير ياأختاه، فلقد أرسل إليَّ والي المدينة "الولــيد بن عتبة" يطلبني إلى قصر الإمارة، وما أرى إلاّ أن معاوية بن أبي سفيان قد هلك، وأن الوالي يريد مني البيعة ليزيد بن معاوية.

- وماعلمك بذلك ياأخي؟.

- رأيت في منامي البارحة، كأن معاوية منكوس على جمر، ورأيت النار تشــتعل في داره، ومأرى الوالي ألحَّ عليَّ بالحضور في مثل هذه الساعة إلاّ

لهذا الأمر.

- ومأأنت فاعل ياأخي؟.

- مايمليه عليَّ الواجب المقدس، وما أنت عليمة به يازينب، فأنت عالمةٌ غير مُعَلَّمة، وفاهمةٌ غير مُفَهَّمة.

- أما إنه لأمرخطيرحقاً، ومهمة عسيرة أتخوَّف عليك ياأخي نتائجها.

- لاتخـــافي ياأختاه، فالطريق أمامي واضحة، والواجب المقدس يدعوني، ولابـــدّ من تلبية ندائه، ولن أجعل للوالي سبيلاً ينالني منه، أما أنت ياأختاه فتجهّزي وجهّزي أهل بيتي لرحيل قريب وسفر طويل، وطريق وعرٍ عسير المسلك.

ماأن تلقّت زينب المهمة التي كلّفها بها أخوها، حتى بادرت إلى زوجها وإخوتهـــا تنقل إليهم أمر أخيها الحسين، وتطلب إليهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد لمجابهة ماقد يحدث من أمور طارئة.

أمـــا الحســـين علـــيه السلام، فقد خرج في نخبة من أصحابه وأنصاره ومحبـــيه، والســـيوف تحـــت ثيابهم، حتى إذا وصلوا إلى باب قصر الإمارة، أوقفهم هناك وقال لهم:

- هـــذا مكانكم لاتبرحوه حتى أعود إليكم، فإذا سمعتم صوتي قد علا بوجه الأمير، فاقتحموا القصر والسيوف بأيديكم، ليعلم أني في عزٍّ ومنعة.

اســـتقبل الوليد بن عتبة الإمام الحسين استقبالاً حسناً، وأدناه منه وقرّبه إليه، ثم بادره يقول:

- ياأبا عبد الله، آجرك الله في معاوية فقد ذاق الموت، وهذا كتاب أمير

المؤمنين يزيد.

- إنا لله وإنا إليه راجعون، عظّم الله لك الأجر أيها الأمير.

- ياأبا عبد الله، لقد دعوتك للبيعة التي اجتمع عليها الناس.

- أيهـــا الأمير، إن مثلي لايعطي بيعته سرّاً، وإنما يجب أن تكون البيعة علانـــيةً بحضـــرة الجماعة، فإذا دعوت الناس غداً إلى البيعة دعوتنا معهم، فيكون الأمر واحداً.

- أبا عبد الله، والله لقد قلت فأحسنت القول، فانصرف راشداً، وتأتينا غداً مع الناس.

هـــمّ الإمام الحسين بالانصراف، لولا أن مروان بن الحكم انبرى للوليد ابن عتبة يقول له:

- أيها الأمير، لئن فارقك الحسين الساعة و لم يبايع، فإنك لن تقدر منه عـــلى مثـــلها أبداً، فاحبسه عندك ولاتدعه يخرج حتى يبايع، وإلاّ فاضرب عنقه.

أثـــار كلام مروان بن الحكم الإمام الحسين عليه السلام، فالتفت إليه يزجره زجراً عنيفاً قائلاً له:

- الويل لك يابن الزرقاء، أتأمر بضرب عنقي؟ كذبت والله ولؤمت، من يضـــرب عنقي أنت أم هو؟ والله لو رام أحد ذلك لسقيت الأرض من دمه (١).

---

(١) الكامل في التاريخ ٤/١٥.

ثم التفت الإمام الحسين إلى الوليد فقال:

- أيهـا الأمير، إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهـبط الرحمة، بنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب للخمر، قـاتل للنفس، معلن بالفسق، ومثلي لايبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أينا أحق بالخلافة والبيعة.

خرج الإمام الحسين من قصر الوليد منصرفاً إلى بيته، فالتفت مروان إلى الوليد فقال:

- عصيتني، والله لا يمكنك من نفسه بمثلها أبداً.

- ويـح غيرك يامروان، أتأمرني بقتل الحسين، والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها، وأني قتلت حسيناً أن قال لا أبايع، والله إني لأظن أن امرءاً يحاسب بدم الحسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة.

اسـتقبلت السيدة زينب أخاها الإمام الحسين عليه السلام بلهفة بالغة، وأشارت إلى المجتمعين في البيت وهي تقول لأخيها:

- هاهم جميع أهل بيتك وخاصّتك، ينتظرون الأوامر منك.

- جزاك الله عني كل خير ياأختاه.

ويلتفت الإمام إلى أهل بيته ويتابع:

- إن الأمر الذي نحن مقبلون عليه لخطير، وإن المهمة التي أمامنا لعسيرة، فلقـد آن والله الأوان لتقديم القرابين والأضحيات، فداءً لدين جدّي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

- وما الذي تشير به أيها الإمام؟ فنحن بأمرك وطوع إرادتك.

دعا الإمام الحسين عليه السلام بدواة وقرطاس، وكتب بيده الشريفة:

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أخيه محمد بن علي المعروف بابن الحنفية، إن الحسين بن علي يشهد أن لاإله إلاّ الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، جاء بالحق من عند الحق، وأن الجنة والنارحق، وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

أما بعد، إني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت أطلب الإصلاح في أمة جدّي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي محمد وسيرة أبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق، ويحكم بيني وبينهم وهو خير الحاكمين، هذه وصيتي إليك ياأخي، وما توفيقي إلاّ بالله، عليه توكّلت وإليه أنيب، والسلام عليك وعلى من اتّبع الهدى، ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم).

قدّم الحسين الوصية لأخيه محمد بن الحنفية وهو يقول :

- أنا عازم على الخروج إلى مكة، وأما أنت ياأخي فلا عليك أن تبقى في المدينة، فتكون لي عيناً عليهم، ولا تُخْفِ عني شيئاً من أمورهم.

ثم التفت إلى بقية أهل بيته وقال:

- إني سائر بعد منتصف هذه الليلة إن شاء الله تعالى، فمن أراد أن يسير

مسـيري، فلـيجهّز نفسه لتضحيات كثيرة، وليعدّها لأهوال شديدة، فإنه "من لحقنا استشهد، ومن تخلّف عنا لم يدرك الفتح" .

اغرورقت عينا عبد الله بن جعفر بالدموع وهو يقول لابن عمه الحسين:

- فداك نفسي وروحي يابن العم، وددت لو أني أستطيع مرافقتك لجهاد عدوّك، والاستشهاد بين يديك، لولا ماتراه بي من المرض الذي يقعدني.

- لـيس عـلى المريض حرج يابن العم، كتب الله لك أجر المجاهدين، فلطالما قارعت هؤلاء الطغاة مع عمك عليّ عليه السلام وهو أبي، ومع ابن عمـك الإمام الحسن بن علي وهو أخي، ولكن لي عندك طلب أرجو أن تجيبني إليه:

- أنا رهن إشارتك ياإمام.

- أريد أن تسمح لزوجتك زينب بنت عليّ للمسير معي، فإنه لاغنى لي عنها في هذا الوجه الذي أسير إليه .

- لـك ماطلبت، فإني ماكنت لأحول بينك وبين أختك زينب، فلأنت والله أولى من نفسي بها وبي وبأولادي.

تـرك الإمـام الحسين القوم في بيته يجهّزون أنفسهم للمسير، وخرج متـوجهاً نحو قبر جدّه صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أتى القبر الشريف، سطع له منه نور عظيم، فجثا عند القبر وقال:

- السلام عليك يارسول الله .. السلام عليك ياجدّاه .. أنا الحسين بن فاطمة، فرخك وابن فرختك، والثقل الذي خلّفته في أمتك، فاشهد عليهم يـانبي الله أنهم خذلوني، وضيعوني ولم يحفظوني، وهذه شكواي إليك حتى

ألقاك صلى الله وسلم عليك.

ثم صفّ قدميه عند قبر جدّه راكعاً وساجداً، ثم رفع يديه إلى السماء وقال:

– اللهم إن هذا قبر نبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأنا ابن بنت نبيك، وقد حضرني من الأمر ماعلمت، اللهم إني أحب المعروف وآمر به، وأنكر المنكر وأنهى عنه، وإني أسألك ياذا الجلال والإكرام، بحق هذا القبر ومن فيه، إلاّ اخترت لي ماهو لك رضىً ولرسولك رضىً.

ثم وضع رأسه على القبر الشريف، فأغفى إغفاءة قصيرة، فإذا هو برسول الله قد أقبل في كتيبة من الملائكة عن يمينه وشماله، وبين يديه ومن خلفه، فجاء صلى الله عليه وآله وسلم حتى ضمّ الحسين إلى صدره، وقبّل مابين عينيه، وقال له:

– حبيبي ياحسين، كأني بك عن قريب مرمّلاً بدمائك، مذبوحاً بأرض كربلاء، بين عصابة من أمتي، وأنت عطشان لاتسقى، وظمآن لاتروى، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي، لاأنالهم الله شفاعتي يوم القيامة، وما لهم عند الله من خلاق .. حبيبي ياحسين، إن أباك وأمك وأخاك قدموا عليّ وهم ينتظرونك، وهم إليك مشتاقون، وإن لك في الجنة لدرجات لن تنالها إلاّ بالشهادة.

أفاق الحسين من إغفاءته القصيرة وهو يقول:

– واشوقاه إليكَ ياجدّاه!.. واشوقاه إليكَ ياأبتاه!.. واشوقاه إليكِ ياأماه!.. واشوقاه إليكَ ياأخاه !.

في ليلة الثامن والعشرين من رجب، سنة ستين من الهجرة النبوية، رافقت زينب أخاها الحسين، الذي خرج من المدينة في جوف تلك الليلة متوجهاً نحو مكة المكرمة، ومعه بنوه وبنو أخيه الحسن وبنو عمومته وأهل بيته، ملتزماً الطريق الأعظم، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)﴾ سورة القصص، قال له ابن عمّه مسلم بن عقيل بن أبي طالب:

– يابن رسول الله، لو عدلنا عن هذا الطريق وسلكنا غير الجادّة كما فعل عبد الله بن الزبير، فإني أخاف أن يلحقنا الطلب.

– لاوالله يابن العم، لافارقت هذا الطريق أبداً أو أنظر إلى أبيات مكة، ويقضي الله في ذلك مايحب ويرضى.

وقبل أن يغادر الركب الميمون المدينة المنورة، أتت السيدة زينب أخاها الحسين عليه السلام متوسلة:

– ياأبا عبد الله، أريد أن أحدث زيارة لقبر جدّي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقبر أمي قبل أن نبتعد عن المدينة.

– قرّي عيناً ياأختاه، فإني إلى تلك الزيارة أحوج.

وأمام القبر الشريف، انكبّ كل منهما يناجي جدّه ويناشد ربّه، قال الحسين والدموع تنهمر من عينيه: [بأبي أنت وأمي يارسول الله، لقد خرجت من جوارك كرهاً، وأُخذتُ لأن أبايع يزيد بن معاوية قهراً، وهو الطليق بن الطليق، شارب الخمور، وراكب الفجور، فإن أنا فعلتُ ذلك

كفرت، وإن أَبيتُه قُتلتُ، فلولا ذلك ماخرجت من جوارك، ولانزحت عن داركِ].

وســالت الدموع غزيرة حارّة من عيني السيدة زينب، وراحت تناجي جدّها وتبثه شكواها مما آلت إليه أمور هذه الأمة، وتودّعه بحرقة وألم وهي تقول:

[جــدّاه يارســول الله، بعين الله تعالى مالاقت أمي الزهراء وأبي علي وأخــي الحسن من هذه العصابة الغادرة، وبعين الله مانلقى، فها نحن مازلنا في الطريق الوعرة، نجالد عن دينك كل تزييف وتحريف، وندافع عن أمتك هؤلاء الظلمة، نجاهد ليحيا الإسلام، ونموت ليبقى القرآن، وكيف لانفعل؟ ونحن عدل القرآن وثقله!].

* * *

انطلــق ركب الإمام الحسين عليه السلام مغادراً مدينة جدّه صلى الله عليه وآلــه وســلم، وأمضى في الطريق إلى مكة خمسة أيام بلياليها، لاتنفرد عنه أختــه الســيدة زينــب في ليل أونهار، حتى إذا كان صباح اليوم السادس ولاحــت لهمــا جبال مكة من بعيد، راح الإمام ينظر إليها وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ سورة القصص/٢٢، فقالت له أخته زينب:

– هُديــتَ وأُعطيتَ رشدك، ورزقت السداد في القول والعمل، ومن

أحـــقُّ بذلـــك منك؟ فوالله ليس على ظهر الأرض اليوم إمام لأهل الأرض ســـواك، خـــاب فأل أمة لم تتخذك إماماً، وخسرت صفقة عبد لم تكن له دليلاً ومناراً.

* * *

كان ثلاثة آخرون غير الإمام الحسين، يغذّون السير إلى مكة المكرمة في تلـــك اللـــيلة، هاربين من المدينة المنورة، كيلا يُجبَروا على البيعة ليزيد بن معاويـــة، إذ كـــانوا يعلمون أن لابديل عن البيعة إلاّ الفرار أو الموت، إنهم العبادلة الثلاثة: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير.

وفي مكـــة، كـــثرت اللقاءات والمداولات بين هؤلاء الثلاثة وبين الإمام الحسين، وراحوا يتشاورون فيما يفعلون بهذا الأمر الجلل، الذي خيّم عليهم وحلّ بساحتهم.

واخـــتلف الناس من أهل مكة ومن بها من المعتمرين وأهل الآفاق إلى الإمـــام الحســـين يـــزورونه ويستطلعون خبره، ويُسمعونه ويسمعون منه، ويستجلي أخبارهم وأحوالهم، ويستطلع آراءهم ومواقفهم.

لم يكـــن يفوت السيدة زينب مجلس من هذه المجالس، أو حوار من تلك الحـــوارات الســـاخنة، الـــتي كانت تجري بين أخيها الإمام الحسين، وبين الآخرين المعارضين للحكم الأموي الفاسد، الكارهين بشكل خاص لتنصيب يزيد الفاسق الماجن، الممتنعين عن بيعته والتسليم لحكمه.

لم يكن هناك أمر يهم السيدة زينب ويشغل بالها في تلك الأيام، كهذا

الأمــر الذي صارت إليه الأمة الإسلامية، والذي وضع الناس على مفترق طــرق، فإمــا الــبخوع للحق ونصرته، والتضحية في سبيله بالمال والنفس والأهــل، ليعود الإسلام محمدياً كما بدأ، وإما الخنوع للباطل، والخضوع لطغيانه وجبروته، والانصياع لمفاتن الدنيا وزخارفها، وبيع الدين بثمن بخس زهيد، وعلى الإسلام وأهله بعد ذلك السلام.

كانــت السيدة زينب تعلم علم اليقين، أن أتباع الباطل والملتفين حولهم كُثُرٌ في كل زمان وفي كل مكان، وأن المتمسكين بالحق والمدافعين عنه وعن أهلــه قلّــةٌ قليلة في كل زمان وفي كل مكان، وأن ذلك القانون سائدٌ في الآخـــرين تماماً مثلما كان سائداً في الأولين ﴿ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً (٦٢) ﴾ سورة الأحزاب.

* * *

## خروج الإمام الحسين من مكة

حــلّ موســم الحج، وأحرم الإمام الحسين ومن معه بحج وعمرة، لكنه مالبــث أن تحلل من إحرامه مكتفياً بالعمرة، عازماً على الخروج بسرعة من مكــة قبل إتمام مناسك الحج، وتستوضحه أخته زينب السبب، فيقول عليه السلام:

– أختاه، هذا عمرو بن سعيد بن العاص، قد وصل مكة بعسكره أميراً

علـــى الحاج من قبل يزيد، وقد أوصاه بالفتك بي ولو وجدني متعلقاً بأستار الكعـــبة، وإني لأكره أن تستحلّ بي حرمة الكعبة، ولأن أُقتلَ خارجها بشبر خير من أن أُقتلَ داخلها.

- فدتك نفسي ياأبا عبد الله، أويقدمون على استحلال دمك وأنت في بيت الله وحرمه ؟!.

- وهـــل لديهم من الدين أو الأخلاق مايحجزهم عن ارتكاب مثل هذا الأمر ؟.

هاج الحزن الشديد في قلب زينب، واغرورقت عيناها بالدموع السخية، فامـــتدّت يـــد الإمام الحانية تمسح الدموع عن خدّي أخته زينب ، وانطلق لسانه يخفف الحزن والأسى عن قلبها الطاهر، وهو يقول لها:

- وفّري دموعك ياأختاه، ليوم تسيل فيه الدماء وتختلط بالدموع.

اتّخذ الإمام الحسين موقفه أمام مقام نبي الله إبراهيم عليه السلام، وألقى عـــلى جمـــاهير الحجيج بيانه المكي الأخير القصير، يعلمهم فيه بما هو مقدم عليه من الخروج من مكة، وبما ينتظره من الشهادة في هذا الوجه الذي هو مـــاض فـــيه، ووقفت السيدة زينب بين الحجيج، تستمع معهم إلى البيان المقتضب:

( الحمد لله وماشاء الله، ولاحول ولاقوة إلاّ بالله، وصلى الله على محمد رســـول الله، خُـــطّ المـــوت عـــلى ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، ومأولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخِيرَ لي مصرع أنا لاقيه، كـــأني بأوصـــالي تقطّعها عسلان الفلاة بين النواويس وكربلا، فيملأن مني

أكراشاً جوفاً وأجربة سُغباً، لامحيص عن يوم خُطَّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفّينا أجر الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لُحْمَتُه، بل هي مجموعة له في حظيرة القدس، تقرُّ بهم عينه، ويُنْجَزُ بهم وعدُه، ألا من كان باذلاً فينا مهجته، موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله ).

خنقت العبرة زينب حسرة على هؤلاء المسلمين، الذين علمت زينب أنهم لم يعودوا مستعدين لأن يبذلوا في الله ورسوله وأهل بيته أكثر من الدموع، التي طفرت في تلك الساعة من أعينهم سخية حارقة، وأن لقاء الله هو آخر ماباتوا يفكرون فيه، بعدما مالوا إلى الدعة، وأسلموا أنفسهم لخفض العيش، واستغرقوا في الدنيا ونسوا الآخرة، وكأن تعاليم الدين قد مُسحت من قلوبهم، وطبائع العزة والكرامة والنخوة قد مُحيت من أفئدتهم.

في تلك الليلة الأخيرة في مكة، جاء العبادلة الثلاثة إلى رحل الإمام الحسين عليه السلام، يحاورونه ويذاكرونه الموقف، ويخوفونه ويحذّرونه، ويحاولون ثني عزيمته وصرف تفكيره عن الخروج من مكة، فهي — على زعمهم — حرم آمن وبيت حصين.

قال عبد الله بن عمر :

– يأبا عبد الله، قد عرفت عداوة هذا البيت لكم وظلمهم إياكم، وقد وَلِيَ الناس هذا الرجل "يزيد بن معاوية"، ولست آمن أن يميل الناس إليه لمكان هذه الصفراء والبيضاء، فيقتلونك ويهلك فيك خلق كثير، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (حسين مقتول، فلئن خذلوه

ولم ينصروه ليخذلنهم الله إلى يوم القيامة)، وأنا أشير عليك أن تدخل فيما دخل فيه الناس، وتصبر ليزيد كما صبرت لمعاوية من قبل.

- أفٍّ لهـذا الكلام أبداً مادامت السماوات والأرض، أسألك بالله ياأبا عبد الرحمن، أعندك أني على خطإٍ من أمري هذا، إن لم أبايع هؤلاء الذين قال فيهم رسول الله ماتعلمه ولايخفى عليك، والذين سماهم القرآن الكريم "الشجرة الملعونة" و " الكلمة الخبيثة" ؟ فإن كنت على خطإٍ فردّني عنه، فإني أرجع عنه وأسمع لك وأطيع، وإلاّ فعليك السمع لي والطاعة.

- اللهم لا، ولم يكن الله تبارك وتعالى ليجعل ابن بنت رسول الله على خطأ، وهو ممن أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، ولكن أخشى أن يُضْرَبَ وجهك الجميل هذا بالسيوف، وترى من هذه الأمة مالاتحب ولا نحب، فارجع معنا إلى المدينة، وإن شئت أن لاتبايع فلا تبايع أبداً، واقعد في بيتك.

- هيهات يابن عمر، فإن القوم ليسوا بتاركيَّ حتى أبايع وأنا كاره أو يقتلوني، ألا تعلم أبا عبد الرحمن أن من هوان الدنيا على الله، أن يؤتى برأس يحيى بن زكريا إلى بَغِيٍّ من بغايا بني إسرائيل، والرأس ينطق بالحجة عليهم، فلم يضر ذلك يحيى بن زكريا، بل ساد شهداء زمانه فهو سيدهم يوم القيامة، ألاتعلم أبا عبد الرحمن، أن بني إسرائيل كانوا يقتلون مابين طلوع الفجر إلى بزوغ الشمس سبعين نبياً، ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون كأنهم لم يصنعوا شيئاً، فمدّ الله لهم إلى حين ولم يعجل عليهم، ثم أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر ذي انتقام؟ فاتق الله أبا عبد الرحمن، ولا

تقعـــدنّ الـــيوم عن نصرتي، ولا تكوننَّ ممن يخذلني ولا ينصرني، فإن كان الخروج معي يصعب عليك ويثقل كاهلك، فلا تدعنَّ الدعاء لي في دبر كل صـــلاة، واجلـــس عـــن القوم، ولاتعجّل بالبيعة لهم حتى تعلم ماتؤول إليه الأمور.

سكت ابن عمر ولم يُحِرْ جواباً أمام هذا البيان الواضح، ولعله وجد في تخيير الإمام الحسين له بين الخروج معه أو الدعاء له وعدم التعجيل في البيعة لـــيزيد، مخرجاً من الحرج الكبير الذي شعر به؛ فخرج من عنده والدموع تسيل على خدّيه، والحيرة تملأ نفسه، والفزع والهلع يهزّان كيانه ويصدعان فؤاده ، فليس هو ذلك الرجل الذي وطّن نفسه على لقاء الله، وعوّدها على البذل والتضحية في سبيل الله.

كان كلٌّ من السيدة زينب وابن عباس ينصتان لهذا الحوار الطويل، أما الســـيدة زينب فقد ملأ العجب نفسها من هذا الرجل المناور .. ماأعجب ماكـــان ابـــن عمر انهزامياً، كان امرءاً لاعزم له ولا حزم لديه على ماكان ينطوي في صدره من العلم والفقه، أهكذا يكون من حظي بصحبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، واكتحلت عيناه برؤية محيّاه ؟!.

وأمـــا ابن عباس، فقد ذهبت به ذاكرته إلى ماض بعيد بعيد، إنه زمن نزول القرآن الكريم على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يفضح المنافقين الطلقاء، أبا سفيان وذرّيته، ويسميهم "الشجرة الملعونة" و "الكلمة الخبيثة" و "المنقلبين على الأدبار" ، قال ابن عباس:

- صـــدقت ياأبـــا عبد الله، هكذا والله سماهم القرآن، ولقد قال فيهم

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ماقال مما يعرفه المسلمون، ولقد سمعته يوماً يقول: (مالي وليزيد ؟ لابارك الله في يزيد، فإنه يقتل ولدي وولد ابنتي الحسين بن علي، فوالذي نفسي بيده، لايقتَلُ ولدي بين ظهراني قوم فلا يمنعونه، إلاّ خالف الله بين قلوبهم وألسنتهم).

ثم بكى ابن عباس بكاءً مرّاً، وبكت معه السيدة زينب، وقطع الإمام الحسين بكاءهما بقوله:

- يابن عباس، أتعلم أني ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟.

- اللهم نعم، ووالله لانعرف في الدنيا أحداً هو ابن بنت رسول الله غيرك، وإن نصرك لفرض على هذه الأمة، كفريضة الصلاة والصيام والزكاة، لاتقبل إحداها دون الآخرى.

- فما تقول في قوم أخرجوا ابن بنت رسول الله من وطنه وداره، وموضع قراره ومولده، وحرم رسوله ومجاورة قبره ومسجده، وتركوه خائفاً مرعوباً لايستقر في قرار، ولا يأوي إلى موطن أو دار، يريدون بذلك قتله وسفك دمه، وهو لم يشرك بالله شيئاً، ولا اتّخذ دون الله وليّاً، ولم يتغيّر عماكان عليه جدّه رسول الله وخلفاؤه من بعده؟.

- ماأقول فيهم ياأبا عبد الله إلاّ أنهم قوم كفروا بالله ورسوله ونافقوا، إنهم قوم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢)﴾ سورة النساء، فعلى مثل هؤلاء تنزل البطشة الكبرى، وأما أنت يا أبا عبد الله، فأنت رأس الفخار .. ابن بنت رسول الله، وابن وصيّه،

وفرخ الزهراء البتول، فمن رغب عن مجاورتك وبنيك فما لــه في الآخرة من خلاق، وليس الله بغافل عما يعمل الظالمون، ولئن بقيتُ إلى ذلك اليوم لأنصرنّك كما نصرتُ أباك وأخاك.

- أنــت يابن عباس ابن عم أبي، و لم تزل تأمر بالخير مذ عرفتك، وقد وضــعت عنك نصرتي بالسيف، إذ لم يعد لك اليوم إليه سبيل، فلا تفوتنّك نصرتي بلسانك، ولاتُخْفِ عني شيئاً من أخبارك.

أمــا ابــن الزبير فقد استحيا أن لايفصح عن موقف في هذه اللحظات الحاسمة، إلاّ أن نفسه أبت إلاّ أن تُفتضحَ في هذا الموقف، فتقدم من الحسين يقول:

- لــو أن لي مالك ياأبا عبد الله من شيعة في العراق ، لما توانيت لحظة عن اللحاق بهم، والامتناع بسيوفهم ورماحهم عن بيعة يزيد، والانقضاض بهم على الخلافة الأموية الباغية.

وبدوره أفصح لــه الإمام الحسين عما يعرفه من دخيلة نفسه، والأهواء والنوازع التي تدور في رأسه:

- حدّثــني أبي يــابن الزبير، عن جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أن بمكة كبشاً به تستحلُّ حرمتها، فما أحب أن أكون ذلك الكبش، وإياك أن تكونه يابن الزبير.

غصّ عبد الله بن الزبير بريقه إذ أدرك مايرمي إليه الإمام الحسين، ولقد نغّصت عليه حياته نبوءة الإمام بمصيره، وهو يعلم أنها لابد أن تكون نبوءة صدق من إمام حق، ولكنه حدّث نفسه ومنّاها "فلعل الله يحدث قبل ذلك

أمرا ويغيّرقدَراً ".

كانــت السيدة زينب تراقب ذلك كله، وتتمثل كل ماتعنيه أي كلمة مــن كلمات أخيها وكلمات محاوريه، ولكنها مع ذلك رنت إليه مستفهمة عن مغزى ذلك كله، و لم يخيّب الإمام الحسين نظرات أخته، فقال لها وهو ينفث جبالاً من الهموم عن صدره الشريف:

- أختاه، ليس شيء من الدنيا أحب إلى ابن الزبير هذا من أن أخرج من أرض الحجــاز ليخلو له الجو فيها، إنه طامع بالملك، وهو يعلم أن الناس في الحجــاز لايعدلونه بي، ولا ينحازون إليه مع وجودي، فودّ أن أخرج حتى يخلو له الحجاز، وإنه والله الكبش الذي حدّثني عنه أبي عن جدّي، ولسوف تستحلّ به الكعبة حرم الله وبيته الحرام.

في ســحر تلــك الليلة التي همّ فيها الحسين بالارتحال من مكة .. ليلة الــثامن من ذي الحجة "يوم التروية"، جاء محمد بن الحنفية إلى أخيه الإمام الحســين، فــأخذ بزمام ناقته وقد ركبها الحسين، وراح يتضرّع إليه باكياً ويقول له:

- بــالله عليك ياأخي لاتخرج من مكة فتقتل، بالله عليك لاتخرج من مكة.

- وهــل تعلم أنهم سيتركونني في مكة آمناً ؟ وأ يم الله يابن الحنفية، لو وجــدوني في ثقب هامّة من الهوام لاستخرجوني منه، حتى يقضوا فيّ حاجة أنفســهم الحاقدة، والله ليَعتدُنّ عليّ ولو كنت متعلقاً بأستار الكعبة، كما اعتدت اليهود في السبت، وقد شاء الله أن يراني قتيلاً، ولا أريد أن يُستباحَ

بي حرم هذا البيت.

– فلا تخرج هؤلاء النسوة معك، فإنهم لن يُغنوا عنك شيئاً.

– إن لهـــم معـــي وبعدي دوراً عظيماً لاتعرفه ياأخي، وقد شاء الله أن يراهُنّ سبايا.

* * *

## في أرض كربلاء

حلّ المحرّم والإمام الحسين عليه السلام في أرض كربلاء، في نفر من أبنائه وإخوته وأبناء أخيه الإمام الحسن، وأبناء عمومته وخُلّص أصحابه وأشياعه، يكـــاد لايجـــاوز عددهم السبعين، وقد أحاط بهم جيش عبيد الله بن زياد، يقوده عمر بن سعد بن أبي وقّاص، وفيه الشَّمِرُ بن ذي الجوشن، وشبث بن ربعي، وكعب بن طلحة، والحصين بن نمير، في عدد كثير وعدة كاملة، وقد حاصـــروه من كل جانب، فبيّتوه في العراء وقطعوا عنه وعن أهله وأصحابه الماء.

وهناك، جمع الحسين أصحابه قبيل المساء وقال لهم:

(أُثني على الله أحسن الثناء، وأحمده علىالسرّاء والضرّاء، أما بعد، فإني لاأعلم أصحاباً أوفى ولاخيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل ولا أفضل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً عني خير الجزاء، وقد أخبرني جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بأني سأساق إلى العراق، فأنزل أرضاً

يقال لها كربلاء، وفيها أُستشهد، وقد قرب الموعد، ألا وإني لأظن أن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حِلٍّ ليس عليكم مني ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، وتفرّقوا في سوادكم ومدائنكم، فإن القوم إنما يطلبونني أنا، ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري ).

ذهل الجميع هنيهة لهذا الطلب غير المتوقع ، وحبست السيدة زينب أنفاسها ترتقب ما سيصدر عنهم من جواب، وسرعان ماقطع الصمتَ الرهيبَ صوتُ أخيه أبي الفضل العباس عليه السلام، يقول في إصرار جازم:

- ولِمَ نفعل ذلك ياإمام ؟ لنبقى بعدك ؟ لا أرانا الله ذلك أبداً (١).

وقال القاسم ابن أخيه الإمام الحسن عليه السلام:

- فماذا نقول للناس يابن رسول الله ؟ نقول لهم إنا تركنا شيخنا وسيدنا وابن بنت نبينا، ولم نرم معه بسهم ولم نطعن برمح ولم نضرب بسيف؟ لا والله يابن رسول الله لانفارقك أبداً، وإنما نفديك بأنفسنا، ونُقتلُ بين يديك ونرد موردك، فقبّح الله العيش بعدك (٢) .

وقال مسلم بن عوسجة الأسدي:

- يابن رسول الله، أنحن نخليك هكذا، وننصرف عنك وقد أحاط بك هؤلاء الأعداء ؟ لاوالله لايراني الله وأنا أفعل ذلك أبداً، حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ماثبت قائمه بيدي، ولو لم يكن لي سلاح

---

(١) و (٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣ / ٢٨٥ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥ / ٤١٩- ٤٢٠ .

أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت بين يديك(١).

وقال سعيد بن عبد الله الحنفي:

- لا والله يـــابن رسول الله لا نخلّيك أبداً حتى يعلم الله أنا حفظنا فيك غيـــبة رســـواه، ووالله لو علمت أني أُقتلُ ثم أحيا ثم أُحرقُ حياً ثم أُذرى في الهواء، يُفعلُ بي ذلك سبعين مرّة لما فارقتك أبداً، حتى ألقى حِمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة، ثم أنال الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً؟! (٢).

وقال زهير بن القين:

- والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت، حتى أقتل كذا ألف قتلة، وأن الله يدفـــع بذلـــك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك(٣).

وقال عابس بن أبي شبيب الشاكري:

- أبـــا عبد الله، أما والله ماأمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعزّ عليّ ولا أحبّ إليّ منك، ولو قدرت أن أدفع عنك الضيم والقتل بشيء أعزّ عليّ من نفسي ودمي لفعلت .

ولم يـــبق صاحب إلاّ قام فقال مايقرّ العين ويثلج الصدر، ورغم يقين الســـيدة زينب أن كل ذلك الاندفاع والإصرار من هؤلاء الأبطال، لن يمنع القـــتل عن أخيها أبي عبد الله الحسين، فقد ارتاحت لتلك المواقف الواضحة

---

(١) و (٢) و (٣) الطـــبري: تـــاريخ الأمم والملوك ٢٣٩/٦ طبعة دار القلم-بيروت، ابن الأثير: الكامل ٨٥/٣ .

والأقـــوال الصـــريحة من جميع الأهل والأصحاب، واطمأنت نفسها إلى أن المعـــركة ستكون مشرفة، وأن الشهادة ستخلّد القضية، لأنها ستكون على مســـتواها ومســـتوى نـــتائجها المســـتقبلية، ومستوى الثمار التي تتوخاها ويـــتوخاها أخوهـــا الإمام الحسين من حركته الثورية ونهضته الإصلاحية المباركة.

انصرفت السيدة زينب في تلك الليلة إلى واجبها الليلي الذي تمارسه في كـــل ليلة، فانهمكت في الصلاة والدعاء، واستغرقت في مناجاة ربها جاثية على ركبتيها، رافعة يديها وهي تقول دامعة العين واجفة القلب:

(رباه ، أمَتُك بين يديك، تناجيك ياحبيب من تحبب إليك، وياقريباً ممن تقـــرب مـــنك، وياعماد من اعتمد علي ، ويامجيب من دعاك، ويانجيّ من ناجـــاك، ويـــا أنيس من أنس بك، ويا ملجأ من التجأ إليك، اللهم إني قد بسطت إليك أكُفّ الضراعة، متوسلة إليك بصاحب الوسيلة والشفاعة، أن تحـــق الحق وتحققه، وأن تهزم الباطل وتمزقه، اللهم انصر وليك وابن وليك، الداعي إلى دينك وإحياء سنة نبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم..).

وفـــيما هـــي مســـتغرقة في الدعاء والمناجاة، تناهى إليها صوت أخيها الحسين من الخباء المجاور وهو يردد:

يادهر أفٍّ لك مـــن خليل كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل والدهر لايقنـــع بالبديـــل
وكلُّ حـــيٍّ سالك سبيلي ماأقرب الوعد من الرحيل

وإنما الأمـــر إلى الجليل سبحانه جلّ عـــن المثيل (١)

فراعها ماسمعت من أخيها، وهرعت إليه باكية تستوضحه معنى مايقول:

- أخي، هذا كلام من أيقن بالموت.

- نعم، إنه لكذلك ياأختاه.

- واثكلاه .. ليت الموت أعدمني الحياة ..

- تعـــزّي بعـــزاء الله ياأختاه، فإن أهل السماء يموتون، وأهل الأرض لايـــبقون، وكـــل شيء هالك إلاّ وجهه، ياأختاه، كان جدّي وأبي وأمي وأخـــي خيراً مني وأفضل، وقد ذاقوا الموت وضمهم التراب، وإن لي ولك ولكـــل مؤمن برسول الله وبهم أسوة حسنة، ياأختاه، إذا أنا قتلت غداً فلا تشقّي عليّ جيباً، ولا تخمشي وجهاً، ولاتقولي هجراً، وأوصيك بابني علي بن الحسين.

* * *

في صـــبيحة العاشـــر من محرّم الحرام، من عام إحدى وستين للهجرة النـــبوية (الأربعـــاء الموافق للعاشر من تشرين الأول من عام ستمائة وثمانين لمـــيلاد السيد المسيح عليه السلام)، بزغت على خيام الإمام الحسين شمس ذلـــك اليوم قوية ساطعة، ونظرت السيدة زينب إلى معسكر عمر بن سعد، وقـــد أحكمـــت خيله حصارها لمعسكر الإمام الحسين، ثم التفتت صوبَ

(١) مناقب ابن شهراشوب ٣ / ٢٤٩ .

أخـــيها وسؤالٌ محيّرٌ يدور في ذهنها، إذا كان يزيد وحاشيته لايدينون بدين يزجـــرهم عـــن الفساد في الأرض، ولايرجعون إلى خلُقٍ يردعهم عن قتل الإمـــام الحسين، فما بال هذه الجموع المحتشدة من أمة جدّه محمد صلى الله علـــيه وآلـــه وسلم، تريد أن تقتل ابن بنت نبيها، وهو لايريد لها إلاّ الخير والهـــدى والصلاح، والأخذ بأيديها إلى مافيه مصلحتها في الدنيا ونجاتها في الآخـــرة؟ إلى أي مدى من الانهزام والتخلف عن حمل المسؤولية، والحرص على دنيا مشوبة بالذل والقهر ونكد العيش، وصلت هذه الأمة ؟! ماالذي أوصـــلها إلى هذا المصير المؤلم الذي لم يعد له من علاج إلاّ شهادة بحجمه، وفاجعـــة كـــبرى تصدمه، فتوقظ الأمة من جديد، وترتفع بها عن المنحدر الـــذي باتـــت تقف على حافته، وتوشك أن تسقط عنه إلى هوة عميقة، يصعب بعد ذلك الخروج منها.

وأقبل الحسين على أخته زينب يودعها ويوصيها:

- أخية زينب، أيتها العقيلة العالمة، واللبيبة الفاهمة، اليوم قد حلّ الأجل المكـــتوب، وحـــان القضاء الموعود، وأُبرم في السماء ماسيجري اليوم على أرض كـــربلاء، خُطَّ الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، فإذا أنـــت نظرت إليّ في الميدان صريعاً، ورأيت جسدي على الأرض طريحاً، قد ضُرِّجتُ بدمائي، ورضّت خيل ابن سعد أعضائي، فلا يهولنّك ماترين من جريان دمي، ورضّ بدني، وقطع رأسي، وتعفير وجهي، ولاتجزعي لذلك، ولاتخمشـــي عليّ في تلك الساعة وجهاً، ولا تلطمي خدّاً، ولا تشقي جيباً، فيسخط لذلك ربنا، ويشمت بنا عدوّنا:

أخية إنني مــــاضٍ إلى ربي فيجـــزيني
وألقى المصطفى جدّي فيدنيني ويؤويني
ويسقيني أبي من حوض كوثره فيرويني
فلا تنعيني أختي فــإن النعي يــؤذيني
وكوني ثورة أخرى على الطغيان تحييني (*)

وأجابــت الســيدة زينب أخاها والدموع تنحدر من مآقيها كالسيل المتدفق :

- أخـــي وإمامي وقرة عيني ياحسين، إنما أنا ابنة أمك وأبيك وأنا بعد ذلــك أخــت الحسن أخيك، ولي فوق ذلك كله أسوة حسنة فيك، ولن يكون مني إلاّ ماتقرُّ به عيونك وعيونهم:

يسيل الدمــع ياروحي على الخدّين أنهاراً
ويــجري نبع أحزاني مــع الأيام فــوّاراً
وأمضي في الطريق الصعب إقداماً وإصراراً
أُعَــرّي زيف باطلهم وأزرع دربهم نــاراً
وأُصليهم لسانــاً قاطعاً كــالسيف بتــارا
ينير الــدرب للأحــرار تــوابين ثــواراً (**)

* * *

---

(*) و (**) هذان المقطعان من الشعر هما لمولف هذا الكتاب.

دارت المعـــركة عنيفة ذلك اليوم، وارتفع إلى السماء غبارها وأُوارها، وراحـــت السيدة زينب ترمق أخاها الإمام الحسين في الميدان، بعيون زائغة دامعة، وقلب خائف واجف، فلما حانت الساعة الموعودة التي حدّثها عنها أخوهـــا الإمـــام الحسين، ورأت زينب جيش عبيد الله بن زياد، وقد تجمّع حـــول جســـد أخـــيها الحسين عليه السلام، ترضّ الخيل أضلاعه، وتقطع السيوف أعضاءه، ويفصل شمر بن ذي الجوشن رأسه الشريف عن جسده، تحركـــت لـــتعلن موقفهـــا الصلب الشامخ، الذي يعبر عن العزة والإباء، والشرف والكرامة، والصبر والصمود، لتلهب صدور الأعداء غيظاً، وتقلع نشوة النصر من رؤوس أولئك الطغاة الأشرار، وراع المزدحمين حول جسد الحسين صوتٌ مفجوعٌ مصدوعٌ ينادي: (ليت السماء أطبقت على الأرض قبل أن تلدكم أمهاتكم ياأشباه الرجال).

والتفت العسكر إلى امرأة مجلببة بالسواد، مقبلة عليهم وقد علتها الهيبة وجلـــلها الوقـــار، تسير بخطى متزنة وهدوء عجيب، تشق الصفوف التي انفرجـــت عـــنها ذاهلة واجمة، وتمضي وسط الجيش الكثيف برباطة جأش وصـــمود قلب، حتى وقفت على جسد أخيها الحسين، وألقت بنظرها إليه، فـــإذا هـــو تماماً كما وصف لها أخوها .. جسدٌ بلا رأس، قد مزّقته ظبى السيوف، ونالت منه أطراف الرماح، وراشته السهام، ورضّته حوافر الخيل، وضُرّج بالدماء.

أكبت السيدة زينب على جسد أخيها الحسين، تقبله بأسىً بالغ ولوعة حارقـــة، ثم وضعت كفيها بين كتفيه، وغمستهما بدمائه، ثم رمت بها نحو

السماء وهي تقول:

(اللهم تقبل منا هذا القربان، هَوِّنَ علينا مانزل بنا أنه بعينك، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجر الصابرين).

ثم قبّلت سلام الله عليها الجسد الشريف ثانية، وكرّت راجعة إلى المخيم بين دهشة القوم وحيرتهم، وتركتهم يهوجون ويموجون، وكأنما أُطلقوا من عقال أو استيقظوا من رقاد.

كان هذا التحدّي الصارخ من السيدة زينب، إعلاناً واضحاً وإيذاناً صريحاً مبكراً، ببداية جهاد من نوع آخر، يحلّ فيه الحرف مكان السيف، ويغدو البيان بديلاً عن السنان، فالكلمة الصادقة رسولٌ إلى القلوب والعقول، توقظها من رقدتها وتنبهها من غفلتها.

نعم، كان لابد من قيادة تواصل المعركة - بعد الإمام الحسين — مع تلك الجاهلية الجديدة، التي كشّرت عن أنيابها مع بداية الحكم الأُموي، وخاصة مع تسنم يزيد بن معاوية سدّة الملك المستبد العضوض، وحيث أن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، كان مايزال مريضاً، ولم يكن قادراً على القيام بأعباء تلك المهمة الخطيرة كيما تعطي كربلاء ثمارها الناضجة، فلم تكن سوى السيدة زينب المرشحة للقيام بهذه المهمة، والقادرة فعلاً — بما تميّزت به من العلم والجرأة والفصاحة والحكمة — على تحمل أعبائها على أتم وجه وأكمله.

ولقد باشرت السيدة زينب هذا الدور الريادي، منذ اللحظة التي استشهد فيها أخوها الإمام الحسين عليه السلام، وذلك عندما تحركت تشق

صفوف أولئك الجند الجناة المحتشدين حول جسده المرضوض البدن، المكسّر الأضلاع، المحزوز الرأس، وبين فجيعة الفؤاد، وأسى القلب الممزوج بالألم، والدموع المنهمرة على الخدّين كالسيل، وبكل الهيبة والجلال والوقار ورباطة الجأش، تغمس يديها في دماء أخيها التي لاتزال حارة، وترمي بها نحو السماء وهي تقول: " اللهم تقبّل منا هذا القربان، هَوِّنَ علينا مانزل بنا أنه بعينك".

هذا الموقف البطولي العجيب، من امرأة مفجوعة بإخوتها وأبنائها وأبناء إخوتها، هزَّ أفئدةَ جيش عمر بن سعد، وجعله يتصاغر إلى حد الانسحاق، وسيظهر أثر هذا الموقف الأول من السيدة زينب فيما بعد، في الأحداث المتتالية والثورات المتلاحقة التي ستعصف بالحكم الأُموي، والتي ستكون طلائع جندها من هذا العسكر نفسه، عسكر ابن سعد، كما كان أكثر وقودها من هذا العسكر كذلك.

عندما رجعت السيدة زينب إلى المخيم، كانت النيران قد شبّت في خيام أخيها الحسين الشهيد، وكان أوباش جند يزيد وأجلافه وعُتاته يجوسون خلال الخيام، يسلبون وينهبون، ويلاحقون النسوة والأطفال، يرعبونهم ويروّعونهم ويسطون على ماتبقى لديهم.

وانصبّ همّ السيدة زينب على أن تحمي الإمام زين العابدين علي بن الحسين، وأن تلمّ شتات النسوة والأطفال الذين هاموا على وجوههم في البراري والقفار، هرباً من أوباش جيش يزيد وعُتاته.

كانت المهمة صعبة جداً، ولكن السيدة زينب التي وطّنت نفسها على المهام الشاقة، لم يهدأ لها بال، ولم يسكن لها طرف، حتى أنجزت تلك المهمة

العسيرة.

رعت السيدة زينب الإمام المريض، وحمته من النيران المشبوبة في الخيام، ومن رشقات السهام، وجمعت النساء الأيامى تشدّ من أزرهنّ، وتهدّئ من روعهـــنّ، وتكفكف دموعهنّ، وتمسح على رؤوس الأطفال اليتامى، وهم يتصاغون جوعاً وعطشاً، وتكاد تنخلع قلوبهم فزعاً وهلعاً.

* * *

## زينب في السبي

حمـــل رأس الحسين ورؤوس آله وأصحابه على أطراف الرماح، وسيق خلفهـــا موكب السبايا من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم على رواحل بـــلا رحـــال، وتقصّد الشمر بن ذي الجوشن أن يمرّ بالموكب الأسير على أرض المعـــركة، ليريهم قتلاهم معفّري الأجساد، مقطّعي الأوصال، مبعثرة أعضاؤهم فوق الرمال، مفصولة رؤوسهم عن الأبدان، وتوقف الإمام زين العـــابدين عـــلي بن الحسين عليهما السلام على جسد أبيه، فانتابته رعدة ارتعـــش لهـــا بدنه، واصفرّ وجهه، ووهنت قواه، وغامت الدنيا في عينيه، فبادرته عمّته زينب تُصَبّره وتهوّن عليه الخطب الذي لايهون:

- مالي أراك تجود بنفسك يابقية جدّي وأبي وإخوتي؟!.

- عمّـــة زينب، وكيف لاأجود بنفسي وأنا أرى أبي الحسين، وإخوتي وعمومـــتي وبني عمي وأهلي مجزّرين، مضرّجين بدمائهم مرمّلين، مسلّبين

لايُكفّـــنون، وصرعى لايدفنون، في هذه الأرض البعيدة والغربة الشديدة، فكيف لاأجزع وأهلع؟!.

– لايجزعنّك ماترى يابن أخي وقرة عيني، فوالله إن كل ذلك لعهد من الله إلى جـــدّك وأبـــيك، ولقد أخذ الله ميثاق أناس من هذه الأمة لاتعرفهم فراعـــنة الأرض، وهـــم معـــروفون في أهل السماوات، أنهم يجمعون هذه الأعضـــاء المقطعة، والجسوم المضرّجة فيوارونها، وينصبون بهذا الطفِّ عَلَماً لقـــبر أبـــيك ســـيد الشهداء، لايدرس أثره ولا يمحى رسمه على كرّ الليالي والأيام، وليجتهدنّ أئمة الكفر وأشياع الضلال في محوه وتطميسه، فلا يزداد أثره إلاّ ظهوراً، وأمره إلاّ عُلُواً.

وإمعانـــاً من الشمر وطغاة جيش يزيد وعبيد الله بن زياد، في الكيد لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقد تعمّدوا كذلك أن يضعوا رأس الحسين أمام ناظري أخته زينب وابنه زين العابدين وبقية السبايا، ليغيظوهم ويحرقوا أكبادهم حسرة وألماً، فما فتّ شيءٌ من ذلك الكيد في عضد السيدة زينب، ولا أوهـــن من عزيمتها، بل زادها كل ذلك تصميماً على التصدي لأولئك الطغـــاة وأتـــباعهم بكل جرأة وحزم، وصدق ووعي، لتكون شاهد العيان الصادق لمأساة كربلاء بجميع أبعادها، ولسان الصدق الناطق بأمانة عن ثورة الحق على الباطل، بقيادة أخيها الإمام الحسين، تفصح بكل دقة عن أهدافها ومـــبادئها وغاياتها، وتشرح بكل أمانة مجرياتها وأحداثها، وتروي لجماهير الـــناس أفـــانين الطغيان التي أبداها بنو أمية وولاتهم الموتورون الحاقدون، ولتشـــرع أبـــواب البطولة والشهامة والجهاد في سبيل الدين الحق والرسالة

الخـــالدة، ليــلجه الثائرون الصادقون المخلصون، استكمالاً لطريق النصر، وتأكيداً لهزيمة الطغيان.

وصل الركب الأسير إلى الكوفة، وبدأوا التطواف به في شوارعها كما أمر الطاغية الخبيث عبيد الله بن زياد، واحتشدت في استقبالهم الجموع من جمـــاهير أهـــل الكوفـــة، المتعطشة لمعرفة هوية هؤلاء السبايا، الذين أشاع الإعلام الأموي أنهم من خوارج الترك والديلم.

وإذ فوجئـــت الجمـــاهير المحتشدة بوجوه السبايا الوضيئة، التي علتها سمـــات الهيـــبة والوقـــار، وشعّت منها الأنوار، اندفعت إحدى النساء تشق طريقها نحو السيدة زينب رغم سياط الجلاّدين العتاة، فلما وصلت إليها بعد جهد سألتها باستغراب:

- من أي الأسارى أنتنّ يا امرأة ؟!.

وأجابـــتها السيدة زينب بصراحتها المعهودة وصدقها المعروف، وبإيجاز هـــو عـــين الإعجـــاز في مثل هذا المقام، لتلقمها إياه شعاراً تنادي به في الجماهير:

- نحن أسارى أهل البيت من آل محمد.

وأُجفلـــت المرأة وارتدّت مذعورة وجلة إلى جموع النساء تصيح وتردّد وحرقة الألم بادية على وجهها، والدموع تسيل مـــن عينيها، ولوعة الأسى ظاهرة في صوتها:

- الأســـارى هم أهل البيت من آل محمد، الأسارى هم أهل البيت من آل محمد، الأسارى هم أهل البيت من آل محمد ..

وتصاعد النواح والعويل من جموع النسوة وهنّ يلطمنَ صدورهنّ ووجوههنّ، وقد شخصنَ جميعاً بأبصارهنّ إلى زينب، والدموع تجري من مآقيهنّ.

وتريثت زينب قليلاً، ريثما عمّ النواح والعويل كل النساء، وسرى منهنّ إلى جموع رجال أهل الكوفة، ثم أشارت بيدها للجموع أن اسكتوا فسكتوا كأن على رؤوسهم الطير، وشخصوا إليها بأبصارهم ووجوههم، وأعاروها أسماعهم وقلوبهم، فاتجهت إليهم تخاطبهم بصوت جهوري لاتشوبه شائبة، ولسان فصيح زلق لاينتابه عيٌّ ولا يعتريه حصر، وكأنها تنطق بلسان أبيها علي بن أبي طالب وأمها الزهراء عليهما السلام:

- (ياأهل الكوفة، ياأهل الختل والخذل، أتبكون ؟!! فلارقأت الدمعة ولا هدأت الرنّة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، تتخذون أيمانكم دخَلاً بينكم، ألا بئس ماقدّمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون، أتبكون وتنتحبون ؟!.. إي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً بانتهاككم حرمة ابن خاتم الأنبياء، وسيد شباب أهل الجنة، ألا ساء ماتزرون، وبعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي وخسرت الصفقة، وتولّيتم بغضب الله تعالى، وضربت عليكم الذلّة والمسكنة .. ويلكم ياأهل الكوفة، أتدرون أي كبدٍ لرسول الله فريتم، وأي دمٍ لـه سفكتم، وأي حرمةٍ له انتهكتم، وأي كريمةٍ لـه أبرزتم ؟! .. لقد جئتم شيئاً إدّاً تكاد السماوات يتفطّرنَ منه وتنشق الأرض وتخرُّ الجبال هدّاً، لقد جئتم بها خرقاء شوهاء كطلاع الأرض وملء السماء، أفعجبتم إن مطرت السماء دماً ؟!

ولعـــذاب الآخـــرة أخزى وأنتم لا تُنصَرون، فلا يستخفنّكم المهل، فإنه عزّ وجلّ لايحفزه البدار، ولا يُخشى عليه فوت الثار، وإن ربكم لبالمرصاد).

ماذا تقولـــون إن قـــال النبي لكم ... مـــاذا صنعتم وأنتم آخـــر الأمم
بأهـــل بيتي وأولادي ومكرمتي ... منهم أسارى ومنهم ضُرّجوا بدم
ماكان ذاك جزائي إذ نصحت لكم ... أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي
إني لأخشى عليكم أن يـــحلّ بكم ... مثل العذاب الذي أودى على إرم

اضطرب أهل الكوفة أيما اضطراب، وخاف ابن زياد مغبة هذا الخطاب، فتراجع عن أمره السابق أن يطاف بالموكب في شوارع الكوفة، وأمر فحيل بـــين موكب السبايا والجماهير المنفعلة المهتاجة، وأُدخلت السبايا قصر ابن زياد.

دخـــل عبـــيد الله بن زياد مجلسه في زُهُوٍّ واختيال، يهزُّ عِطفيه كِبراً، ويـــنظر في برديه تيهاً، فلما استقرّ في مجلسه، امتد بصره من بين السبايا إلى امـــرأة قد تنكرت غاضّةً بصرها، وقد حفّت بها الأسيرات من أهل بيتها، فهاله ماكان عليها من هيبة وجلال رغم تنكرها، فسأل:

- من هذه الجالسة هناك؟.

لم يلق ابن زياد منها جواباً، استخفافاً به وتحقيراً لشأنه، فأعاد سؤاله ثانية وثالثة فلم تُحِرْهُ جواباً، ولم تُعِرْهُ اهتماماً، فامتلأ قلبه غيظاً، واستشاط صدره غضباً، وسارعت إحدى الحافّات بها فأجابت:

- إنهـــا زينب بنت فاطمة عليها السلام، بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال ابن زياد منفّساً عن غيظه:

– الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أُحدوثتكم.

ورأت السيدة زينب عليها السلام، أن الفرصة قد سنحت، وأنه قد حان أوان امتشـــاق حسام البيان، وتجريد سيف الكلمة، في جهاد من نوع جديد، فأجابت:

– الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وطهّرنا في محكـــم تنزيله تطهيراً، كما يقول الله تعالى لاكما تقول أنت يابن مرجانة، وإنما يُفتضَح الفاسق ويُكذّب الفاجر، وهو غيرنا.

عاد مرجل الغضب يغلي في صدر ابن زياد، ولكنه تصنّع الهدوء وقال:

– فكيف رأيتِ صنع الله في أهل بيتك؟.

– مارأيـــت إلاّ جمـــيلاً، أولئك قوم كتب الله عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتختصمون عنده، فتعلم عندئذٍ من يأتيه عذاب يخزيه ويحلُّ عليه عذاب مقيم، ثكلتك أمك يابن مرجانة.

استشـــاط ابـــن زيـــاد من هذا الجواب غضباً، واربدّ لذلك وجهه، وتحشـــرج صوته في صدره، وهمّ أن يبطش بها ساعتئذٍ، فقال له عمرو بن حريث:

– إنها امرأة أيها الأمير، والمرأة لاتؤاخذ بشيء من منطقها.

اضـــطر ابن زياد أن يمسك عنها، وأن يتراجع عما همّ به، لكنه عقّب على كلامها بلؤم وحقد:

– قد شفى الله غيظي من طاغيتك، والعصاة المردة من أهل بيتك.

كانت السيدة زينب تستدرج ابن زياد لتريه العزّة من نفسها ومن أهل البيت، وثباتهم على الحق مهما كانت الظروف ، وكان ابن زياد من جهته يستدرجها كذلك لموقف يعطيه أمام الناس المبرر للانتقام منها، أو للنيل من عزتها وكرامتها.

ولم يغب عن فطنة زينب قصد ابن زياد، واستشفّت ماانطوت عليه نفسه وما أكنّت سريرته، فأرادت بحكمتها أن تهدّئ الموقف، وأن تقطع عليه طريق الانتقام، خاصة وأن غايتها قد تحققت بهذا القدر من الحوار، وأن عليها مسؤولية أخرى أهم لم تنته منها بعد، وهي رعاية الأسرى وحماية الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام، كيلا ينقطع النسل الطاهر من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك فقد اختارت السيدة زينب جواباً يثير الناس على بني أمية ولو آجلاً، وإن بدا منه عاجلاً بعض الانكسار أو الضعف أمام تهور الطغيان وطيشه، فقالت والدموع تنساب من عينيها:

- لعمري لقد قتلتَ كهلي، وأبَرْتَ أهلي، وقطعتَ فرعي، واجتثثتَ أصلي، فإن يشفكَ هذا فقد اشتفيتَ.

لم يكن يتوقع ابن زياد منها هذا الجواب، وأحسّ أنه قد أُسقط في يده، وسُحِبَ البساط من تحته، فتابع محاولة التصعيد أملاً في أن ينال منها بغيته:

- هذه شجاعة، ولعمري لقد كان أبوها شجاعاً.

- مالـلمرأة وللشجاعة، إن بي عنها لشغلاً، وإني لأعجب ممن يشتفي بقتل أئمته وهو يعلم أنهم منتقمون منه في آخرته !.

سـكت ابن زياد على مضض، وصعّد نظره في السبايا وهو يفكر بأمر جديـد يصل من خلاله إلى غايته، وينال به من آل محمد بغيته، فوقع نظره علـى شاب في مقتبل العمر، قد أثّر به المرض، وأخذ منه التعب والإجهاد كل مأخذ، ليس في السبايا من الرجال غيره، فأمّل ابن زياد أن يحقق في أهل البيت بغيته عن طريق هذا الشاب.

قال له ابن زياد:

- مااسمك ؟.

- علي بن الحسين.

- أوليس الله قد قتل عليَّ بن الحسين ؟.

سكت الشاب و لم يجب ابن زياد على سؤاله الفج.

- مالك لاتتكلم ؟.

- كان لي أخ أكبر مني يسمّى علياً، قتله الناس بأسيافهم .

- بل قتله الله.

إنـه الامـتحان الصعب، والموقف الذي يحتاج إلى الحكمة البالغة، وإن الإمـام السجّاد ليعلم يقيناً أنه إن سكت عن الجواب، فسيحثه ابن زياد على الكـلام، ولـن يتركه حتى يتكلم، وإن هو ردّ على ابن زياد الجواب الذي يسـتحقه، أعطـاه المبرر لقتله وحقق له بغيته، فاقتضت دقة الموقف وحكمة الإمـام أن يفزع إلى كتاب الله تعالى، وأن يُنْطِقَ آياته المحكمات، فقال بهدوء وطمأنينة نفس: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَـنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرى إِلى

أَجَـلٍ مُسَـمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾ سورة الزمر.

ورغـم توازن الإمام وحكمته وصدق الجواب ورقته ودقته، فقد شعر ابـن زياد بالهوان، وأُفلت زمام الحقد واللؤم عنده، وصمّم على قتل الإمام مهمـا كانت الظروف، فصاح بغضب وغيظ وقد استلّ سيفه وجرّده من غمده:

- أنت والله منهم، قتلني الله إن لم أقتلك.

- أتخوفـني بـالموت يابن زياد ؟ إن الموت لنا عادة، وكرامتنا من الله الشهادة.

وأسرعت السيدة زينب في هذه اللحظة الحاسمة، فانكبّت على ابن أخيها علي بن الحسين، تحميه بجسدها وهي تقول:

- حسـبك مـنا يابن زياد، أما رَوِيتَ من دمائنا واشتفت نفسك منا، وهل أبقيت منا أحداً ؟!.

كان على السيدة زينب أن تحفظ الإمام بأي ثمن، فهو بقية النبوة وفرع الإمامـة الوحيد المتبقي، وليس على ظهر الأرض يومئذ إمام غيره، والدنيا لاينـبغي أن تخلو من حجة لله على الناس ولو لحظة، ولذلك فإن زينب لما رأت إصـرار طاغية بني أمية ابن زياد على قتله، انكبّت عليه بجسمها وهي تقول: ( لاوالله يابن زياد، لاتقتله حتى تقتلني قبله).

وأمام إصرار زينب وإقدامها، واعتراض بعض جلساء ابن زياد وحاشيته مـن أهـل الكوفة، وتدخل العناية الإلهية في تلك اللحظة، تراجع الطاغية

مضـــطراً وهو يصرف بأسنانه من الغيظ، ونظر إلى السيدة زينب مليّاً وهي تحتضـــن عـــليّ بن الحسين، وتقيه بنفسها وجسدها، ثم قال مظهراً التأثر: (عجـــباً للرحم، والله إني لأظنها ودّت أني قتلتها معه أو قبله، دعوا الغلام ينطلق مع نسائه، فإني أراه لما به مشغولاً).

إنه الطغيان والنفاق عندما يمتزجان معاً مراعاة لجماهير المسلمي ، ولو أن ابن زياد أمن ثورة الجماهير من أهل الكوفة، لما توانى لحظة عن قتل علي بن الحســين وعمّته زينب بنت علي معه، فليست أخلاقه ولا ضميره ولا دينه، بالتي تمنعه من الإقدام على تلك الخسّة والنذالة.

* * *

## موكب السبايا في الطريق إلى الشام

انفـــتح باب السجن الكبير في الكوفة، عن موكب من السبايا، مارأى الـــتاريخ مثله وضاءة ومهابة، رغم ماكنّ فيه من الأسر المذل، وما كان في أعناقهنّ وأيديهنّ من القيود والأغلال، وعلى عواتقهنّ من أنواع الحبال.

وكان ابن زياد قد نشر عتاة جيشه وحرسه في أرجاء الكوفة، وخاصة في الطريق الذي سيمر فيه الأسرى، وطلب منهم أن يكونوا على غاية من اليقظة والحـــذر، وأن لايـــترددوا في قمع أي حركة مريبة من أهل الكوفة، الذين لاينســـى ابـــن زياد أنهم قد كانوا يوماً أشياع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وأن ابنه الإمام الحسين عليه السلام، كان أملهم المرتجى للخلاص من

ظلم معاوية وابنه يزيد، وأن السيدة زينب كانت زمن خلافة أبيها في العراق معــلمة نساء الكوفة، وصاحبة المدرسة الكبرى في تعليم الفقه وتفسير القرآن ونشــر تعالــيم النبوة، وكان كل هذا مصدر قلق كبير وخوف شديد، من انطلاق شرارة ثورة جديدة في الكوفة، قد لاتحمد عقباها، وربما تودي بكل ماكــان قــد حققــه من نصر عاجل موهوم، ولذلك كله، فإنه ما أن غادر الركب الكوفة وأصبح خارج أسوارها، حتى استعاد ابن زياد أنفاسه المحبوسة، وتنفس الصعداء.

أمــا موكب السبايا المكدود، فقد انطلق إلى محنة أخرى شديدة الوطأة عــلى الإمــام السجاد المريض، وعلى عمّته السيدة زينب، وبقية الأرامل واليتامى المتعبين من طول الرحلة وثقل القيود، لقد انطلقوا لتوهم إلى رحلة جديدة طويلة وشاقّة، لم يذقهم جلاوزة ابن زياد خلالها طعم الراحة والنوم إلاّ قليلاً.

كــان شمر بن ذي الجوشن يسير بهم ليلاً ونهاراً، حتى أن الطريق الذي تقطعه الإبل ذوات القوة والصبر في شهر كامل، قطعه موكب الأسارى في عشــرة أيام، ذاقوا خلالها كل صعب ومرٍّ، من الاضطهاد والتعذيب والذلّ والهوان.

ورغــم التعب الكبير والإرهاق الشديد الذي حلّ بالسيدة زينب، فإنها لم تــتوان لحظة عن تفقد الأطفال والنساء، ولم تغفل عن رعايتهم والعناية بشؤونهم، ومدّ يد العون والمساعدة إليهم، ومواساتهم في كل ما كان يحزنهم من أمر، أو يجري عليهم من شأن.

كانت سكينة بنت الحسين صبيةً صغيرةً، لم يَقْوَ جسدها على كل هذا التعب والنصب اللذين أخذا منها كل مأخذ، بسبب طول السفر وخشونة المركب وسرعة المسير، فلم تتمالك أن رفعت صوتها بالبكاء وهي تنادي: (واحسيناه، وأباه، واسيداه)، فما كان من شمر إلاّ أن جاءها فجذبها بيده بغلظة وقسوة، ورمى بها في الصحراء المظلمة، ومضى يتابع المسير، فجعلت سكينة تركض وراء الإبل، وهي تبكي وتصرخ وتستغيث، خوف أن تضيع في هذا الليل المظلم، في أحشاء تلك الصحراء الموحشة، وشمرٌ يحث الركب ويستعجله في المسير، غير آبهٍ بصراخ الصبيّة الصغيرة واستغاثتها، لولا أن السيدة زينب ألقت بنفسها عن ظهر راحلتها وراحت تبحث عن ابنة أخيها وراء الركب، ممّ اضطرَّ شمراً لإيقاف الركب ريثما عادت العقيلة زينب بسكينة، وأركبتها معها وهي تبكي وتقول:

ماتت رجالي وأفنى الدهر ساداتي    وزادني حسراتٍ بعد لوعات
صال اللئام علينا بعد ما علموا    أنّا بنات رسولٍ بالهدى آتي
يسيّرونا على الأعتاب عاريةً    كأننا بينهم بعض الغنيمات
يَعْزُزْ عليك رسول الله ما صنعوا    بأهل بيتك ياخير البريّات
كفراً بما جئتهم من فرض طاعتهم    وقد أهبتَ هم حسن المودّات

فزجرها شمر بن ذي الجوشن، وألهب ظهرها بالسوط، فسكتت والدموع تنهمر على خدّيها.

لكن المشهد الأقسى على السيدة زينب ومن معها، كان ينتظرهم على أبواب مدينة دمشق، حيث كان أهل الشام متجمهرين في أبهى زينة، وكأنما

هـــم في عرس أو عيد، قد ارتسمت على وجوههم علائم البهجة والسرور، وبـــدت عليهم أمارات الطرب والنشوة والحبور، وارتفعت أيديهم بالدفوف والطـــنابير، والأبـــواق والطبول والمزامير، وراحوا يتراقصون ويتمايلون، وقد صاح صائحهم:

- ياأهل الشام، هؤلاء سبايا بيت الملعون.

لم تتمالك السيدة زينب أمام هذا المشهد القاسي، على ماتميّزت به من جلـــد، وماعُرفـــت به من صبر، أن ضربت بكفها على رأ سها، ولطمت وجههـــا وصدرها، وهي تتميّز من الغيظ والقهر، حتى تمنّت أنها لم تكن قد عاشت لذلك اليوم، ورأت فيه مارأت من الضغينة والحقد، على أهل بيت الوحي والنبوة والرسالة، من أولئك الهمج الرعاع، الذين أوصلتهم حكومة معاوية وابنه يزيد، إلى هذه الدرجة من الانحطاط والانحدار، حتى لقد رأى أهـــل بيت النبوة والعصمة منهم من الفظائع والمحن، ما دفع الإمام السجاد عليه السلام حين سئل عن أشد مصيبة أصابتهم في الأسر أن يقول: ( الشام !! الشام !! الشام !! ) دون أن يزيد على ذلك حرفاً، وهذا من الإمام كلام مابعده كلام، لأنه لم يجد الكلمات التي تستوعب تماماً مالقيه أهل البيت من أهل الشام، ومن طاغيتها يزيد بن معاوية، بفعل التجهيل والتعتيم الإعلامي الشـــديد، الذي مارسه الأُمويون على قلوب الناس وعقولهم، حتى أن شيخاً دنا من نساء الحسين عليه السلام وعياله وقال لهم:

- الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم، وأراح البلاد من رجالكم، وأمكن أمير المؤمنين منكم.

فابتسم له الإمام زين العابدين وسأله:

- ياشيخ، هل قرأت القرآن ؟.

- نعم.

- هـــل قرأت فيه قوله سبحانه : ﴿ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) ﴾ ؟ سورة الشورى.

- قد قرأت.

- نحـــن القربى ياشيخ، هل قرأت فيه: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَــيْءٍ فَــأَنَّ للهِ خُمُسَــهُ وَلِلرَّسُــولِ وَلِــذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَســاكِينِ وَابْــنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَما أَنْزَلْنا عَلى عَــبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)﴾ ؟ سورة الأنفال.

- نعم قرأت.

- نحـــن القربى ياشيخ، هل قرأت: ﴿ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) ﴾ سورة الأحزاب.

- قد والله قرأت.

- نحن أهل البيت الذين خصنا الله بآية التطهير ياشيخ.

- بالله إنكم هم ؟.

- تالله إنا لنحن هم من غير شك، وحق جدّنا رسول الله إنا لنحن هم.

عـــندئذ بكى الشيخ نادماً على مابدر منه بحق آل الرسول، محزوناً على ماحلّ بهم من قتل وسبي، متغيظاً من يزيد وزمرته على سوء طويّتهم وفساد مســـلكهم، ومـــا ضلّلوا الناس به من زيف دعاياهم، ثم رمى عمامته على الأرض مستصغراً نفسه، ورفع يديه إلى السماء داعياً ربّه:

- الـــلهم إني أبرأ إليك من عدوٍّ آل محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، من الجن والإنس، وأتوب إليك من جهلي وسوء قولي، فاغفر لي ماأجرمت في حق أوليائك، واقبل توبتي.

- غفر الله لك ياشيخ وقبل توبتك.

* * *

مـــرّ موكـــب السبايا من بين المتفرجين والشامتين، وقد تفنّن الناس في إيذائهـــم وإسمـــاعهم مايكرهون، يتقدّمهم ثمانية عشر رأساً قد رفعت على الـــرماح، ورأس الإمام الحسين على رمحٍ بيد الشمر بن ذي الجوشن، وهو ينادي مزهوّاً مخموراً:

أنا صاحب الرمح الطويل    أنا قاتل الدين الأصيل

وتحاملت السيدة زينب على نفسها رغم الإجهاد والتعب الشديد، تردّ عليه بكل جرأة وشجاعة:

- ويلك عدوَّ الله وعدوَّ رسوله، تفتخر عند يزيد بقتل من ناغاه في المهد جـــبرائيل وميكائيل، واسمه مكتوب على سرادق عرش رب العالمين، ومن خـــتم الله بجـــدّه محمد المرسلين، وقمع بأبيه عليٍّ المشركين، فمن أين لك

ولطاغيتك مثل جدّي محمد المصطفى، وأبي عليٌّ المرتضى، وأمي فاطمة الزهراء، صلوات الله عليهم أجمعين ؟!.

بلع الشمر هذا التقريع من زينب، وتمالك نفسه أن تمتدّ إليها يده بسوء أمام الناس خوف اللوم والعتاب، وساق الركب إلى محبس لاسقف فوق جدرانه، قد أُعِدَّ سلفاً من قبل يزيد، محبس خَرِبٍ لايُكِنُّ من حرٍّ، ولا يقي من برد، يكاد من ضيقه أن يحبس الأنفاس، وتكاد رائحته أن تزكم الأنوف.

* * *

## *زينب في مجلس يزيد*

جلس الطاغية يزيد بين حاشيته مزهوّاً، ينظر جذلانَ فرِحاً إلى رأس الحسين عليه السلام، وقد ظنّ أنه قد ضحك له الزمان، وصفا له الملك والسلطان، فتطاول بقضيب في يده إلى ثنايا أبي عبد الله الحسين، ينكثها به تشفّياً وانتقاماً، غير عابئ بمن حوله، مترنّماً بأبيات من الشعر:

لیت أشياخي ببدرٍ شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فَرَحاً ... ثم قالوا : يايزيدُ لاتُشَل
قد قتلنا القرم من ساداتهم ... وعدلنا مَيل بدرٍ فاعتدل
وأخذنا من عليٍّ ثأرنا ... وقتلنا الفارس الشهم البطل
لعبت هاشم بالملك فلا ... خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل

لستُ من خِندِفَ إن لم أنتقم ... من بني أحمدَ ما كان فعل

لكن السيدة زينب عليها السلام، بحميّتها وغَيرتها وجرأتها وشجاعتها قطعت على يزيد حبل سعادته، وأخرجته من أحلامه وأوهامه الباطلة، حين تصدّت لسلوكه المَشين مع ثنايا أخيها الإمام أبي عبد الله الحسين، وفضحت بجرأتها المخبوء في طيّات مالاكه من الشعر، ووقفت تخاطبه غير هيّابة ولا وجلة، أمام الحشد الكبير ممن حضر مجلسه من أهل الشام:

[أظننتَ يايزيد حين أخذتَ علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نُساق كما تُساق الأُسارى، أن بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة؟ وأن ذلك لعِظَم خطرك؟ فشمختَ بأنفكَ، ونظرتَ في عِطفكَ، جذلانَ مسروراً، حين رأيتَ الدنيا لك مستوسقة، والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا ؟!].

حاول يزيد أن يلتقط أنفاسه من الدهشة .. ياالجرأة هذه المرأة !! ويالبلاغتها وفصاحتها!! إنها لو استمرّت في خطابها بهذه الجرأة والفصاحة والبلاغة، فستقلب عليه الأمر رأساً على عقب، وستؤلب عليه جماهير أهل الشام .. يجب أن توقَفَ هذه المرأة عن الكلام بأي سبب من الأسباب، وأية صورة من الصور .. ولكن كيف؟ وماهو السبب؟ لكن السيدة زينب لم تتح له فرصة الاعتراض أو مصادرة حقها في الكلام، فتابعت:

[فمهلاً – يايزيد– مهلاً، لاتطش جهلاً، أنسيتَ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨)﴾ سورة

آل عمـــران، أمـــن العدل يابن الطلقاء، تخديرُك حرائرك وإماءك، وسوقُك بـــنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قد هُتِكت ستورهنّ، وأُبديت وجوههـــنّ، تحـــدو بهنّ الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهنّ أهل المناهل والمعاقل، ويتصفّح وجوههنّ القريب والبعيد، ليس معهنّ من حماتهنّ حميٌّ، ولا مـــن رجـــالهنّ وليٌّ ؟! وكـــيف يُرتجى مراقبة أبناء من لفظ فوهُ أكباد الأزكـــياء، ونبت لحمه من دماء الشهداء ؟ وكيف يُستبطأُ في بغضنا أهلَ البيـــت من نظر إلينا بالشّنف والشنآن، والإحن والأضغان؟!. ثم تقول غير متأثّمٍ ولا مستعظم:

قد قتلنا القرم من ساداتهم　　وعدلنا مَيْلَ بـــدرٍ فاعتدل

منحنـــياً عـــلى ثنايا أبي عبد الله سيد شباب أهل الجنة تنكتها بمخصرتك، وكـــيف لاتقـــول ذلك وقد نكأْتَ القرحة واستأصلت الشأفة، بإراقة دماء ذريـــة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ونجوم الأرض من آل عبد المطّلب؟ وهـــتف بأشياخك زعمتَ أنك تناديهم، فلَترِدَنّ وشيكاً موردَهم، ولَتودّنّ أنـــك شُللتَ وبَكُمتَ ولم تكن قلتَ ماقلتَ وفعلتَ مافعلت، اللهم خذ لنا بحقنا، وانتقم لنا ممن ظلمنا، وأَحْلِلْ غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حُماتنا، فوالله يايزيد، مافريتَ إلاّ جلدك، وماحززتَ إلاّ لحمك، ولَترِدَنّ على رسول الله صـــلى الله عليه وآله وسلم، بما تحمّلتَ من سفك دماء ذريته، وانتهكت مـــن حرمته في عترته ولُحْمتِه، حيث يجمع الله شملهم ويلمُّ شعثهم ويأخذ بحقوقهـــم ، ﴿وَلا تَحْسَـــبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْـــيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ سورة آل عمران ، وحسبك

بالله حاكماً، وبمحمد خصيماً، وبجبرائيل ظهيراً، وستعلم ومن ولاّكَ، وأبوك ومــــن ولاّهُ، ومكّنكما من رقاب المسلمين، أيُّكم شرٌّ مكاناً وأضعف جنداً، وبئس للظالمين بدلاً.

ولــئن جــرّت عليّ الدواهي مخاطبتك، إني لأستصغر قدرك،وأستعظم تقــريعك، وأســتكثر توبيخك، لكنّ العيونَ عَبرى، والصدورَ حرّى، ألا فالعجــب كــل العجب، لقتل حزب الله النجباء، بحزب الشيطان الطلقاء، فهــذه الأيدي تنطف من دمائنا، والأفواهُ تتحلّب من لحومنا، وتلك الجثثُ الطواهــر الزواكي تنتابها العواسل، وتعفّرها أمهات الفراعل، ولئن اتّخذتّنا مغنماً لتجدنّا وشيكاً مَغرماً، حين لاتجد إلاّ ماقدّمت يداك، ومار بك بظلاّم للعبيد، وإلى الله المشتكى وعليه المعوّل، فَكِدْ كيدك، واسْعَ سعيك، وناصبْ جهدك،فــوالله لا تمحو ذكرنا، ولاتميت وحينا، ولا يَرحَضُ عنك عارها، وهل رأيُك إلاّ فَنَدٌ، وأيامك إلاّ عددٌ، وجمعك إلاّ بددٌ، يوم ينادي المنادي: ألا لعنة الله على الظالمين.

والحمد لله رب العالمين ، الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة، ولآخرنا بالشــهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمّل لهم الثواب، ويوجب لهم المزيد، ويحسن علينا الخلافة، إنه رحيمٌ ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل ].

كــان يــزيد يتململ في مجلسه كمن يتمدّد على الشوك، وهو يستمع مدهوشــاً مــأخوذاً إلى خطاب السيدة زينب، وكان الوثوب على أنياب الأفاعي، وركوب أطراف الرماح، أهون على يزيد من سماع هذا الاحتجاج الصــارخ والبيان الفاضح، وكم كان يودّ لو يستطيع مقاطعة هذا الخطاب

وإيقافه، ولكنه لم يكن يملك الجرأة لوقف هذا التوبيخ، وستر تلك الإدانة.

لم يكـــن يزيد يتمتع بأي قدر من الكياسة والحلم، ولم يكن سكوته عن خطـــاب السيـــدة زينب نوعاً من المكر والدهاء، وهو وإن كان قد ورث الكـــثير مـــنهما عن أبيه معاوية، وجدّه أبي سفيان، ولكنه كان كلما همّ بمقاطعتها، أسمعته جملة توهم بأنها ستنهي خطابها من تلقاء نفسها، فيسكت خوفـــاً مـــن إغضاب الجماهير وإثارتها بلا مبرر، ولولا خوفه وجبنه، وما فاجأتـــه به السيدة زينب من فضح لجريمته الكبرى التي اقترفها بحق السادة الأولياء من أهل بيت محمد، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، لما اكتفى يزيد بمجرد أن يهمّ بإسكاتها، ولكان قد أمر بالإجهاز على ماتبقى من أهل البيت رجـــالاً ونساءً وصبياناً، ليصفوَ له سلطانه، ويدومَ له ملكه،ولكنه لم يملك بعد هذا الخطاب إلاّ أن يقول:

يا صيحةً تُحمَدُ من صوائح　　ما أهون النوح على النوائح

ظانّـــاً أنه يردّ بذلك لنفسه الاعتبار، ويهوّن من كلام السيدة زينب بين المستمعين،ذلك الكلام الذي أحدث هزّةً عنيفةً في مجلس يزيد.

غطّـــى يزيد وجهه بيديه وهو يسمع مايدور حوله في المجلس، من همس خافـــت، سرعان ما تحوّل إلى احتجاج علني على سياسة يزيد، وموقفه من أهـــل البيـــت عليهم السلام، حتى راح الرجل يقول لمن بجواره: أي مصيبة حلّـــت بـــنا؟ وإلى أي درك من الغي والضلال وصلنا؟ وارتفعت الأصوات مندّدةً معترضةً على هذا العمل الشائن.

فما كان من يزيد إلاّ أن قام رافعاً صوته، لاعناً عبيد الله بن زياد، معلناً

براءته مما فعل من إراقة دم الإمام الحسين وذريّته وأصحابه.

وفيما هم في ذلك الهرج والمرج، نظر شاميٌّ إلى فتاةٍ بين الأسرى- وكانت فاطمة بنت الإمام علي عليه السلام- فأعجبه حسنها، فتقدّم إلى يزيد يطلب منه أن يهبه هذه الفتاة لتخدمه، ففزعت ابنة أمير المؤمنين وتعلّقت بأختها العقيلة زينب تلوذ بها، فقالت لها العقيلة: لاعليكِ فإن ذلك لن يكون أبداً، فقال يزيد بغيظ: لو أردتُ لفعلت، فردّت عليه زينب عليها السلام: لا، لايحلُّ لك ذلك إلاّ أن تخرج عن ديننا، فردّ يزيد بغضب ظاهر: إنما خرج عن الدين أبوكِ وأخوكِ، فأجابت زينب بكل هدوء: بدين الله ودين جدّي وأبي وأخي اهتديتَ أنت وأبوك إن كنتَ مسلماً،فصرخ يزيد مغتاظاً: كذبتِ يا عدوّةَ الله، فقالت عليها السلام: أنت أمير تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك.

وسكتَ يزيد هنيهةً، فإذا بالشامي يعاود الطلب، فزبره يزيد ونهره قائلاً له: أغرب، وهب الله لك حتفاً قاضياً(١).

أمام التململ الواضح والضجّة الاحتجاجية في المجلس، لم يكن أمام يزيد إلا أن يسارع بفض المجلس،كبحاً لبوادر الثورة التي ظهرت بوادرها، و لم يمنعه ذلك من أن يأمر بصلب رأس الحسين على باب المسجد ثلاثة أيام(٢)، كما

---

(١) ابن الأثير في الكامل ج٤ ص٣٥ ، وابن جرير الطبري في تاريخ الأمم والملوك الجزء السادس ص ٢٦٥، وابن كثير في البداية ج٨ ص١٩٤.

(٢) الخطط المقريزية ج٢ ص٣٨٩، والإتحاف بحب الأشراف ص ٣٣، ومقتل الخوارزمي ج٢ ص٧٥، والبداية لابن كثير ج٨ ص٢٠٤، وسير أعلام النبلاء ج٢ ص٢١٦.

أمــــر بالســـبايا فــأعِدْنَ إلى تلك الخربة، فأقاموا فيها ينوحون على الإمام الحسين.

* * *

## وفاة السيدة رقية في خربة الشام

لم تكـــن مصـــائب أهل البيت تقف عند حد، ففي حلكة الليل البهيم، أفاقت السيدة زينب وبقية النسوة على صراخ طفلة صغيرة، كانت تصرخ وتـــبكي بحرقة بالغة، وهي تنادي أباها، إنها الطفلة رقيّة بنت الإمام الحسين علـــيه الســـلام، رأت في منامها رجالاً يحيطون بأبيها الحسين ويقتلونه، ثم يذبحونه، فانتبهت من نومها وراحت تبكي وتصرخ، وارتفع صراخ النسوة معهـــا حتى وصل إلى أسماع يزيد، فلما علم سبب الضجة أمر أن يُرْفَعَ إليها رأس أبيها، فرُميَ في حضنها، فأخذته تقلّبه بين يديها وتقبّله، وهي تنادي: "ياأبتاه .. من ذا الذي خضّبكَ بدمائك؟ من ذا الذي قطع وريدك؟ يا أبتاه مـــن ذا الذي أيتمني على صغر سني؟ يا أبتاه من لليتيمة حتى تكبر؟ يا أبتاه من للعيون الباكيات؟ ياأبتاه من للضائعات الغريبات؟" ثم إنها وضعت فمها عـــلى فمـــه الشريف وبكت بكاءً شديداً حتى غشي عليها، فلما حرّكوها وجدوها قد فارقت الحياة، فدفنوها في تلك الخربة بين البكاء والعويل(١).

---

(١) معـــالي السبطين ج٢ ص٢١٤، وللسيدة رقية مقام فخم كبير في دمشق في باب الفراديس، على بعد حوالي مائة متر من الجامع الأموي الكبير، يومه الزوار من كل حدبٍ وصوب.

## هند زوجة يزيد تستقصي أخبار السبايا

وإلى تلك الخربة القريبة من قصر الإمارة، سعت زوجة يزيد "هند بنت عبد الله بن عامر بن كريز"، تستطلع خبر هؤلاء القوم، الذين خرجوا على زوجها ليزيحوه عن ملكه، ويسلبوها العزَّ والسلطان الذي هي فيه، والذين قال عنهم زوجها يزيد أنهم من الترك البغاة الخارجين على دولة الخلافة، جاءت هند لابسةً أفخر ثيابها وأجمل حليّها، فلما أبصرتها السيدة زينب عرفتها، فمالت إلى أختها أم كلثوم وقالت لها:

- أخية أم كلثوم، هذه خادمتنا هند بنت عبد الله جاءت تستطلع خبرنا.

وصلت هند إلى الخربة، وأطلّت تتفحص النساء، فرأت وجوهاً بريئة وضيئة، أين منها وجوه الترك والديلم، واستوقفتها مهابة تميّز بها وجه السيدة زينب، فاقتربت منها تسألها:

- من أي البلدان أنتنّ ؟!.

- من المدينة.

- أريد أن أسألك عن بيت في المدينة.

- سلي عما بدا لك.

- أسألك عن بيت علي بن أبي طالب عليه السلام.

- وأين لك معرفة بدار عليّ ؟.

– كنت خادمة عندهم.

– وعن أيهم تسألين؟.

– أسأل عن الحسين وإخوته وأولاده، وعن سيدتي زينب وأختها أم كلثوم، وبقية مخدّرات فاطمة الزهراء.

عندئذ أجهشت السيدة زينب بالبكاء وقالت لها:

– ياهند، ليتك لم تأتِ ولم تسألي، أما إذ سألت عن دار عليٍّ فقد خلّفناها تنعى أهلها، وأما إذ سألت عن الحسين عليه السلام، فهذا رأسه بين يدي زوجك يزيد، وأما إن سألت عن العباس وبقية أولاد عليّ عليه السلام، فقد خلّفناهم على الأرض مجزّرين كالأضاحي بلا رؤوس، وإن سألت عن زين العابدين عليه السلام، فها هو عليلٌ نحيلٌ لايطيق النهوض من كثرة الأسقام والقيود، وإن سألت عن زينب، فأنا زينب بنت علي، وهذي أختي أم كلثوم،وهؤلاء بقية مخدّرات فاطمة الزهراء عليها السلام.

جفلت هند وذُعرت، وذُهلت ودهشت وهي تسمع هذا الكلام، ثم بكت وصرخت:

– وإماماه .. واسيداه ..واحسيناه .. وازينباه .. ليتني كنت قبل هذا اليوم عمياء ولا أنظر إلى رأس الإمام الحسين، وبنات فاطمة الزهراء على هذه الحالة.

– قومي ياهند واذهبي إلى دارك، فإني أتخوّف عليك من بعلك يزيد.

لكن هند لم تبالِ بما يمكن أن يفعله بها زوجها يزيد، فقالت لزينب:

– لا والله لا أذهب، حتى أنوح على سيدي ومولاي الحسين، وحتى

أدخلك وسائر النساء الهاشميات معك داري.

كانت هند جادّةً فيما قالت، فما أن وصلت قصر زوجها يزيد، حتى حسرت عن رأسها، وشقّت ثيابها، وهتكت الستر القائم بينها وبين حاشية القصر، وخرجت حافيةً معولةً إلى يزيد وهو في مجلسه العام الحاشد، وصرخت في وجهه قائلةً:

- أبلغت بك الجرأة يايزيد أن تأمر بقتل ابن بنت رسول الله وسبي نسائه، ثم تجلس هانئاً في مجلسك هذا؟!.

أذهلت المفاجأة يزيد، فما كان يدور في خلده أبداً أن تدخل عليه زوجته هند بهذه الصورة، وأن تخاطبه بهذا الكلام، وهو زوجها أولاً، وهو الملك الآمر الناهي ثانياً، ولكنه تمالك نفسه، وهبّ مسرعاً إلى زوجته فغطّى رأسها، ثم مالبث أن أردف:

- نعم أعولي ياهند، وابكي على ابن بنت رسول الله، وصريخة قريش، فلقد عجّل عليه ابن زياد لعنه الله، فقتله قتله الله(١).

والتقطت هند الفرصة السانحة من يزيد، عندما رأته قد غطّاها وألقى باللائمة على عبيد الله بن زياد، فعاجلته بقولها:

- ويلك يايزيد، أخذتك الحميّة عليّ، فلم لا أخذتك الحميّةعلى بنات فاطمة الزهراء؟ هتكتَ ستورهنّ، وأبديت وجوههنّ، وأنزلتهنّ في دارٍ خربةٍ!، لا والله لا أدخل حرمك حتى أدخلهنّ معي.

---

(١)معالي السبطين ج٢ ص ١٧٣- ١٧٥.

وما أسرع ما بادرت هند إلى توشيح قصر الإمارة بالسواد، ودعت النساء إلى إقامة العزاء على الإمام الحسين بن علي عليهما السلام.

وهكذا نالت هند من يزيد ما أرادت، فجيء بزينب ومن معها من النسوة الهاشميات إلى دار يزيد، فلما دخلن استقبلتهنّ نساء آل أبي سفيان، وقبّلن أيدي بنات رسول الله، ونُحْنَ وبكينَ وألقينَ ما عليهنّ من الثياب والحليّ، وأقمن المآتم ثلاثة أيام (١).

وتعدّى البكاء والعويل قصر يزيد إلى بيوت الشام، وجاءت عيون يزيد تنقل له بوادر ثورة تكاد تشمل أهل الشام، وتطيح به وبملكه، فخاف يزيد مغبّة ذلك الأمر الذي لم يكن يحسب حسابه، وأراد أن يسترضي العقيلة زينب ومن معها من عقائل بني هاشم، فدعاهنّ وعرض عليهنّ المقامَ في الشام، فأبين ذلك وأردنّ الرجوع إلى المدينة المنوّرة.

كان يزيد يريد أن يحبسهنّ عنده في الشام، ليراقب جميع حركات بني هاشم وسكناتهم، لكن مروان بن الحكم نصحه بإرسالهنّ إلى الحجاز إبعاداً لهنّ عن الشام، فاستدعى النعمان بن بشير على عجل، وأمره بتجهيز بني هاشم للعودة بهنّ إلى المدينة المنوّرة، وطيّ صفحة هذا الموضوع الخطير، ليصفو له الجو ويهنأ بملكه، بعد أن تخلّص من أقوى المعارضين لهذا الملك المؤسّس على الفساد والدم.

---

(١) معالي السبطين ج٢ ص ١٧٣- ١٧٥.

* * *

# الفصل الأخير

# الانعتاق من الأسر الكبير

## العودة إلى المدينة

في صباح اليوم التالي كان الركب جاهزاً للمسير، وكانت المحامل قد زينت بأبهى زينة، لكن السيدة زينب بحكمتها وذكائها وسرعة بديهتها، فطنت إلى مايريده يزيد من إظهار البراءة من قتل الإمام الحسين عليه السلام وسبي نسائه، وأنه قد أرضى العقيلات وردّهنّ معزّزات مكرّمات، فأمرت بإزالة الزينة عن المحامل قائلةً: "اجعلوها سوداءَ حتى يعلمَ الناس أنّا في مصيبة وعزاء لقتل أولاد الزهراء"(١).

وقبل أن يتحرك الركب الميمون، طلبت السيدة زينب من يزيد أن يردّ معها جميع رؤوس شهداء كربلاء، لتردّها إلى أجسادها في كربلاء، فأبى يزيد أن يستجيب لطلبها، لكن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، أصرّ على أن يصحب معه رأس أبيه الإمام الحسين عليه السلام، فلم يجد يزيد مناصاً من الاستجابة لطلب الإمام زين العابدين.

بين صفوف الباكين والباكيات والنائحين والنائحات، خرج الموكب الرباني الحزين من دمشق، يتقدمه زين العابدين وسيد الساجدين الإمام علي بن الحسين عليهما السلام، وبجانبه أخته السيدة زينب عليها السلام، وخلفهما عقيلات بني هاشم وقد أحاطت بهم جميعاً هالة من النور، وعلتهم الهيبة والجلال والوقار، تلوّح لهم الأيدي في حزن شديد ولوعة بادية،

---

(١) الخصائص الزينبية ص ٢٩٦.

يـــرعاهم عدد من الحرس يرأسهم النعمان بن بشير، في طريقهم إلى مدينة جدهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فما يمرون بقرية أو مدينة إلا وتقيم بهـــا السيدة زينب العزاء لأخيها الإمام الحسين عليه السلام، والشهداء من أبنائه وأبناء أبيه وأخيه وأصحابه رضي الله تعالى عنهم أجمعين، حيث تطل على جموع المعولين والباكين، لتطلعهم على عظم الفاجعة الأليمة، وفداحة المصاب الجلل، الذي ألمّ بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كـــربلاء، والجـــريمة الكبرى التي أقدم عليها يزيد بن معاوية، الذي نُكبَ المسلمون بتسلطه على رقابهم، وتحكمه في مصائرهم.

مـــا أن بلـــغ الركب الميمون العراق، حتى مالت السيدة زينب عليها السلام تهمس بأذن ابن أخيها الإمام السجاد عليه السلام، الذي بدوره نادى الـــنعمان بـــن بشير وطلب إليه أن يسلك بهم الطريق إلى كربلاء، ولم يجد الـــنعمان حـــرجاً بالامتثال لأمر الإمام ففعل ماطلبه منه، فلما أشرفوا على موضع مصارع أهل بيت النبوة، ذريّةِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هـــاج الحزن من جديد في نفس الإمام زين العابدين عليه السلام، ونفوس بـــنات الرســـالة الزاكـــيات المطهّرات، وراحت الدموع تسيل من المآقي المقرّحة، ولما وصلوا إلى ذلك السهل الفسيح على شط الفرات، حيث قتل الإمام الحسين وإخوته وأولاده، وأولاد أخيه وبنو عمومته وأصحابه، ظمآى محـــرومين من ماء الفرات الذي كان يسيل أمام أعينهم بالماء العذب البارد، وجـــدوا هناك الصحابيّ الجليل، جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه، وجماعةً من بني هاشم قد وافَوا ذلك المكان، لما سمعوا بتلك الفاجعة الأليمة

والجريمة المروّعة، فالتقَوا بالحزن والبكاء، والنحيب والعويل، وراحت زينب ترثي أخاها رثاءً يفتت القلوب ويقرّح الأكباد، وهي تنادي وتقول: (وأخاه .. واحسيناه .. واحبيب رسول الله، يابن علي المرتضى، وابن فاطمةَ الزهراء، وابن مكّةَ ومِنى، آهٍ ثم آهٍ عليك يابن رسول الله ..).

حبس الجميع أنفاسهم فجأة، وهم يرون الإمام زين العابدين يخرج رأس أبيه الإمام الحسين عليه السلام، ويجثو أمام قبره ليضمّ الرأس الشريف إلى الجسد الطاهر، ووقف جابر بن عبد الله على القبر ينادي: (ياحسين .. يا حسين .. ياحسين)، فلما لم يسمع جواباً أجهش بالبكاء وهو يقول: (حبيبٌ لا يجيب حبيبه، وأنّى لك بالجواب وقد شُحِطَتْ أوداجُك على أثباجك، وفُرِّقَ بين رأسك وبدنك، فأشهد أنك ابن خاتم النبيين، وابن سيد المؤمنين، وابن حليف التقوى وسليل الهدى، وخامس أصحاب الكساء، وابن سيد النقباء، وابن فاطمةَ الزهراء سيدةِ النساء، وما لك لا تكون كذلك وقد غذتكَ كفُّ سيدِ المرسلين، وربيتَ في حجر المتقين، ورضعتَ من ثدي الإيمان، وفُطِمتَ بالإسلام، فطبتَ حيّاً وطبتَ ميّتاً، غير أن قلوبَ المؤمنين غيرُ طيبةٍ بفراقك، ولا شاكّةٍ في الخيرةِ لك، فعليك سلام الله ورضوانه، وأشهد أنك مضيتَ على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريا).

أقاموا على ذلك العويل والنحيب أياماً ثلاثة، ثم إن الإمام زين العابدين أمر الركب بالرحيل عن أرض كربلاء متوجهاً نحو المدينة المنوّرة.

وفي الطريق إلى المدينة، راحت السيدة زينب تستعرض الأحداث بما تحمل من أحوال غريبة ومفارقات عجيبة، فلقد غادرت المدينة إلى الكوفة

مـــرّتين، وعـــادت منها إلى المدينة مرّتين كذلك، وفي كلتا المرّتين لم يكن الإياب كالذهاب.

فشتّانَ شتّانَ بين قدومها إلى الكوفة في المرّة الأولى مع أبيها علي أميراً للمؤمـــنين وخلــيفة على المسلمين، وبين مغادرتها إلى المدينة حزينة القلب مكسورة الخاطر، قد قتل أبوها وسُلِبَت الخلافةُ من أخيها الإمام الحسن عليه الســـلام، وسُلِّمَتْ أمور المسلمين إلى أعدى أعداء بني هاشم، وأبعد الناس عن الاهتداء بهدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ألا وهو معاوية بن أبي سفيان.

وشـــتّانَ شتّانَ بين قدومها إلى الكوفة في المرّة الثانية، مع أخيها الإمام الحســـين علـــيه السلام، ثائرَينِ على تقمص يزيد لكرسي الخلافة، طالبَينِ الصـــلاح والهدى لأمّةِ جدّهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، راغبَين في إعادة الحق إلى نصابه، وتسليم الخلافة إلى أهلها لتستقيم أمور المسلمين، وبين مغادرتها اليوم مخلّفةً في ساحة كربلاء مجموعةً من قبور مقدّسة، شغلها شـــهداء أطهار من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ورجال أبـــرار من جلّة أصحابه، قد مُزّقت أجسادهم، وديست صدورهم، وفرّق البغي بين رؤوسهم وأبدانهم، ولم يأنف طغيان أعوان يزيد أن يسحبوا ذيل بغـــيهم عـــلى الأطفال والنساء، ليستتبَّ لهم الملك المسلوب، ويصفو لهم السلطان المغتصب.

كانـــت السيدة زينب تفكر في كل هذه الأحوال والمفارقات، فيزداد حـــزنها، ويعلو نشيجها، وتسيل دموعها، وكانت كلما اقتربت من المدينة

ازدادت لواعج أشجانها وتوهجت جمرات أحزانها، وضغطت على فؤادها أثقال تلك المصائب والفواجع، فلا تجد سبيلاً غير البكاء للتنفيس عما يغلي في صدرها من اللوعة والحزن.

فلما أصبحوا على مشارف المدينة المنورة، أمر زين العابدين الركب فتوقف، فحطّ الإمام رَحله وضرب فسطاطه، والتفتت فاطمة بنت علي عليه السلام إلى أختها السيدة زينب تقول:

- أخيَّة، لقد أحسن هذا الرجل إلينا في صحبتنا، فهل لك أن نصله بشيء؟.

- نعم أخية، وهل معنا إلا حليُّنا؟!.

فجمعت السيدة زينب عليها السلام بعض الحلي، وبعثت بها إلى النعمان بن بشير وهي تعتذر له من قلتها، وعدم قيامها بواجب الشكر له على صنيعه الجميل، فردها النعمان قائلاً:

- لو كان الذي صنعت للدنيا لكان في هذا ما يرضيني، ولكن والله ما فعلته إلا لله ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم(١).

- شكر الله لك صنيعك، وجزاك عن أهل بيت نبيه أحسن الجزاء.

ثم التفت الإمام زين العابدين عليه السلام إلى بشير بن حذلم وقال له:

- يا بشير، رحم الله أباك فقد كان شاعراً، فهل تقدر على شيء منه؟.

- بلى يابن رسول الله، إني لشاعر.

---

(١)تاريخ الأمم والملوك ابن جرير الطبري ٦ / ٢٦٦، الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/ ٣٦ و ٤/٨٨.

- ادخل المدينة وانعَ أبا عبد الله عليه السلام.

وما أسرع ماركب بشير فرسه وراح يسابق الريح حتى دخل المدينة، فلما بلغ مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، رفع صوته بالبكاء وهو يقول:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها    قتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاءَ مضرَّجٌ    والرأس منه على القناة يدار

ثم نادى:

-يا أهل المدينة، هذا علي بن الحسين مع عماته وأخواته، قد حلّوا بساحتكم ونزلوا بفنائكم، وأنا رسوله إليكم أعرِّفُكم بمكانه.

وسرعان ما اجتمع أهل المدينة نساء ورجالاً، صغاراً وكباراً،وقد

علا نشيجهم وبكاؤهم، وزحفوا جميعاً يستقبلون أهل المصاب الجلل بالعويل والنحيب، واستقبلتهم السيدة زينب نائحة باكية وهي تقول:

مدينةَ جدِّنا لا تقبلينا    فبالحسرات والأحزان جينا
خرجنا منكِ بالأهلينَ جمعاً    وعدنا لا رجال ولا بنينا
وكنا في الخروج بجمع شملٍ    رجعنا حاسرين مُسَلَّبينا
ومولانا الحسينُ لنا أنيسٌ    وعدنا والحسين به رهينا
فنحن الضائعاتُ بلا كفيل    ونحن النائحاتُ على أخينا
ألا يا جدَّنا قتلوا حسيناً    ولم يرعوا جنابَ الله فينا
ألا يا جدَّنا بلغت عِدانا    مُناها واشتفى الأعداءُ فينا
لقد هتكوا النساءَ وحمّلوها    على الأقتابِ قهراً أجمعينا

فضج الناس بالبكاء، فما سُمِعَ في المدينة أكثر من ذلك اليوم باكٍ وباكية، ولا يوماً أمرّ على المسلمين منه، وخرجوا زاحفين إلى ظاهر المدينة، لاستقبال موكب أهل البيت عليهم السلام.

* * *

## نفي السيدة زينب عن مدينة جدها

منذ أن دخلت السيدة زينب المدينة وهي محط أنظار أهلها من المحبين والمبغضين على السواء، فثمة من تعاطف معها ومع تلك المصيبة الجلل التي حلت بأهل البيت الكرام عليهم السلام، وهم جلُّ أهل المدينة، وثمة من تخوّف مغبّة تحركاتها في المدينة، فراح يراقب سكناتها وحركاتها وينقلها أولاً بأول إلى والي المدينة الأموي، وهو بدوره كان يضخم هذه الحركات ويرسلها إلى يزيد بن معاوية في الشام.

وكانت السيدة زينب عليها السلام قد آلت على نفسها حمل رسالة أخيها الإمام الحسين عليه السلام، وشرح مرامي وأهداف نهضته المباركة ضد السلطة الأموية الجائرة، ممثّلة في يزيد وولاته الفاسدين المفسدين، الضالّين المضلين، فلم تألُ جهداً ولم تدّخر وسعاً ولم تجد فرصةً إلاّ وانتهزتها لإثارة الناس على ذلك الحكم الجائر الظالم.

فما أن دخلت مدينة جدّها حتى أخرجت رأسها من المحمل، ونادت في النساء والأطفال العائدين تواً من الأسر:

(انــزلوا مــن الهوادج، فإني أرى الروضة المنوّرة لجدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم).

ثم ناحــت وبكــت بكــاءً شديداً حتى كادت نفسها تخرج من بين جنبيها، فأقبل الناس من كل ناحية يبكون ويندبون، وضجّت المدينة بالبكاء ضجّة شديدة، حتى كأن الأرض قد زلزلت تحت أقدامهم، ثم مالت ببصرها نحو كربلاء، وراحت تخاطب على البعد أخاها الحسين قائلةً:

(أخــي حســين، هــؤلاء جدُّك وأمُّك وأخوك وأهلُ بيتك ينتظرون قدومك .. يانور عيني .. قُتِلتَ وأورثتنا الأحزان الطويلة، فياليتني متُّ قبل هذا وكنت نسياً منسيّاً).

وعــندما شــارفت المسجد النبوي الشريف، ولمحت عينُها قبر جدّها رســول الله صلى الله عليه وآله وسلم، صرخت وبكت وأخذت بعضادتي باب المسجد، ونادت:

- يــاجدّاه، إني ناعيةٌ إليك ولدك الحسين (١) .. لقد قتلوه بشط الفرات، مظلومــاً محــروماً من مائه المبذول لبهائم الأرض وحيواناتها، وحزّوا رأسه ورضّوا صدره وظهره، وسبوا نساءه وأهله.

ثم راحت تنشد:

إن كنتَ أوصيتَ بالقربى بخير جزاء     فإنهم قطعوا القربــى وما وصلوا
حتى أبادوهمُ قتــلاً علــى ظمأٍ     من بارد الماء ما ذاقوا وما وصلوا(٢)

---

(١) الخصائص الزينبية ص ٢٩٧.

(٢) معالي السبطين ج٢ ص٢٠٩.

وما زالت السيدة زينب تعدّدُ أسماء القتلى مع أخيها أبي عبد الله الحسين عليه السلام والنساء يندبن ويبكين، حتى وصلت إلى مصيبة وفاة الطفلة الصغيرة رقيّة بنت الحسين على تلك الصورة المروّعة المذهلة في تلك الخربة في الشام، فقالت بحرقة وألم شديدين:

- وأما مصيبة وفاة رقيّة في خربة الشام، فقد احدودب لها ظهري وشاب منها رأسي.

وقبل أن يحلّ مساء ذلك اليوم الحافل بالمآسي والفواجع، وقبل أن يخف البكاء والعويل في المدينة، التفتت السيدة زينب إلى قبر أمها الزهراء عليها السلام التفاتة حزينة، وراحت تناجيها بصوت شجيٍّ يخلع القلوب، ويثير كوامن الحزن واللوعة في الصدور:

- أماه .. أماه .. لقد ضربوني بالسياط حتى جرحوا متني .. وآذوني في أخواتي وبنات أخي .. وأذاقوني من جورهم وظلمهم الويلات، وقد أتيتكِ بقميص ولدكِ الحسين مخضّباً بالدماء، وقد مزقته السيوف وخرّقته الرماح.

ثم رمت نفسها على القبر الشريف، وراحت تبكي حتى غُشِيَ عليها، فلما أفاقت راحت تقول:

أفاطمُ مالَقيتِ من الأعادي ... ولا قيراط مما قد لقينا

أفاطمُ لو نظرتِ إلى السبايا ... بناتكِ في البلاد مشتّتينا

أفاطمُ لو نظرتِ إلى اليتامى ... ولو أبصرتِ زينَ العابدينا

فلو دامت حياتُكِ لم تزالي إلى يـوم القيامةِ تندبينا(١)

وهكـذا فعل الحزن فعله في قلوب وصدور أهل المدينة، حتى لعنوا بني أمـية قاطبة، والساعة التي وصل فيها بنو أمية إلى سدة الحكم، والتحكم في رقـاب المسـلمين ومصائرهم، ونامت المدينة بخناجر مبحوحة من العويل والصياح والصراخ، وعيون مقروحة مما سال منها من الدموع.

ولم تكـن الأيـام التالـية حتى أربعين يوماً، بأقل ضجّةً وحزناً وبكاء وعويـلاً، حتى تعبّأت نفوس الرجال والنساء على السواء، وراحت الكتب تصـل تـباعاً إلى يزيد في الشام، تحذره من مغبة ذلك الوضع المتأزّم الذي يُخشى أن ينفجر في أي لحظة ثورة عارمة تطيح بالعرش والجالس عليه.

وفي المسـاء الأخير، ناشدها الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السـلام أن تهـدأ قليلاً، فإن هذا الأمر قد بات يهدّد آل البيت بالخطر من جديد، ولم يعد من الممكن الاستمرار بهذا الشكل المثير، ورضخت السيدة الجلـيلة إلى أوامـر الإمام الواجب الطاعة، والتزمت بيتها بضعة أيام ريثما هدأت العاصفة في المدينة، وانقطعت كتب بني أمية لسيدهم يزيد.

لم تكـن السـيدة زينـب لـتركن إلى الدعة، ولا لتميل إلى الراحة، كمـا أنهـا لم تكن لتخالف أوامر الإمام زين العابدين، فماذا تفعل لأداء رسالتها والمضي في مهمتها التي ندبها لها أخوها الإمام الحسين عليه السلام؟ ولم يطـل بها التفكير كثيراً، فما هي إلاّ أيام قليلة حتى بدأت نسوة المدينة

---

(١) معالي السبطين ج٢ ص٢١٠.

يســعين إلى بيت السيدة زينب، يطالبنها باستئناف الدروس التي كانت قد بدأتها قبل أن تغادر المدينة مع أخيها الإمام الحسين عليه السلام، لكن السيدة زينــب لم تعد قادرة على ما كانت تباشره في تلك الأيام، من تعليم النسوة وتفقــيههنّ، وبــدلاً من ذلك، بدأت تقيم لهنّ مجالس العزاء في بيتها على أخــيها الإمام الحسين، وتذكر للنسوة المصائب والفواجع التي حلّت بأهل البيت في كربلاء، وتعجبُ من الحال التي وصل إليها المسلمون، الذين غرّتهم الدنــيا بزخرفها وزيفها، فمالوا إليهاميلاً عظيماً، هانت معه عليهم نفوسهم وكــراماتهم، فهــان عليهم بعد ذلك دينهم وإسلامهم، ونسوا آياتِ ربهم وتعاليمَ نبيّهم، ورضخوا لسلطان جائر ومُلْكٍ عضوض.

وعــادت كتب بني أمية تترى على يزيد من جديد، مشفوعة هذه المرّة بكتاب من واليه على المدينة عمرو بن سعيد الأشدق يقول لــه فيها: "إن كانــت لك حاجة إلى المدينة فليأتني أمرك بشأن زينب بنت علي"، فجاءه الأمر من يزيد أن فرِّقْ بينها وبين الناس.

وتم حجــز السيدة زينب عن الناس، وحيل بينها وبينهم بشتى الطرق، ولقــي الــوالي عمــرو بن سعيد عنتاً شديداً في ذلك، رغم ما لجأ إليه من الــتهديد والوعيد، وكان لابد لــه أخيراً من أن يلجأ إلى الطريقة الأنجع له والأوجــع لزينــب، فأوفد لها من رجاله من ينقل إليها رغبته في أن تغادر المديــنة، وامتنعــت زينب بإصرار، ورفضت أن تغادر مدينة جدّها مهما كانت النتائج.

وحسب مشيئة الله سبحانه وتعالى وحكمته، فقدجاءت الظروف التي

ساعدت على إنهاء الأزمة المستفحلة بينها وبين الوالي، فقد حلّت بالمدينة مجاعة كبيرة، وكان لزوجها عبد الله بن جعفر بن عقيل ضيعة في أطراف الشام اسمها "راوية"، فعزم على شد الرحال إليها، واستجابت لطلبه السيدة زينب عليها السلام، طاعة منها للزوج ونزولاً عند رغبته، وتنفيذاً لإرادة الله تعالى وحكمته ومشيئته.

وهكذا تحرّك ركب عبد الله بن جعفر، حاملاً معه السيدة زينب، وبعض نسوة أهل البيت الكرام إلى الشام من جديد، وخرج أهل المدينة يشيعونهم بمثل ما استقبلوهم به من الحزن والبكاء.

ومع ابتعاد الركب عن مشارف المدينة، تنفس ابن سعيد الأشدق الصعداء، وظن أن الراحة قد واتته بعد طول العناء، ومأأسرع ماخيبت الأحداث فأله، فالأيام حبلى، ولا بد أن تلد قريباً ما يؤرق عيشه ويعكّر صفو سعادته.

* * *

## الانعتاق من الأسر

لم تكن هذه الرحلة الأخيرة إلى الشام سهلة على السيدة زينب، لأن جسمها الذي هدته المصائب والرزايا، وأنهكته الفواجع والمواجع، لم يعد قادراً على تحمل الأسفار، فما أن حطّت رحالها في ضيعة "راوية"، حتى لزمت الفراش محمومة البدن، محطّمة الجسد، ثم مالبثت أياماً حتى فارقت

الحـــياة غريبة عن أهلها، بعيدة عن مسقط رأسها، محرومة من مدينة جدّها، فلدفنها زوجها في ضيعته تلك، لقد انعتقت روحها الزكية الطاهرة أخيراً من الأسر الكبير، واستراحت من هذه الدنيا بعد طول الضنى والتعب، وصعدت إلى بارئها تشكو إليه ما لاقت من أمّة جدها من الظلم والجور والقسوة.

هل انتهت حياة السيدة زينب عليها السلام بمثل هذا الشكل وعند هذا الحد؟، وهل لمثل السيدة زينب أن تنتهي حياتها هكذا؟، أبداً .. فإن حاملي مشاعل النور للبشرية، لايمكن أن يفنى ذكرهم بموت أجسادهم، فلقد كتب الله لهـــم الخلود في الدنيا قبل الآخرة، كتب الله لهم خلوداً كخلود الرسالة التي حملوها في الدنيا.

إن السيدة التي شاركت الإمام الحسين في ثورته علىالفساد والباطل، وأوضـــحت للناس بعد استشهاده، مراميه وأهدافه من نهضته المباركة ضد الظلم والجور، وتابعت بعده الخطّ الذي بدأه وخطّه بدمه ودم إخوته وأبنائه وأبـــناء إخوتـــه وعمومته، لايمكن أن يمحى ذكرها على مرّ الأزمان وكرّ العصور والدهور، وهكذا بقيت السيدة زينب .. هذه المرأة العظيمة الجليلة .. أسوة لكل النساء المسلمات في حمل مشاعل النور ، وقدوة لهن في الجهاد ضد الجور والظلم، ومحاربة الانحراف والفساد.

دفـــن جسد السيدة زينب، ولم يمت ذكرها في الدنيا، ولا انقطع أثرها عـــن الـــناس، بل بقي اسمها على كل لسان، وفي كل قلب، ونسي الناس "راويـــة" ضـــيعة عـــبد الله بن جعفر، فلقد أصبح اسمها فيما بعد "السيدة زينـــب"، وارتفع على المدفن الطاهر مشهدٌ فخمٌ ومقام عظيم، يؤمّه الناس

يومياً من كل مكان، ومن كل الأعراق والأجناس، لايعيقهم عن زيارته بعدٌ، ولا تمنعهم عن التبرك به مشقّة، وتقام حوله وفيه مجالس العزاء للإمام الحسين وللسيدة زينب عليهما السلام، وذلك في مقر ملك بني أمية ومركز سلطانهم، في الوقت الذي لم يبق لبني أمية في الشام ذكرٌ ولا أثر.

وهكذا يعلو الحق أبداً مهما كثر أعداؤه، ومهما عظم مؤقتاً شأنهم، وينهزم الباطل أبداً مهما اشتدّت وطأته وعظم مؤقتاً سلطانه، وصدق الله العلي العظيم إذ يقول: ﴿ وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (٨١)﴾ سورة الإسراء، ويقول: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ سورة الأنبياء.

**فالسلام عليك ياسيدة زينب، السلام عليك أيتها السيدة الجليلة، السلام عليك أيتها الزكية الفاضلة، السلام عليك أيتها التقية النقية، السلام عليك أيتها العالمة العاملة، السلام عليك أيتها المجاهدة الصابرة، السلام على روحك الطيب وبدنك الطاهر، السلام عليك يابنت أمير المؤمنين وسيد الوصيين، السلام عليك يابنت فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، السلام عليك ياأخت الإمام الحسن الشهيد المسموم، السلام عليك ياأخت الإمام الحسين الشهيد المظلوم، السلام عليك وعلى جدك وأبيك، وجدتك وأمك وأخويك ورحمة الله وبركاته، نسأل الله الذي عرّفنا بكم، ورزقنا في الدنيا زيارتكم، أن يرزقنا في الآخرة شفاعتكم،**

وأن يسقينا من حوضكم شربة لا نظمأ بعدها ابداً، بمحمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وبأهل بيته الطيبين الطاهرين.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

# السيدة زينب الكبرى

يــاذرى العليــاء تيهــي مطلبــا
واشمــخــي دَلاّ وطيبــي ملعبــا
وافخــري بين الــدُّنى مــزهــوّةً
واجعلــي النجم المدلّــى مركبــا
واســألــي أن ضمّ كــونٌ زينبــاً
هــل لهــا يــومــاً مثــالاً أنجبــا
ظبيٌ بــانِ ضَوعُــه مــن عنبــرِ
ينشــر العطــر الطهــور الطيّبــا
قبســةٌ مــن فيض نــورٍ ساطــعٍ
ومضةٌ مــن ســرّ فجــرٍ قد حبــا
درجت في حضن أصحاب الكسا
فغــذَوها الطهــرَ ثــرّاً صيّبــا
وسرت تمشي عــلى درب العلــى
وتــؤدي للهــدى مــا أوجبــا

ليس في الأسباب ما قد فاقها
قد طوقها لم تغادر مطلبا
فهي في الأنساب من نسلِ علٍ
وعلى الأحساب باتت كوكبا
وهي في الدنيا سبيلٌ للهدى
وهي للأخرى صراطٌ مجتبى
لايحوز المجدَ في الناس امرؤٌ
لم يكن أهلاً ليفدي زينبا
كم لها من موقفٍ في موطنٍ
زلزل البغيَ وهدَّ الطُّنُبا
فجّرت بالحرف صلداً قاسياً
من سويدا القلب فانزاح الوبا
أيقظت في العقل حسّاً نائماً
وشعوراً كان دهراً قد خبا
أشعلت من كربلاءٍ ثورةً
غاب عنها من به العزم كَبا
وانبرت للبغي في أوكاره
تنذر البغيَ المصيرَ المرعبا

لم تَهِــنْ والخصمُ عــاتٍ مسرفٌ

قد صلَى للحرب عضبــاً أصلبــا

ساءلتهم هــل بلغتــم مــأربــاً

قــد كــذبتــم مابلغتم مــأربــا

يابنــي الطغيــان لابشرى لكــم

قــد ربحتم لــو وجــدتم مهربــا

كــم فــريتــم لحمكم إذ خضتمُ

فــي دمــانا خوضَ ذئبٍ أسغبــا

أم ظننتــم إذ قتلتــم قَــرمَنــا

وذرارينــا كســبتــم منصِــبــا

لاوربٍّ البيت مــا هــذا لكــم

عــن قريبٍ ســوف يمضي هبهبــا

ويعــود الحكم في كــل الــورى

للــذي يغنيــه ذكــراً طيّبــا

فــلٌّ سيــفٌ صــارمٌ لايمتطــي

مسلك الحــق صريحــاً مُسهَبــا

لــم يــدم حتى لكسرى ملكــه

عندما كسرى عــن الحــق صَبــا

سنـــــةُ اللهِ التـــي لا تنقضـــي

شـــاء شـــاةٌ أم هو الشـــاةُ أبـــى

* * *

زينـــبٌ قـــد فجّـــرتـــهـــا ثـــورةً

مـــن بيـــانٍ فـــاق جيشـــاً لَجِبـــا

جـــرّدت حـــرفاً صقيلاً ناطقـــاً

وبيانـــاً مـــن فصيـــحٍ أعـــربـــا

يا لَكوفـــانَ الخنـــا بعـــداً لكـــم

كيـــف أبـــدلتم بشرقٍ مغـــرِبـــا

إذ تنكّبتـــم طـــريـــقَ المصطفـــى

واتّخـــذتـــم دربَ غَـــيٍّ مركبـــا

قـــد جريتم في طـــريـــقٍ مهلـــكٍ

ظنـــه الخـــذلانُ ســـهلاً أرحبـــا

وخسئتـــم يـــا بني غـــدرٍ فلـــن

تطفئوا نـــوراً لأصحـــاب العَبـــا

إنـــه الوحي الـــذي قـــد جاءنـــا

وعلـــت رايـــاتـــُه رغم الظُّبـــى

جاءنا التطهير مـــن ربِّ الســـما

وعن الأرجاس جـــُزنا سبسبـــا

فغـــدونـــا تـــاجَ عـــزٍّ دائـــمٍ
وغـــدت أرواحُنـــا رمـــزَ الإبـــا

* * *

زينـــبٌ بنـــت المعالـــي والتقـــى
خير مـــن فـــي الكون أمّـــاً وأبـــا
كـــم طواها المصطفى فـــي حضنه
فاغتـــدى الصـــدرُ الحنونُ الملعبـــا
وسقـــاهـــا رشفـــةً مـــن ريقـــه
وعلـــى المهـــد الطهور احدودبـــا
واكتست مـــن حيدرٍ ثوبَ الإبـــا
واجتنـــى الفخـــرُ إزاراً للصِّبـــا
وغـــذتها فـــاطـــمٌ دَرَّ التقـــى
صافـــيَ الشّـــربِ نقيـــاً صيّبـــا
جـــادلت بالحـــق لـــم تلبسْه مـــا
تشـــتهيـــه مغنمـــاً أو مكسبـــا
كشفت للنـــاس نابـــاً جـــارحـــاً
مـــن أبـــي سفيانَ يتلـــو مِخلَبـــا
ســـوف أقفـــو أثـــرهـــا لا أنثني
أتبنّـــى مـــا تبنّـــت مـــذهبـــا

وإذا مــا جئتُ يــومــاً مشــهداً
فــي شآم المجــدِ قِــدماً قد ربــا
هيبــة الإيمــان قــد حَفّتْ بــه
وجَلَتْ أركانَــه ريــحُ الصَّبــا
سوف أحني هــامتي فــي لــوعــةٍ
وأُحيّــي مــا حَييتُ المــوكبــا

* * *

"من شعر مؤلف الكتاب"

# تقول للبغي زل

هــــمٌّ ثقــيلٌ على الأكتاف محمول ... وزورق العمــر يجــري والمــدى غول

اللــيل والــبغي جــزّاران مــا فتئا ... يدبّــران لـــنا والعقـــل مشـــلول

مـــاذا جــرى أمتي حتى سرى خَوَرٌ ... كـــأن مائلـــةً قالـــت لـــنا مــيلوا

ملـــنا عـــن الحـــق واشتدّ الأُوار بنا ... وانتابـــنا بعـــد نـــور الحـــق تضـــليل

نـــام الفـــرات ونامـــت دِجلةٌ معه ... ولـــيس يصـــحو مـــن الإغفاءة النيل

حـــتى الحجازُ غفا في حضن ناعسة ... فـــلم يعـــد بحجـــاز الـــيوم تأمـــيل

هـــذي جيوش بني سكسونَ زاحفةً ... عـــلى العـــراق ومـــا في العُرْبِ مأمول

نحـــن العصـــافير والصـــياد يطلبنا ... ولـــيس مـــن شـــجرٍ يحمـــي ولا غيل

كـــنا نســـوراً إذا مـــا الليل ضايقنا ... طِـــرنا إلى حِصـــنه والظّفـــر مســـلول

مـــا دار في خَلَـــدٍ يـــأتي علينا غدٌ ... تفـــنى الأظـــافير والمـــنقار مغلـــول

بـــلى لقـــد حدّثَ التاريخُ عن مَثَلٍ ... فـــيما مضـــى ولـــنا في الأمـــر تحليل

يجـــرّد البغيُ سيفاً في الطفوف على ... ســـبط الرســـول وتختـــال الأباطـــيل

فـــلا تـــني أُمّـــةُ المختـــار نائمـــةً ... عـــن نصـــرة الحـــق إن الحـــق مملول

سالت دماء بني المختار معلنةً ... نحن الزيوت فضوّي يا قناديل
تلك الرسالة لاقت من يبلّغُها ... عن الحسين فيصحو بعده الجيل
فالطهرُ زينبُ ما كانت لتسكت عن ... ظلم الطغاة وسيلُ البغي موصول
إن كان يرضيكَ يا ربّاه مقتلُنا ... ففي سبيلكَ هذا الدمّ مبذول
إنا سنبقى على عهد النبيِّ لنا ... بأن نبلّغ إن العهد مسؤول
طافتْ وقد عزمتْ أن لا تلين وأن ... تلقى البغاةَ وستر البغي مسدول
قالت: يزيدُ ظننتَ الملكَ قد رسخت ... أركانُه فإليك الأمرُ موكول
تريد تهدم دين الله متّكلاً ... على الخفافيش يا بئس المواويل
نسيتَ يوم أتى الأحباشُ في زَخَمٍ ... محزّمين بحبلٍ دونهم فيل
فلم ينالوا سوى الخذلانِ وانصرموا ... وشتتتْ شملهم طيرٌ أبابيل
ولم تزل زينبٌ في كل مفترقٍ ... تقول للبغي زُلْ فالبغي مرذول
وكلما ناولت سيفاً لطائفةٍ ... تقول صولوا به فالنصر مكفول

مضت تنير دروباً ليس يسلكها ... إلاّ الذي قلبه بالحب مجبول
فما مضى زمنٌ حتى انقضى أجلٌ ... للمجرمين وأمر الله مفعول

فيا شآم اصدقينا أين من سكنوا ... عالي قصورِك هل في عمرهم طول
وفي الشآم مقاماتٌ لمن ظُلموا ... من آل ياسين أطهارٌ بهاليل
إذا دخلتَ فشمّ الدينُ غايتُهم ... وأن يدوم لآي الذكر ترتيل

وهـــذه زينـــبٌ والشـــام مسكنُها وفي المقـــام إذا مـــازرتَ تفصـــيل

نـــزت قرودٌ على الأوطان واهتبلت قومـــاً سُـــكارى وفي الآذان تثقـــيل

قـــالوا لأمّـــتهم لا تُحدِثـــوا حدثاً فالســـيل طـــامٍ وســـيف البغي مسلول

لا نســـتطيع قـــتالاً أو ممانعـــةً فالـــرمح منكســـرٌ والســـيف مفلـــول

أفـــتَوا لـــنا أن نطـــيل النوم فهو لنا حصـــنٌ كمـــا زعمـــوا والقول تخييل

ربـــاه صِـــرنا بهـــذا العصر مهزلةً كأنمـــا نحـــن في الدنـــيا مهابـــيل

فهـــل لـــنا من حسينٍ يفتدي وطناً قـــد كبّلـــته ممالـــيكٌ مهـــازيل

وهـــل لزينـــبَ أن تمحـــو مذلّتـــنا فـــنحـــن والله آســـادٌ مـــراقـــيل

الأحد: ٢٥ ربيع الآخر ١٤٢٥هـ
١٣ حزيـران ٢٠٠٤ م

"من شعر مؤلف الكتاب"

# المصادر والمراجع


– أ –

البداية والنهاية لابن كثير.

ابن مندة.

الإرشاد للشيخ المفيد.

أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير.

الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر القرطبي.

الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني.

الإمام الحسن بن علي للشيخ محمد حسن آل ياسين.

الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري.

الدر المنثور للسيوطي.

السيرة الحلبية– علي بن برهان الحلبي.

السيدة زينب عالمة غير معلّمة للإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي.

السيدة زينب بنت علي صانعة التاريخ وأسوة للمرأة المسلمةمن إعداد: حسان عبد الله أبو صالح وإسماعيل خليل أبو صالح.

السيدة زينب وفاجعة كربلاء تأليف دار التوحيد– الكويت.

الصدّيقة زينب شقيقة الحسين – السيد محمد تقي المدرّسي.

الصدّيقة زينب مثال المرأة الواعية للشيخ حسن مكي الخويلدي.

الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي.
الكافي للشيخ الكليني.
الكامل في التاريخ لابن الأثير.
المرأة العظيمة للشيخ حسن الصفّار.
المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري.
أمالي الشيخ الصدوق.
النور المشتعل للحافظ أبو نعيم.

- ب -

بحار الأنوار لمحمد باقر المجلسي .

- ت -

تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر.
تاريخ ابن كثير.
تاريخ الأمم والملوك للطبري.
تاريخ أبي الفداء لابن كثير.
تاريخ الخلفاء للسيوطي.
تاريخ الخميس للديار بكري.
تاريخ اليعقوبي.
تجهيز الجيش للدهلوي.
تذكرة الخواص لابن الجوزي.
تراجم أعلام النساء للأعلمي الحائري.

تراجم سيدات بيت النبوّة / كتاب السيدة زينب للدكتورة بنت الشاطئ.

- ذ -

ذخائر العقبى للمحب الطبري.

- ر -

ربيبة الوحي من إعداد مؤسسة السيدة زينب الخيرية.

رسالة الجاحظ في الأمويين.

روضة الواعظين للفتّال النيسابوري.

رياض المصائب.

- ز -

زينب بنت الزهراء وثورة كربلاء في الوجدان الشعبي.

زينب القدوة والرمز.

زينب الكبرى للشيخ جعفر الربعي المعروف بالنقدي.

زينب الكبرى بطلة الحريّة للسيد أبوالقاسم الديباجي.

- س -

سنن ابن ماجة.

- ش -

شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي.

- ص -

صحيح البخاري.

صحيح الترمذي.

صحيح مسلم.

- ط -

طبقات ابن سعد.

- ع -

عقيلة بني هاشم لعلي بن الحسين الهاشمي الخطيب.

عقيلة الطهر والكرم السيدة زينب للشيخ موسى محمد علي.

علل الشرائع للشيخ الصدوق.

- ف -

فاطمة الزهراء أم أبيها للشيخ فاضل الميلاني.

فرائد السمطين للإمام الجوّيني.

- ك -

كفاية الطالب للكنجي الشافعي.

- م -

مجلة " المرشد " العدد / ٥ / لعام ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

مجلة " الموسم " العدد الرابع- المجلد الأول ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

مجلة " الموسم " العدد الخامس والعشرون ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

مسند أحمد بن حنبل.

مروج الذهب للمسعودي.

معالم السمطين.

معاني الأخبار للشيخ الصدوق.
مع بطلة كربلاء للشيخ محمد جواد مغنيّة.
مقتل الإمام الحسين للخوارزمي.
مقاتل الطالبيين لابن شهراشوب.
مناقب آل أبي طالب لابن شهراشوب.

- ن -

ناسخ التواريخ.
نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية للدكتور أحمد محمود صبحي.
نور الأبصار للشبلنجي.

* * *

## المحتوى


| | |
|---|---|
| المقدمة | ٧ |
| الفصل الأول: طفولة في أحضان المصائب | ١٣- ٦٨ |
| نور علي وفاطمة | ١٥ |
| ريحانتا رسول الله | ١٨ |
| الصّدّيقة زينب الكبرى | ٢٥ |
| طفولة في أحضان المصائب | ٣٣ |
| المصيبة الكبرى (بوادر الانقلاب) | ٣٨ |
| الانقلاب الكبير (اغتصاب الخلافة) | ٤٥ |
| الانقلاب الكبير (اغتصاب فدك) | ٥٢ |
| ثانية المصائب الكبرى | ٥٣ |
| ورضخ علي للانقلاب الكبير | ٥٩ |
| زينب على خطى أمها الزهراء | ٦٤ |
| الفصل الثاني: وشبت الحوراء زينب | ٦٩-١١٤ |
| يتقاذفون كرة الخلافة | ٧١ |
| وتزوجت زينب | ٧٧ |

الفتنة الكبرى ٨٦
جمل كعجل بني إسرائيل ٩٥
في الطريق إلى البصرة ٩٩
الفصل الثالث: مع معاوية (فرع الشجرة الملعونة) ١١٥-
٢١٠
إلى الكوفة ١١٧
في الكوفة ١٢٥
اغتيال الإمام علي ١٣٩
المصائب تتجدد على السيدة زينب ١٤٧
البيعة للإمام الحسن ١٤٩
زينب ومحنة الإمام الحسن ١٥٦
توقيع الصلح مع معاوية ١٦٣
العودة إلى المدينة المنورة ١٧١
في المدينة المنورة ١٩٠
السيدة زينب تتابع دروسها ١٩٣
اغتيال الإمام الحسن ١٩٦
الإمام الحسن يوصي للإمام الحسين ٢٠٦
الفصل الرابع: السيدة زينب في كربلاء ٢١١-٢٦٦
نذر العاصفة ٢١٣
في الطريق إلى مكة ٢٢٠

| | |
|---|---|
| خروج الإمام الحسين من مكّة | ٢٢٣ |
| في أرض كربلاء | ٢٣١ |
| زينب في السبي | ٢٤١ |
| موكب السبايا في الطريق إلى الشام | ٢٥٠ |
| زينب في مجلس يزيد | ٢٥٦ |
| وفاة السيدة رقية في خربة الشام | ٢٦٢ |
| هند زوجة يزيد تستقصي أخبار السبايا | ٢٦٣ |
| الفصل الأخير: الانعتاق من الأسر الكبير | ٢٦٧-٢٨٤ |
| العودة إلى المدينة | ٢٦٩ |
| نفي السيدة زينب عن مدينة جدها | ٢٧٥ |
| الانعتاق من الأسر | ٢٨٠ |
| السيدة زينب الكبرى (شعر) | ٢٨٥ |
| تقول للبغي زل (شعر) | ٢٩١ |
| المصادر والمراجع | ٢٩٥-٢٩٩ |
| المحتوى | ٣٠١-٣٠٣ |

* * *

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٢٧٣٨١
التاريخ ٢٣/٣/٢٠٠٦

## ابراهيم محمد جواد

- كاتب وشاعر من الجمهورية العربية السورية :
- مواليد الفوعة - محافظة ادلب : ١٩٣٧ م.
- التحصيل العلمي : اجازة في الشريعة الاسلامية من كلية الشريعة في جامعة دمشق

**مؤلفاته :**

١- فاطمة الزهراء صوت الحق وصرخة الصدق - ط١- ١٩٩٤ م
٢- السيدة زينب ثورة لا تهدأ ودمعة لا ترقا ( بين يديك )
٣- الصراع بين الغرب والاسلام ( معد للطباعة )
٤- حقائق من التاريخ ( معد للطباعة )
٥- شخصيات تاريخها مضيء ( معد للطباعة )
٦- نظرات في الثقافة والحداثة والجمال ( معد للطباعة )
٧- مقالات الاسلام العالمي ( معد للطباعة )
٨- عرس الشهادة (شعر) - ط١ - ١٩٩٥ م
٩- ديوان شعر ( معد للطباعة )

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان
ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧
E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com